





الأعمال الكاملة 3

شوقى عبد الحكيم

بيروت البكاء ليلاً و قصص أخرى

- بيروت البكاء ليلاً
- لصوص الموتى
- الدبايح
- عبدة الأصنام
- حكاية قبطية
- حق الدوا على مين
- حكاية بنت اسمها خيبة
- العركة
- عنكبوت
- لص الملوك

الجزء الثالث

شوقى عبدالحكيم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الكاملة)

إشراف: طارق الجمال

الجزء الثالث

شوقى عبدالحكيم

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميرسرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

بيروت البكاء ليلاً

- ١ -

قال : كان ما يعجبنى فيها أو لا يعجبنى٠لا أعرف على وجه الدقة ٠ أحاول جاهدا الايضاح ٠ هى تلك الحكايات الصغيرة الى حد الهيافة ، والتى تنساب على التوالى ــ من فمها ــ مع طرقعات اللبدن ــ مرت على شــكل سريان الذكريات ، تلك الأفعــال المتراكمة كمثل قمامات المدن المحاصرة الموبوءة ، الا أنها على أية حال ذكريات تظل عالقة بالكائن ، مثلها مثل الجلد والبصمة وحجم الفك ٠

وقال ان المهم هنا هو الحكايات ، لا من حيث انى جامع لها أغترفها من أفواه الناس ٠٠ حين كان يأخــــذ طريقه فى الصباح عبر الطرقات الزراعية والغوص فى أوحال البلدان الصغيرة والبنادر والقرى ضاربة القحط والســواد بحثا عنها منسابة من فم لفم ، أفواه جوعى وشائخة وجنائزية لندابات القرى والبلدان المحيطة ٠ أناس عمال زراعيين ورعاة وصيع ، تطحنهم مهنهم اليومية ، والتى قد تمتد لأحقاب ، مضافا اليها الجروح ٠٠ تلك الندبات الغائرة التى تولدها الأيام والليالى عبر رتابة تتابعها المتوالى ، من ندبات قد تنبت مزهرة للحظتها ، طارحة من فورها حصادها ومواتها المعجل ، منها تلك النتئة أو الدمل الذى نبت للحظته مرة فى قدم الخليفة العباسى الثانى السفاح ، وما أن دلكته له خليلته المصرية من تانيس ــ الغادرة ــ حتى تمدد ميتا ٠ السفاح يموت ٠

فكم من ندبات تحملها القلب ٠ وكم من جراح كانت تفيض بها حكايات القرى وفابيولاتها ٠ تسأل ٠ أهى ذاتها الندبات ٠ الجراح ٠ حتى هنا ، لعله ذات الفم ٠ التم ٠ الايقاع ٠

كان قد قدم الى بيروت ، هاجا بجلده من قهر مدن أكثر حصارا من القـــاهرة ٠ وكان قد عبر سلسلة متوالية من المصائد والحصارات من جمارك وتفتيش مرورا بعمان ٠ الزرقاء ٠ دمشق وبيروت ٠ ألعلها ذات الحكايات ٠ الحواديت ٠

قالت : انقطعت طفولتي بقريه الجنوب اللبناني السليبة ـ راشيا الفخار ـ منذ الطفولة وانقطاع الفطام • تربيت عند تيتا ـ في القنيطرة وحين تعلمت المشي وجاءت أمي للعودة بي وتعميدي اخترتها آشبينتي ، لم أكن أعرفهـــا • وحين التقيت للمرة الأولى باخوتي ، غريبة تائهه ، انهالوا على ضربا جميعهم من كل جانب ، كمثل جوارح صغار •

قالت : وهأنذا منذ لحظتي تلك نهبا للضرب الجماعي •

كانت المدينة المثقلة بالحصار والعدوان بيروت ، مثلها مثل جسد بشرى مقطع ، على هذا النحو ، أو ما يقاربه قليلا ، تبدت لعينيه من نافذة السيارة التي استقلها من دمشق عبر تلال الجليد الممتدة • لا شيء يقطع الصمت سوى الطلقات المتبادلة عبر محاور ، أشلاء الجسد البارد الممزق، على عادة آلهة الاخضرار الذبيحة • تذكره اله فينيقيا الممزق ، الذى لحقته أيدى الاغتيـــال وليس الموت ، ادونيس ، وتموز ، ربط بينهما وبين أوزوريس مصر •

غمغم وهو يستجلي شعارات الجدران والميادين :

ـ جميعهم لحقتهم أيدى الاغتيال الجماعي عبر البرارى ، ســواء أدونيس لبنان ، أو تموز ما بين النهرين ، أو أوزيريس مصر من سفلي لعليـــا •

كان قد زار عابرا الكثير من المدن الأقل خرابا • الناس على الدوام جميعهم غرباء ، ويبدو أن الوحدة الجاثمة تجيء ملازمة للقوة واستهدافها•

ولعلها المقولة الوحيدة لفيلسوف النازية والتفوق « نيتشه » • التي يحفظها له كثيرا « الانسان القوى هو الانسان الوحيد » • ورغم أنها مقولة مرعبة ، الى حد ما يحدث من دمار ، وتبادل اطلاق النار العنصرية على المحاور ، الا أنه تقبلها ، وقد تكون أراحته كثيرا ، الى حـد تقبله لحالات تمريض نفسه بالقيء والمغص الكلوى • وحالات التسمم بالسكر ، عبر الفنـادق والبنيونات الرخيصـة ، في باريس والكوت وازور ، ومرسيليا وباب خضرا في تونس وسوسه • تلك المدن المذعورة بالخوف والتربص • وهو في كل حالاته غريب وسط غرباء •

في الأسواق الشعبية للحرامية وسلع البالات الروبابيكا • كان يحـلو له الاستماع اليها • تلك الحكايات الصغيرة ، الأقرب الى ألوان

الأطفال ورسوماتهم ، سوى من اختلاف ضئيل يتصل بالتصميم ، ذلك الذى يمتلك الجسد الأساسى لكل حكاية مفردة ، حتى لتصبح مثلها مثل الكائن البشرى الحى المهاجر دوما ٠

قالت : مفيش حاجة بتاعتى ٠

قال : منذ الضرب الجماعى ٠

تذكر أن بالقرب من ذات المكان ـ الجنوب اللبنانى ـ سبق له التعرف على الحكاية الأم ٠ حين أقدم اخوة يوسف الصديق ابن الجارية المضطهدة راحيل ، ابنـة لابان بن تاحور السـورى الفلسطينى الجورانى ، الأحد عشر ، على ضربه والقائه فى أعماق الجب ٠

غمغم : « لعلها ابنة غير شرعية ، لأم شامية فلسطينية ، ترويها الجدات والتينات ، مع رضعات اللبن منذ المهد ، لتستقر فى المخيلة ، وعنها ينتج ويجىء على عادة الارث والتوارث ، كل مسوخاتها ٠ عبر جيل وما يعقبه وذاكرة وأخرى ٠ الذاكرة مستودع الحكايات الصغيرة ٠ أين هى فيما يحدث ٠

الطبيعة الراعدة عبر البحر والجبال ، والنار على المحاور ، وسيول السيارات والشاحنات الحبيسة الكسحاء ٠ على الطريق المتعرج ما بين دمشق ومداخل بيروت ٠

قدم هذه المدينة هربا بجلده من حصارات أكثر قسوة ٠ لماذا كل ما بداخل حقيبته لا يعدو مخطوطات الحكايات الصغيرة والاستطرادية التى دأبت الشفاه على أن تلوكها بلا توقف أو هوادة ، من حيث انها تحفظ ما يمكن أن يشـابه الذكريات ، تلك التى مكانها الذاكرة ٠ مسـتودع الحكايات الصغيرة ، التى قد توغل فى قصرها وايجازها ، الى حد المأثور ٠ النكتة ٠ أين هى فيما يحدث ، من حصارات الجليد ، ودوى الانفجارات وتلك الشبورة الجاثمة الثقيلة المغيبة لكل مرئيات ٠

وفى لحظة متقاربة ، بل لعله « أتموسفير » متناسق ، هو ذلك الذى جمع بينهما منذ أول لقـاء ، حيث جاء كلاهما من بلده ومسقط رأسه ومرتع طفولته ، هى من احدى قرى الجنوب التى يحتضنها الجبل الشاهق الماثل ، راشيا الفخار هربا من اعتداءات اسرائيل التاخمة ٠ وهو من احدى قرى الفيوم ، وما اشتهر عنها منذ فخار ما قبل التاريخ ، والدولة

القـديمة ، مرورا بفخار الاقليم الأرسـينوى البطلسى الهلينى الرومانى والقبطي ، وحتى أيامنا ، حيث يقوم الفـلاحون وحفارو المقابر بنهبه بالمقاطف والجوالات من « كيمان فارس » واهناسيا المدينة ، وأبو صير الملق ، وجميع الهوارات السبع ، واللاهون ٠

أكداس من التماثيل الفخارية المهشمة في عمومها كان يحرص فى جمعها على ما تبقى منها من رءوس الآلهة ، والملكات والآلهات : ايزيس ، حورس ، نفتيس ، هاثور ، واله الموتى حارس الرمم انوبيس الذى يحرص تجار الآثار على تلقيبه بأبى الحصين ٠

هى هى ذات البلدان التاريخية للموتى وما خلفوه للأحياء٠هى بذاتها الموغلة فى العوز واللا أمن ٠

قال : لعلها هى هى المعضلة الجاثمة لسيول السيارات والشاحنات الحبيسة داخل أكداس الجليد ، ويشناع عبر نداءات السائقين واجهادهم ، أن الأمر قد يحتاج الى نجدات عاجلة بالهيلوكوبتر ٠

الأمن وافتقاده ٠

عبر كل المحاور الملتهبة بالجليد ونيران الميليشيات ٠

وبدا هو بدوره ــ المهاجر ــ بمنظاره ومعطفه المتهدل ، وهو يرقب وجهه بلا تعمد فى مرآة السيارة ، مكفهرا ٠

كان قد بدأ يغزوه خوف حقيقي على محتويات حقيبته ٠ نصـوص حكايات فقراء فلاحى مصر ونداباتها ، التى دونها للمرة الأولى من أفواههم، أهازيجهم وغنائهم وندبهم الذاتى بقلم رصاص أو كوبيا ، وظلت حبيسة عنـده منـذ أكثر من عشرين عاما الى أن جمعها بترابها وأودعها حقيبته المهترئة هذه التى أصبحت غارقة فى مياه الأمطار ، والتى لابد أنها لحقت ورقهـا الأصفر الرخيص المهترىء ٠ انها كل ما خرج به من بلده سواء الفيـوم ، أو قاهرة السادات التى أدماها القهر وألبسنها شاراته ــ أو طرحاته ــ السوداء ، المهينة ٠

★★★

- ٢ -

رأى نفسه عبر الفراغ الجليدى اللانهائى ـ ولدا صغيرا بطىء الايقاع يسعى عبر جموع زاحفة من صبيان وبنات وكهول وعواجيز ذات مطلع نهار ـ قبل طلوع الشمس ـ الى أحد الموالد الموسمية القريبة • يتسمر مبهـورا أمام الأراجوزات والخلابيص ومقاهى الهواء الطلق ، وحـركات الغوازى والصبيته من المغنيين الشعبيين ، مواصلا تنقلاته عبر ايقاعات الأذكار ، ومنشدى دلائل الخـيرات ، ودقات كوديات الزارات الهمجية المهيجة من سودانيين ونوبيين وصعايدة •

الى أن كان يوم قرر فيه جمع وتدوين ما يسمعه من حكايات وأشعار من خضراء دنيوية ، لحمراء جنائزية ، على ورق كراساته المدرسية ، وكلما تراكمت نصوصها ، راح يسترجعها بالقراءة والتمثل على ضوء اللمبات الغازية ، قبل أن تدخل الكهرباء بلدتهم •

لكم كانت رحلة شاقة وعرة مضنية امتدت لأكثر من ثلاثين عاما ولكم هجر كل شيء بحثا عنها • الحواديت ، حتى مدرسته ، ومساعدة والديه •

أصبح لا شيء يمكن أن يتملك مخيلته ، سوى السعى ، بلاد وقرى اثر بلاد بحثا عنها من أفواه الناس ، من سائلين وشحاذين ورعاة بهائم وندابات وممثـــلات وكوديات وحراس مقــابر ولصوصها ، الذين عادة ما تغشى عيونهم نهارا وفى وضح ضوء الشمس ، لكنها تبرق ليلا فيرون على عادة المعبودات الطواطم من كلاب وأبناء آوى •

حكايات تروى وتفيض فى سرد مواجع وآلام بطلاتها من أطفال جنينية تعانى الاضطهاد والمطاردة منذ أن كن نطفا فى بطون أمهاتهن الحوامل ، لحين اكتمالهن على مدى انقطاع حيض النساء ، عبر أشهر الحمل التسعة ،

وذلك حين أقدم عمال وبصاص كل من فرعون مصر مع موسى ، ونمرود بابل وما بين النهرين مع ابراهيم الخليل ٠

وأخرى توغل في رصـد معاناة فتيات ـ بنوت ـ كست الحسن والجمال في مواجهة زوجة أبيها ، وأخوة كبار في صراعهم مع أشقائهم الصغار ، يقطعن من أجسادهم بالسكاكين ، لتتحول الأعضاء المتقطعة من فورها الى نبات زهور الأكاسيا الدامي عبر البرارى وبحيرات التماسيح ، مفتوحة الأفواه للالتهام ، وعيونها تسح دموعا بلا هوادة ، في حالة أقرب الى التحسر ، منها الى أمراض العيون ورمدها ، كما لو كن أناسا من بين الانس ، مسخن الى حيوانات خشبية مجففة ، تسعى على طول البحيرات المسحورة ، قارون ، وبحر يوسـف والنيـل ، عبر حالات التحولات والتبدلات في حكايات وخرافات سحر المشاركة والأثر ، بين ساحر شائخ وصبيه الفتى الذى علمه كاره ومهنته يوما ، ولما فاقه واشتد ساعده رماه ٠ مثلما حدث بتمـامه في حكايات السريان النسـاطره والسورية واللبنانية بين وزير البلاط الأول الحكيم احيفار وبين صبيه وابن أخته ـ الانتهازى ـ نادال أو النذل ، الذى انتهى به صراعه مع خاله الى أن يواصل ضموره وتضاؤله ليصبح كمثل قملة الحنطة ، يفسدها الى حد معادة الاثمار والاذدهار ، في جدلية علاقتها ٠ ملازمة الافساد للنماء ، والموت والانتفاء لمعاودة الحياة ٠

من حكاية نسائية نمطية ، لزوجات خائنات تظل تواصل اختزالها عبر العصور ملخصة في مأثور أو نكتة بذيئة وخادشة ومحرضة ٠

زوجات لصات وفتانات ومخلصات وشبقات ، نادبات أحوالهن في بكائيات جنائزية ذاتية :

مسيكي بالخـير يا عـود الأنا يا روحى
يالى تيـابك على الجسـم ترد الروحى
بكره آخذ اسمى واسمك واكتبه فى اللوحى
واعلقه فى الهوا الطاير لأجل البكا والنوحى

ومنهـــا :

يجـــازيك يادى العـــدو يجـــازيك
يالـــلى بتبحـــت فـــى حضـــانا
بعد الجميل مـــا كان رامى الرراميـــل
خليتـــه جفـــانا ٠

حكايات تلوكها الحلوق ، وهى الأصل فيما يحدث ، سواء الآن على المحاور ٠ أو فى ذلك الاضطهاد المزرى الى حد التكافؤ بالتجاذب ٠

أن يلتقيـــا ٠



- ٣ -

تذكر انهم كانوا قد أخذوا الموسى بجرابه الأبنوسى من جيبه الخلفى حين ضبطوه معه ، فتحفظوا عليه ووضعوه بعناية فى خانة المضبوطات بجمارك عمان •

حين تجمهر حراس الحدود البدو قصار القامات ، بكابانهم الزرقاء فأحاطوه من كل جانب وعاودوا التفتيش عبر جيوبه حقائبه واسته ؟؟ •

حاول افهامهم فى صمت مشيرا الى ذقنه ورقبته ، استراب الركاب وبقية المسافرين ، وتحسس أكثر من راكب بدوى مناطق عنقه بعيونهم فى استرابة •

الناس عبر حواجز الحدود والجمارك لا يعرفون بعضهم البعض ، سوى أنهم يتبادلون الكلمات العجلى •

على طول الطريق الصحراوى تتراص شاحنات وقاطرات المازوت •

تزايد سوء وضعه ، حين عثورهم على بضع حبات لأدوية مختلفة ، وقدم صول وكاتب مدنى بيده قلمه ، ليجرى التحقيق حول الموسى ، وأوراقه الكثيرة المهترئة الصفراء ، وشرح لهم الوضع فى صعوبة وحكاية الحكايات •

قال بان الأمر لا يعدو ، بضع حواديت ونكات عامية وخارجه بذيئة لبطات وشحارير وأبراص وعناكب وزواحف ، من تلك التى على بطونها تزحف وترابا تأكل وتقتات •

هداهد لها هيئة الطواويس ومن فصيلتها ، رسل الحب بين بلقيس الملكة وسليمان الحكيم •

ضحك الجنود قصار القامات فى حياء وكأن الأمر فاضح الى هذا الحد • وربط الكاتب المحقق بملابسه المدنية ، بين الموسى الأبنوسى فى جيب المهاجر وبين الأوراق والكراسات • الورق •

لماذا يكرهونه •

كان اله وجه طويل عظمى ناحل ، وكان له ـ دقة ـ تركوازية لوشم ثلاث حبات هرمية لعنبات ، أو تفاحات • يدخن بطريقة متواصلة ـ وبين وقت وآخر يبصق فى سلة بين قدميه ، معاودا الكتابة والتلصص •

وأجابه : بأن من السـابق لأوانه الربط ، بين أوراق حكـايات قديمة ، كان قد جمعها منذ زمن من أفواه العامة ، بنفس ما يحدث فى حالات جنى القطن وآفاته ، وهو أمر عادى غير ضار بالدرجة التى يربط بينها وبين الموسى ، الذى لم يفارق جيبه الخلفى منذ الافراج عنه عبر صحارى مصر المحاطة ، احاطة الرمل بالواحة ، وعبر سلسلة متناهية من محاولات الاطباق عليها وجها لوجه من كل جانب ، على عادة ما يحدث مع الحيـوانات الضـارية ، التى أفضت به بدورها لأن يصبح مثلهم ومن فصيلتهم ••• ضاريا •

دفع طاولة المحقق • فى الوقت الذى أطبقت عليه من كل جانب العساكر القصيرة فى محاولة لمنعه من الوصول بمرفقه الى طاولة المحقق، مجاهدا فى عنف حقيقى لمقاربة سلة الزبالة بين قدمى المحقق الموشوم ، لينكفىء باصقا مسعلا فى عنف أقرب الى السعار الطويل المصاحب للاغماء وحالاته ، مهوهوا على عادة الكلاب الضالة :

ـ هـو •• هـو •

ظل يسعل مهوهوا منكفئا عبر مساحة الصمت المطبق وقيام المحقق المدنى الموشوم على كرسيه الخيزرانى مبتعدا ، ووجـوم العسكر وذعـر الصول السمين ، الى أن دفع له أحدهم بالسلة وآخر بكوبة ماء ، ثم شاى بالنعنع ولفائف • وانتهى الموقف ، بنجاحه فى كبح ذلك البكاء الداخلى الملازم للسعال والسعار •

اعتذر للجميع وشـدد عليهم مسلما ، خاصة الصول الذى أشار بجمع حاجياته وحين عاد الى السيارة رحب به الجميع ، وانطلق السائق الفلسطينى من أريحا عبر حوارى عمـان المتعرجة المتصاعدة ، بموازاة البيوت الواطئة والمتعالية على مدى التلال التى تعتليها المدينة •

تزايدت النار على المحاور ٠

قال : يبدو أنهـا بيئة ملائمة لأن ينبت فيها نبى الصبر أيوب الدمشقي ، فالناس هنا سواء الركاب الأربعة الذين لا يجمعهم سـوى السيارة وسائقها ، يبدون مستسلمين ، حتى عنـدما سرت اشاعة أن الأمر قد يحتاج الى نجدات عاجلة بالجرافات والهيلوكوبتر لخروج سيول على المحاور ٠

أينما وجد الناس تستعر النيران على كل المحاور ٠

كان قد خلفها في القاهرة ، لتطالعه هنا فى بيروت هى هى ، فلعله ذات الوهج ، درجات التوتر لزوجة الجلد الأصفر الافتقاد داخل غابات المدن المعنيـة المحاصرة بالخوف والتربص والتى تتحين فى كل لحظاتها الغوص العمودى ٠ الاختباء المصـاحب للطرد ٠ فهى فى كل حالاتها وتواجدها طريدة ، لا مكان لها فى فلك القدماء ولا العائشين ٠ انهـا هى بعينها سليلة ذلك الحيوان أو الابن النوحى الطريد ٠ لا مكان ٠

أجل هى حيوان الماموث الجليدى القطبى ، الضـال فى طوفانات الحشرات وزواحف الأرض التى تفيض فى سردها الحكايات القديمة الغرق المحقق للابن أو الابنة الضالة ٠٠ الخوارج ٠

المـدن ٠

الضـوارى ٠

ولعلهم يتواجدون بكثرة حتى هنا ، انهم يتكاثرون بمعدلات أكبر بالطبع سنة أو محنة عقب أخرى ٠ وهم كانوا سببا دائما لهجرته ٠٠ شتاتاته ، رغم انقطاع كل صلة يمكن أن تقـربه من طرقهم ، مفاهيهم أفكارهم الموصلة الى حد التدمير ٠

... قال : لعله الموسى ٠

تحسس جيبه الخلفى منزعجا ، فى لحظة مشابهة لتلك التى أحاطت به فيها جند الملك سمر الوجوه والقفيان ، وتذكر أنهم أخذوه ٠

★★★

- ٤ -

ما أن دق جرس الباب وفتحت له صاحبة المنزل وهى تلقى على وجهها الناحل العظمى الأصفر بمنشفة قطنية ، متراجعة هلعة من منظره بمنظاره وقامته العظيمة التى بدت مفرطة الطول فى مواجهتها ، مثقل تحت حقيبتيه الجلديتين ، وكيس ملابسه المنزلية ٠

ساعدته فى ادخال حاجياته وهى تجاهد فى تذكر اسمه ، وقامت بدورها أختها هلعة من فراشها رغم النيران المستعرة على المحاور ٠

أزالوا بقايا المياه والجيد المتساقط من على معطفه وتحلقوا حول الفراش من فورهم يرتشفون الشاى وحكى لهم فى ملل قصير ما حدث ٠ وعم صمت مفتعل اندفع المهاجر خلاله يحاسب نفسه ٠ فلعله أيضا ذات الجو ، ذلك الحزن الدفين الرابض فى أعماق الفتاتين ، وهو بدوره معهم ٠ لماذا هو فى كل حالاته ٠ تذكر على الفور السور الطينى الممتد على طول مرمى البصر ومن داخله تمتد أشجار الكافور والسنط وذقن الباشا ، للمقابر الممتدة فى مواجهة شباك بيتهم الريفى ، ولا ينقطع ، لجنازات النساء المتشحات بالسواد ، والنيلة التركوازية والزرقاء ضاربة القتامة تلطخ وجوههن وسواعدهن وهن يندبن ، وينوحن ، ويرقصن فى حلقات ٠ وفى حالة نادرة ، حين يكون الميت من « أسرة » وهو صبى صغير ، لم يتزوج بعــــد ـ ويدخل دنيا ـ تستخدم الجنــازات الدفوف الواسعة العنيفة ٠

بينما تستخدم جنازات الرجال المصاحبة المشيعة لنعش الميت فرق المزيكة الشــعبية التى تســـتقدم من المدينة القريبـــة بكامل أزيائها ـ الفرايحى ـ الأوكر ، وطرابيشهم الحمراء وآلاتهم النحاسية تدق أمام المرحوم ـ العازب ـ وكورس دلائل الخيرات ينشدون بأصواتهم الباص والباريتون ، متبوعين بجوقات النساء ٠

كل هــذا من أمام شباك بيتهم ، وهو لا يزال يعتلى كتف أمه ، يشهده يوميا عشرات المرات ٠

قال حين سألته كبراهن عن شروده ، وهى تميل عليه لتعطيه قطعة من البسكوت المجفف ، ألقى بها على الكنبة :

ـ تذكرت الحزن فى مصر ٠

قامت صغراهن وكان لها وجه فينيقى ينحو الى الاسنطالة وشعر أسود طويل مسترسل ، وكانت تمقت المهاجر ، تثاءبت طويلا وهى تطوق رأسها بمرفقيها ، بيدها كتاب لمح عنوانه « الشقيقات الثلاث » :

ـ عن اذنكم ٠

تذكر تشيكوف ، ذلك الأسى المقطر داخل المنازل ٠ شقق عواصم المدن المحتدمة بالنار والتربص ٠

الناس حين تتبادل الأحاديث بلا طعم ٠ أهمية ٠ انتباه ٠ فى الشرفات ومن حول المدافىء وألسنة اللهب ٠

حين يرتشفون الشاى ، ويعانون من كره بعضهم البعض ٠ الأم وابنتها وشقيقتها ، الأم وأبنـاؤها الذكور والاناث ، حيـوانات البيت الأليفة ، برامج أجهزة البث والتوتر ٠

قال : لعله شىء أو احتياج ضرورى ٠ تعرفه بكثرة ، وضوح أكثر فى زنازين المنافى وقلاياتها على مدى الثلاثين عاما الماضية ٠

لكم وفق سارتر فى مأثوره الملخص عن جحيم الآخرة ٠ الابنة الحبيب ٠

تعرف من فوره ، حين نزع ـ بريهه ـ الأسود عن شعره وصلعته ٠ ان كلتا الأختين تضيق بوجود الأخرى ، الى حد الكره ٠

وتذكر بالدقة أنه هو بذاته ما يجاهد فى البحث عنه ، بدءا من عمله ـ وكاره ـ ومهنته ، وهو حقل حكاياته وطرائفها :

ـ الـــكره ٠

ذلك الذى يحاول الجميع تجنبه والافلات من قبضته الماثلتين على الدوام ممزوجا فى حنكة بنقيضه وتوأمه ، من حب وتدله ٠

وهو ما أغفلته النصوص القديمة التى خلفها الموتى من الأسـلاف والجدود ، فى ثنايا وصاياهم وتمائمهم المقدسـة والمحظورة ، ذلك أن الحديث عن نقيضه أنساهم واقعة الماثل المتواجد ، سواء فى ثنايا ذلك النقيض الوله يبطنه متدثرا ، ويخالطه مخالطة التنفس •

انه الشهيق الزفير

الخارج المنسل

عبر عمليات التلوث

عبر اللحظة

طرفة العين

ودقة ساعد

الناس هنا تحت الشرفة

فى الشوارع ونواصيها

أين موتانا

قتـلانا

أيـن

تساءل حين أخـرجه من غفوته على حافة الفـراش صوت الأخرى العظيمة الكبرى الطفولى :

ـ أحسن حاجة فى الدنيا الحب •

ـ لماذا يكرهها •

صحيح انه لا يعرف كلتا الأختين بالقدر الكافى ، ورغم أنها فتحت له بابها فى الساعة الثالثة ليلا ، وأخذت عنه أغراضه ، حين لم يجـد صديقه ، لمجرد المعرفة العابرة للجيرة ، الا أنه يبدو غارقا فى حرجه ، افلاته اللامجدى من قبضة تواجدها •

قالت :

ـ أخـذوا كل شىء • الأم والأب ماتوا ، والضيعة نهبت حرثوا أرضها بالشاحنات والدبابات • قطعوا كل أشجار الحديقة • شجرتى ، وشجرة عالية ، فاكهة من كل الأصناف • زهورى •• أحواضى •

مالت عليه مسرعة لاكرة ، متسيرة الى حجرة عالية التى كانت وقتها نسعل فى عنف متلاحق عالى الصوت :

ـ أطلقوا النار على الوالد · والد عالية ، فى حديقة بيتنا الجبلى · من ثلاث جهات متقاربة ·

صنعت بمعصميها العظميتين هيئة مثلث متساوى الأضلاع أطلت منه بوجهها فترة فى مواجهته ·

تعالى سعال العالية بشــكل مجهــد ، وجاهد هو فى ألا تعاوده الحالة · هب واقفا مزيحا الستارة عن الشرفة الزجاجية معاتبا ·

المدينة كانت قد بدأت يقظتها · دويها اليومى مع مطلع ضوء النهار البيروتى ، والحرب الأهلية العنصرية تعتصر رحيق أناسها وشوارعها ·

ها هو الشارع فى بيروت ·

سعال صغرى الفتاتين لا ينقطع ، بينما الأخرى تعدد مصائب بيتهم الريفي وضيعتهم الجبلية ذات الفردوس الصغير المفتقد الذى كان ·

وتصور المشهد عبر أسطح العمــارات الممتدة من حوله · العالية بجدائلها السوداء تقف فى شرفتها مطلة على الوالد الهرم ، مفتش البريد والبرق العتيد ، بسترته الداكنة وحقيبة يده الجلدية خارجا عبر طرقة حديقته المتعرجة ومثلث الجنود الفاشست يطبقون عليه من أضلعه العدة ، مطلقين النيران فى لحظة متقاربة ·

الأب يسقط على وجهه فى طين حوض زهور البنفسج ، ومن حقيبته تتناثر الخطابات ·

العالية تلطم وتسعل بشدة ، بلا صوت ·

ولم يكن هناك بد من الخروج ·

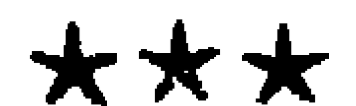
عاد المهــاجر متخليا عن الشرفة ، باحثــا عن معطفه الجبردين الى داخل الشقة ·

وحين غطس بوجهه الطويل الضامر العظمى ، فى ماء حوض غسيل الحمام الدافىء قال :

ـ تكفى مرة واحدة ، حاله ٠ البكاء ليلا ٠ يكفى ما جرى ، لولا ذلك الصول المكرش السمين ٠ تذكر تعبيرات وجه ، انكماشه بعيـدا بحذاء الجدار المشـاد من الآجر الأحمر ٠ ويبدو أنه غطى جانب وجهه الملحم بقبضتيه يرقبه عبر أصابعه ، بنفس ما فعلته الأخت الكبرى ٠٠ الماجدة ، منـذ هنيهة ٠ حين أطلت عليه من مثلث ساعديها الصفراويين ، وهى تصف الطريقة ٠

أزاح الصابون عن عينيه ، فالشمالية تعانى آثار رمد قديم :

ـ حين أحاطت شلة الجند ، بالوالد فى حديقة البيت ، ودوت الطلقات ٠ وسقط مدير البوسته ، غاص وجهه بلا تعبير فى طين حوض الورد ورغامه ٠



- ٥ -

عانى المهاجر حين اندفع خارجا من باب الأسانسير ، ومدخل البناية الداخلى المطوق والمتعانق بجذع شجرة عنب عملاقة مجففة ، ماتت منذ زمن ٠

عانى من استقبال عينيه لضوء النهار المتقدم ، حين تلقفه الشارع ، دلف عبر صفوف السيارات وتاكسيات الخدمة العامة والشاحنات ، من جانب لآخر ، ومن تقاطع لما يعقبه ، تطلع هنا وهناك اللقناصة على أسطح البنايات الشاهقة يدخنون ويفطرون فى تراخ ٠ تذكر البكاء ليلا ٠

تناول قهوته واقفا مشعلا غليونه فى وجه المارة ٠ الناس هنا لا يتطلعون فى وجوه بعضهم البعض بالقدر الكافى ، سوى ان أحدهم دلق بضعة قطرات من قهوته على سترته معتذرا ٠

وتطوعت عجوز بازالة البقعة بمنديلها ٠

اندفعت مجموعة من الجنود جارية فى أعقاب سيدة ضخمة حافية بيدها مشعل مضاء بالقار والزيت فى وضح النهار ٠

وكما لو أن القهوة حركت معدته ، ذلك أنه قاوم طويلا وسط الزحام والتدافع ، لينتحى جانب الشارع ، مرجعا ٠

خلف نفسه ماشيا فى اتجاه معاكس للجند الفارين أو المنتصرين ، وعند آخر الشارع ، شاهد المرأة تعتلى أطلال بناية قديمة بيدها مشعلها وشعرها الطويل الفاحم استطلعها من زوايا الطريق فترة ، ليجد انها على ما يبدو اعتلت قاعدة نصب تذكارى أو تمثال رخامى متهدم وليست بناية ، ومن حولها الجند ، وراحت تخطب مهددة :

— قاتلوهم ٠ سدوا الطرقات ٠

اندفع يجـرى في الجهة المقابلة ، مسندا منظاره بيده اليسرى ، بينما الناس تتدافع من حوله وتسبقه بمسافات واضحة القسمات ، حتى النساء المنفضة من حول أفران الخبز والسوبر ماركتس ، وعربات الخضار، لينضممن الى طوابير الجارين ٠

دوت طلقات الرصاص ، وجاءه صوت المرأة الضخمة البنيان ، وكما لو كان يعنيه هو بذاته :

ــ سدو الطرقات ٠٠ المنافذ ٠٠ ادفعوا بأيديكم الطويلة ، كل وكر وجحر وبطن أم ٠

حاول أن يستدير منفلتا فى عنف من يد تحاول اللحاق به ، حتى ان جيب سترته انقطع فلم يعبأ به جاريا متقدما بأقصى قواه ، حتى انه تجاوز بعضهم من الذين سرعان ما واصلوا تقدمهم ليجد نفسه فى مؤخرة الفارين ، عرضة لنيرانهم ، أيديهم الطويلة الى الخلف ٠ وهم بالقطع أكثر سرعة ، حنكة ، توقد ، كما انهم يمتلكون أسلحة أكثر فتكا ، مضافا اليها العقول ، الخبرات ، المناهج الملخصة ، القفزات المباغتة للضفادع والحشرات النطـــاطة ٠

قفز بشكل أدهشه من قدراته ، مخترقا صفوف النسوة والعواجيز المحتمين بالجدران ، محافظا على جديد عن تفوقه تقدمه أكثر الى المقدمة ٠

جاهد طويلا فى الاحتفاظ بتوازنه ، ألا يصـــطدم بالباقين الأكثر حركة ، وعدوا ، وتفادى محـــاولة من أحد الشـــبان ، لشنكلته بشكل واضح ، حيث يسقط منبطحا ٠ تلافى فى حيوية أدهشته ، سقوط المنظار ٠ كارثة ٠ وضحك بعضهم من لخبطته ، وهو شبه منبطح على ركبتيه يجاهد طويلا فى استعادة توازنه ، استقامته قائمـــا ومواصلة العدو ، بقامته الطويلة وأطـــرافه العظميـــة المترامية ، بينما ربطة عنقه قاتمة الزرقة ، تتطاير من حول عنقه والتعليقات لا تكف عن ملاحقته ٠

حاول تعرف موقعه من الشارع الراكض بكامله من حوله وأمامه ٠٠ وما أن حانت منه نظرة الى الخلف ، حتى هاله أنه آخر الفارين ٠

دلف الى حانة ، كمثل شق فى جدار متناهى الطول والاظلام ، والاضاءات الخافتة الحمراء ، ملقيا بنفسه على أول فوتيه صادفه ، خلع

منظاره وبيريهه وفك وثاق قميصه ، ظل يلهث ويسعل طويلا ، دون أن يثير أى انتباه ٠

كان من عادته عندما تغزوه النوبة وتقتحمه أن يركز بصره عن آخره على شيء محدد يتملك انتباهه دفعة واحدة ٠

وجاء ذلك الشيء : دمية لها حجم بشرى ، عرف فيما بعد أنها احدى عرائس صقلية ، بملابسها الكثيرة الزاهية الشعبية ركبت فوق منصة الى الخلف قليلا من المكان المعد للجوقة الموسيقية ، لها شعر أنيق قصير كستنائى ، وعلى صدرها النافر تتدلى الخرزات ، وباحدى يديها مظلة يابانية من الحرير الشيفون الملون ٠

اندفعت ترقص قافزة فى الهواء رقصات صقلية على أنغام البيانولا ، لحين الايذان بخروج وفود الراقصات ، ولهن هيئة الدمى وايقاعها ٠

عرف من فوره وهو يجفف عرقه بمنديله ، ان الحانة يونانية وبخاصة حين قدم له الساقى كوب ماء مثلج ، فطالبه بمشروبه معتدلا وهو يعيد التطلع الى المكان : ½ روم ٠

كانت الجدران مغطاة بورق حائط له ملمس القطيفة السوداء والحمراء القانية ، وحتى طريقة استخدام الورود الصناعية والصحراوية والمحنطة ، جاءت متناسقة ، مع اضاءات الشمعدانات الكهربائية ذات الأفرع الثمانية ، وعلى طول المكان وقاعاته المتعرجة انتشرت مرايا طولية مقعرة ومحدبة ٠

ولما كان المساء قد بدأ يحط مع ارتشاف المهاجر لقدحه الثالث ، بدأت وفود الزبائن تتوافر فى جماعات ٠ صبيان وفتيات فى سن متقاربة جميعهم وبعضهن سال لعابه من منظر دمى صقلية الزائرة هذه الليلة ٠

ومن المطبخ انتشرت أبخرة الأطعمة الشعبية ، من اسباجيتى لسندوتشات اللحم بالعجين ، والنقانق والشواء ٠

وتسمر واقفا من فوره حين شاهدها ، داخلة فى أعقاب شلة شباب ، وتلاقت عيونهما الأربع ٠

قال : أيمكن أن يحدث أن أخلفها هناك فى شوارع شبرا المظلات ، لتدخل على هذا النحو ٠

اندفع ناحينها من فوره معترضا سائلا ، مشيرا الى الشارع خارج الحانة القبرصية :

ـ عملوا ايه ؟ ٠

ـ مين ٠

ـ فى الخارج ٠

تأملته مليا :

ـ هى ذات العيون المطلة من تحت الجبهة المدفونة دفنا تحت الشعر ٠

قال : ـ الفارين ٠

تعالت الضحكات المربكة من جوانب عدة ، فانسحب من فوره عائدا معتذرا لها منحطا على طاولته ٠

اتخذ أفراد الفرقة الموسيقية أماكنهم وتعالت الموسيقى المحمومة الراقصة ، وعلى الفور ازدحمت الحلبة بالراقصين من الشباب وبضع عواجيز ٠

وحين تغيرت الاضاءة فأصبحت أكثر سطوعا ، آلمه سوء حظه ، فى ذات اللحظة المكفهرة التى طالع فيها استطالة وجهه فى مرآة الباب المواجه المحدبة ٠ على ما كان يغرقه ويتملكه فى نحت البرتوجياكوميتى٠

بدا وجهه شاهق الاستطالة ، أضفت عليه المرآة ساحات وهالات من المساحيق اللونية البلورية ، فتبدت له جبهته مطبقة على حاجبيه اللاكثيفين ، وجلد وجهه المشدود المجفف ، أما أنفه فواصل استطالته بدءا من رأس تلك المرآة النافذة اللعينة حتى ما بعد منتصفها ٠ وبين وقت وآخر تطغى صور الحشد المتزايد من الراقصين والراقصات ، وعبور السقاة فى صعوبة شديدة ، بأيديهم صوانى الطعام والمشهيات على صورته ، فتريحه من المدى المفصح المشوه الذى تضفيه المرآة الهازلة -

تذكر المرآة المحرضـــة وربط بينها وبين المرآة ، تعتلى التمثـال المتهشم تحت قدميها الحافتيين بيدها مشعلها •

وطالعه وجه الفتاة التى سألها منذ هنيهة ، على الطاولة المقـابلة تجلس مع أصـــــدقائها ، كمن تجاهد فى أن تراه ، وترى المـــرآة من خلفها فترة •

عم الضحك لفترة قصيرة ، وجاء صوت المغنية المرحة اليونانية أجش الى حد مؤلم :

« قطعنى حتت
وارمينى فى الزيت » •

قدمت اليه الفتـاة ، فقام وأجلسها ، حين أشعلت لفافة وسألته عما كان يسأل •

حاول أن يميل عليهـا بجذعه الأعلى ، مكملا مضـغ طعامه ومزته الخضراء :

ـ برا •• كتير •• كانوا ينجروا •• الشارع ورانا •• وقدام •

ويبدو أن الفتاة لم تفهم شيئا ، سوى كلمة « اسرائيل » ذلك انها اندفعت بدورها تحكى لى عن بلدتهم الجبلية « راشيا الفخار » حين ربط بينها وبين فخار الاقليم الأرسينوى ، دون أن يسمع منها كلمة واحدة صحيحة ، نظرا لصعوبة تفهمه للهجتها الجنوبية ، وعواء الآلات النحاسية، والمغنية نصف الصلعاء ، والضحكات المدوية ، ونيران المحاور ، مما شجعه أكثر على حل وثاق لسانه بالخمر حين قال :

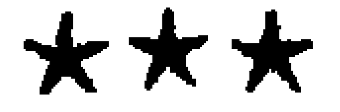
ـ اجمع حكايات حواديت • ما يلوكه الناس • الجدات النينات •

قالت :

ـ النـــاس •

قال بتراخ :

ـ الناس • الرمم •



- ٦ -

حين تلقفه الشارع البارد ، ظل يغمغم لنفسه بصوت شبه مسموع:
ـ المعضوض يعض •

تذكر خرافة معاصرة عن الدراكولا • ربط بينها وبين العدوان المتربص يدق الأبواب •• الصهيونية ، دون أن يعرف لهذا سببا •

ظل يتقدم فى اتجاه البناية حيث الفتاتين وكتبه • حاجياته • مرددا ميلوديته الكئيبة هذه ، عن جدلية المهان المضطهد •

واجه اطلال التمثال المرمرى المتقوس ، الى أن وجد نفسه داخل مجاله ، كتله المتناثرة ، أقدام حصان ، أعالى كتف ، كفة يده ، منشة ، مشعل رومانى الطراز والزوايا • عين •

قاوم نوبة نحيبه الليلى ، رغم شاعرية المكان الذى كان يهدر فى وضح النهار ، بالناس والميليشيات فى أعقاب المرأة المحرضة على سد المنافذ •

كان ملتقى الشوارع ومداخلها يشيع فيها الصمت المتوجس ، برغم الهدنة الملفقة للمتناحرين ، وضوء القمر المكتمل باشعاعه الرمادى الفضى المتمدد على البنايات المحيطة فى استرخاء •

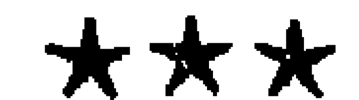
ربط بين المكان وبين معمارية وميتافيزقية دى شيركو ، معابد ومصحات وقصور ومحاكم وأبنية اريكايك ، تحوى تماثيل هلينية وايونية واثروسكية معظمها أقرب الى التهاوى •• التحلل •

وعادة ما يتسلط جاثما على هذا العالم الحلمى الكابوسى خراج جلدى دامى الاحمرار ، يتمدد ثانيا من احدى زوايا مقدمة اللوحة ، كحبل مشنوق •

قضـــم ساندوتش الســجق مستعينا على دهــونه بجريدة النهار المنصرم ٠

استعاد نفسه ٠٠ مظهره ، حين كان يركض غير فزع على رأس ركب وفى مؤخرته ، منفلتا فى حنكته من تلك القبضة ـ القفازية ـ التى لامست كتفه الأيسر ، الا أنه انفلت مطلقا ساقيه للريح بشكل أدهش الجميع ، خاصة حين تحول ركضه الى نوع من التزلق الدافع الى المقدمة ، دون أخطاء كثيرة مفضية الى الاصطدامات والايقاع بالآخرين ٠ يده على شنبر منظاره ، والأخرى قابضة على الجريدة التى بداخلها سندوتش السجق الزيتى ، لا تلين ٠

قام من فوره ، ملقيا ببقايا أكله ، منحدرا نازلا عن الأحجار ، مجهدا ومجاهدا فى تذكر أقرب الطرق الى حيث مسكن الفتاتين ، متحسسا فى لهفة من تذكر شيئا يهمه ٠ ان لم يكن اليوم فغدا ، تحسس عنوان فتاة الجنوب القصيرة المهجرة التى التقى بها فى الملهى القبرصى ٠



- ٧ -

ما أن دق جرس الباب وكان له صوت الصلاصل اليونانية والايجية الشعبية ، حتى أحس المهاجر من فوره بالاظلام الذى عم عين البـــاب السحرية ، وسط ظلام الطرقه المديدة الموحشة ٠

تسمر فى مواجهة العين محاولا الابتسام غير البعيد عن التوسل فترة طالت الى حـــد أنه عـــاد يجاهد فى أن يتعرف الوقت فى ســـاعته الفوسفورية ، وهاله انها تقارب الرابعة صباحا ٠

أعاد طرق الجرس ووصله همس طويل مصحوب بحدة تمادت الى حـــد العنف والضراوة تبعتها صرخات الاستغاثة المـكتومة التى سرعان ما خالطها صدى أشياء تتهشم وتوجعات انتهت الى الضراعة الكاملة والعواء المفضى فى كل الحالات الى الصمت المطبق ٠

فتح الباب كمثل شق ضنين عن جسد الأخت الصغرى الجهمة ، بينما اندفعت الأخرى الأقل حجمـــا تتوارى هنا وهناك ، مطلة برأسها الصغير الدقيق المكفهر من تحت الكنب ، وأغطيته ، نافذة كمثل جرذ بشرى الى ما خلف ســـتائر الشرفة الزيتية ، مطلة بعينيها الخرزيتين التركوازيتين :

أشـــارت له العالية بالدخـــول وهى تجذبه بامتهان جلى من كتفه الأيسر :

ــ ادخـــل ٠

تحاشى نظراتها وتحرشها الاصطناعى ، وهى الفتاة الصغرى التى لا يخلو مظهرها وسلوكها اليومى فى وضح النهار ، من الحياء والتناسق ، أما الآن على هذا النحو الضارى ٠

تحاشى من فوره عينيها ، وأفخاذها السمراء الوردية المتناسقة وهى تضج بتحد تبدى فى عينى الأخت الكبرى الضئيلة التى كانت لحظتها

منكمشة فى افتعال واضح الى جـانب انثناءة جدار بالقرب من ألسنة النيران ـ نيران الفحم المتوقدة داخل الموقد المرتفع النحاسى ٠

شغل نفسه عن عينيها وفخـذيها ، باسترجاع بضعة مشاهد ، قراءات ، ذكريات لها مستودعها ، منها : كيف أخذ القديس مكان الأسير فى السفينة ٠ والسيد مكان اللصين المغمغمين الفاهمين ٠

« خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها » ٠

ومنها : ظهر مدير البرق ماشيا بين أحواض زهوره المستأنسة فى بطء شديد ، الى حد ايقاع الضحية ، استكانتها ٠

مضى من فوره مسلما على الأخت الكبرى ، الأقـل حجمـا ، التى سرعان ما استعادت توازنها ، ابتسامتها البريئة متقدمة منه فى ترحيب بالغ ، فى ذات اللحظة التى عادت فيها العالية الى حيث كانت تجلس على كـرسى أو « بوف » واطىء الى جانب مدفئة نحاسية هائلة الحجم تغلى بنيران الفحم وعليها آنية القهوة ٠

ولم ينقض وقت كثير حتى اندفعت كلتا الأختين تكيد للأخرى ، قالت العالية فى اتهام مشيرة بذراعها كلها الى أختها الكبرى دقيقة البنية :

ـ ماكانتش عايزه تفتح لك الباب ٠

بينما ارتمت الأخرى أمامه على البساط الأخضر الرخيص محملقة فى وجهه المخمور النائم كمن تستطلع أعماقه ، وما يعتمل فى أعماقه :

ـ ما تشرب من القهوة دى ٠

فى الوقت الذى صبت له الصغرى فنجانا ضخما أناضولى الطراز ، مشيرة فى شبه أمر :

ـ خـــذ ٠

هب من فوره راكضا منحنيا قابضا على يدها بالفنجان :
ـ فى وقته ٠٠ آه الصداع ٠

انقضت الكبرى مغتصبة الفنجان من يده ، جارية الى المطبخ المقابل، وهى ترشفه فى نهم •

بينما أشارت له العالية من مكانها :

ـ ميتة من زمان •

وصبت له فنجانا فأخذه متراجعا ، مرتشفا وهو موقن مما به •

مضت الماجدة ترقص وتحادث نفسها طويلا وهى متقوقعة فى شباك المطبخ •

أما هو فمضى يتخفف من ملابسه استعدادا للتمدد والاغفاء ، دافعا عن مخيلته أشياء أحاطته متلاطمة ينقصها التتابع ، ان لم يفسدها • ذلك ان حركتها جاءت مستعرضة ، ان لم تكن أيضا مكزكبة لسراديب بكاملها تطلق عنانها •

حاول اعـادة التيقظ مسلطا عينيه على عينى العالية فى جلستها لجذب انتباهها دون جدوى •

حاول بضع مرات الكلام ، تحريك أصابعه فى حذر من أمام عينيها الكبيرتين المسلطتين دون أدنى رمش منها •

عاد متمددا متمرغا على الفراش وأراحه جدا أنه ها هو أخيرا وحيد • قوى فى كل حالاته ، بلا عين آخر • رقيب •

راحت الماجدة تغنى لنفسها فى شرفة المطبخ تحبو على أربع فى بطء ومعاناة •

تذكر عالم المصور الروسى الأبيض المرتد ، كاندنسكى ، لمدن زرقاء طائرة وقذائف وسقوط متهافت للطبيعة ومرثياتها • تداخلات الأحمر مع زرقة السماء بلا غيوم كثيرة • قباب وكاتدرائيات وأقبية •

وتذكر أزقة المدن العتيقـة بالأسـطورة والمعمار ، تلك الشـقوق وسراديب البيـوت وباحاتها ، أبوابها التى عادة ما تعـلوها أيقونات

الحيـــواناث والطيـــور المحفوزة على الأخشاب المقدســـــة ، المشـــوهة ـ اللاعربية ـ من تماسيح وبوم أم آويات وحدآت ، لطرد الأرواح الشريرة التى عادة ما تتلبس الغرباء من أمثاله ، الداخلين .

ربط بينها وبين أدعية داخل المنازل :

ـ يا ساتر يا أهل البيت . يا من هنا .

الناس فى تدافعها أفواج اثر أفواج فى سوق الحميدية . ومن حول المسجد الأموى يخلعون الأحذية .. المداسات .

والماجدة تزحف ببطء طويل سلحفائى الى حد التوقف فى حيزها الضيق على أربع كمثل رضيع داخل رحم .

وتذكره من فوره ، ذلك الرحم الخالق ، الذى توقف أمامه كثيرا فى الأنتيكخانة ، ومتحف الانسان حين طالعه فور دخوله مهمها أو هو مترنما على عادة الداخلين الغرباء :

ـ المعبود الأول .

الماجدة داخل الرحم .

قـال :

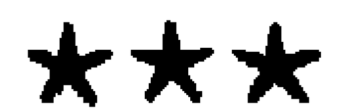
ـ تسقط من الشباك .

أما الأخت طويلة عظم الوجه ، فقد غطست طويلا فى سباتها . سمراء أوصلت نيران المدفئة النحاسية بسقاطاتها جسدها أفخاذها الى درجة من الاحمرار ضارب القتامة ، مضت تمدد أطرافها مسترخية أكثر على كرسيها الواطىء الى حد ملامسة بلاط الشقة .

تفرس فى وجهها طويلا ، حين انفرجت شفتاها المزمومتين الصارمتين عن كلمات أحجية لها طابع النصوص المحفوظة .

مد رقبته الطويلة النحيلة وهو يزحف طويلا الى أن قارب حافة الفراش ، وعيناه ان لم يكن انتباهه بكامله معلق بالصـــوت الكلمات . تيقظ حين قارب السقوط من الفراش ، ولفحه أكثر وهج نيران فحم العنب المعبق المشتعل .

ولما لم يسمع المهاجر شيئا بأكثر من الطلقات المتقطعة لحين الدوى المتقطع من العالية المبنجة ، فقد زارته من جديد حكاية مدير البريد بشعره الذى خالط بياضه سواده ، داخل مثلث نيران الميليشيات الفاشية ثم وهم يضحكون ٠



- ٨ -

ما ان هب المهاجر العجوز من اغفاءته القصيرة تحت لسعات ضـوء النهار المتسلل عبر ستائر الشرفة ، وتحسس منظاره متطلعا ورأى الوضع على حاله ، حتى تسلل الى حيث معطفه وحقيبته ، فحملهما مواصلا فراره ·

قـال :

ـ العالية تسقط فى النار ·

تلقفته الشوارع المجنونة بالجرى ونيران المحاور · الجموع المتدفقة حـول أفـران الخبز والبوتيكات · والمرأة الضخمة الجثـة على رأس ميليشياتها ، تعتلى البنايات مطالبة بتضييق الخناق · للتنفس ·

اتخـذ من فوره تاكسيا الى أقـرب شقة مفروشة ، أشار عليه السائق بها ·

بناية بيزنطية الطراز والمعمار غاب عنها طلاؤها ، تقبع بأسوارها المتعالية كمثل حصن خربه أعداؤه يتصدر احدى جادات بيروت وحواريها ·

غمغم من فوره حين تمدد على فراشه الجديد بملابسه :

ـ تسقط فى النار ·

مضى يتقلب فى فراشه ، محاذرا ألا تعاوده الحالة ، حاول ادخال البهجة الى نفسه مغمغما « عش فى خط » الموت كمدا على كل فراش كنبه صوفة سجادة أدبخانة ·· أدب خانه · ما الفرق ·

تذكر مخلوقاته الحبيسة التى كانت داخل حقيبته الكبرى : من شطار ، ولصوص مهرة ، وأفاقين ، وسائلين لهم هيئة آلهة قمم أشجار الأرز والبكاء المتسامقة ·

« عندما تسمع صوت أقدام فى رءوس أشجار البكاء »

ربط بين أشجار البكاء المتسامقة العلو ، وبين مقولة رابين الشهيرة خلال عدوان ٦٧ لطيارى جيش الدفاع الاسرائيلى :

ـ تذكروا أن اسرائيل كانت على طول تاريخها تنفذ من السماء ٠

غمغم :

ـ لعله يهوه الطائر المحارب ٠

وتذكر حكاية ذلك الرجل الأبله الذى أمسك بعندليب بشرى ينطق بالحكمة فسخر الطائر الأخرس ، محلقا فى انتصار من على رأسه ريشة ٠

قردة بالنهار يأخذن فى التحول والتبدى الى فتيات فاتنات مع غياب الشمس ودخوله الليل الفطيس ، يعجن العجين ويخبزن ويطعمن حيوانات البيت الأليفة أو الجبانة ٠

ملوك تهتك عروشهم ، حللهم الملكية ، جلودهم فى مواجهة رعاياهم خصيانهم ، ويتسمون فى اليمن الغابر بمزيقيا ٠

بهائم ترعى فى الجدب وتراب الأرض ، بدلا من المـراعى المزهرة المحيطة الفارغة ، حتى لا تسمن وتشبع فتشطح ناطحة أصحابها ، حكامها السلطويين الخونة ٠

هداهد وطواويس متلصصة كمثل شرطة القمع والمباحث ٠ الناس داخل الأقبية المفضـية الى مدن البيع والشراء بالصـلاة على النبى ، بل وبلا صلاة واستنجاء ، تأخذ حاجتها ٠٠ ما يكفيها وتمضى ، والويل للخونة اللصوص الجشعين ، العثمانيين ٠ الصول الخائف المرتعد منه فى محنة سعاره على مشارف عمان وتلالها يحتمى بالجدران ، بطوب الآجر الأحمر ، يداه على وجهه كمن يخفى عينيه ، يحتمى بالرمال والتراب لتؤويه ، يخاف الطرد المحقق فى كل الأحوال ٠ المصور ٠

حاول ادخال البهجة الى نفسه قائلا :

ـ خايف منى ٠

اعتدل جالسا على حافة السرير ، ومضى يتخفف من خفيه معانيا فى تذكر ما حدث :

ـ تلك القهوة اللعينة ٠

انثنى يدلك معدته متلويا ، حين طالعته صورته فى المرآة ، على هيئة شخصيات فان جوخ ، جاحظة العينين ـ الشمامين ـ بجلودها السوداء المشققة تحت معارك الألوان الهستيرية أو الانتقامية ، تتحسر مسندة على الجدران الصماء التى لا ترد تحية ٠ صـدى لصـوت ، دوى انفجار ٠ ماذا حدث ٠

ساءه وضعه الى حد أنه تسند واقفا ، منكفئا مقررا اخراج مواد حقيبته ٠ كراساته ٠ الناس وزواحف الأرض الزانية والفتانة وناكرة الجمائل ٠ أين هى ٠ حكايات الموتى ٠ آثار أقدامهم ، حكمة السلف من صالح لطالح ٠ ما يحدث على المحاور ، وعبر الساحات المحترقة بالقار والنفط ٠ المانيكانات الشمعية المسيجة بالمرايا فى الأسواق التجارية ، كنب الأرصفة ، الباروكات ، وسينمات السيكس آبيل وجيمس بوند ٠ والأميركان جوجولو ٠

وجه العالية سليبة الارادة بجدائلها وردفيها على وهج ألسنة الموقد النحاسى ، تسقط على وجهها سائحة كشمع قاتم ٠

لو أن شخوصه تحركت من حوله ، أخذته معها من حيث جاءت ٠ لو أنه سمع صراخ الأخت الكبرى الضامرة الى حد طفلة داخل رحم ، محـــذرة :

ـ ما تشرب من القهوة دى ٠

تذكر أنها عادت فخطفت فنجانه وارتشفته بكامله ٠ لعلها لا تزال داخل قفصها بشباك المطبخ على ذات النحو ٠

جاهد طويلا هذه المرة فى منع نفسه ، من أن يجهش بالبكاء ، حيث هو وحده بلا عين أو رقيب ، سوى المرآة المؤسفة المحدقة تترصده من جوانبه العدة ، كمثل شخص يقظ لم تلحقه قهوة العالية تكبرها :

ـ اشـــرب ٠

ها هو نهبا لأسره الاختيارى يمزق جلد وجهه ، بينما من المرآة تطل عليه فى خرسها فتاة راشيا الفخاد ٠ الجنوب ٠ نقميصها قاتم الزرقة ،

وحنانها الطافح تضع من فورها يدها على فمه كمن تمنعه من الصراخ • النحيب الليلى ، الذى يلازمه منذ أن كان يحبو على أربع مثل دواب الأرض •• جرذانها •

فى تلك الأيام الخوالى التى سبقت دخول الكهرباء وتوابعها من بوتاجاز وراديو وتليفون وتليفزيون وشاحنات وسيارات الميكروباس والتيوتا وسخانات المياه والسيفونات •

اندفع يحبو عبر الحوارى الموحلة والمتنزهات الغاصة بزهور عباد الشمس ونجيل الأرض البرى ، خلجان الضفادع ، وفراشات ديدان القز والحدآت العملاقة المهاجمة ، سارقة الأطفال الرضع ، كما تروى عنها آداب الكلام • القطط وولائمها المسحورة فى أعياد اللحم والضحايا فى عالم الدواب وما تحت الأرض •

حاول تذكر واحدة دون جدوى • تذكر بدلا منها ، حكاية انكيدو مع حيواناته البرية ، تلك التى كان يعاشرها عند موارد المياه ، الى أن اقتنصته عاهرة أوروو حين كشفت له عن فرجها ، مهبلها الصغير المكفهر ، حيث كان يستبقى مع حيواناته من نمور وأيائل وحمير وحشية وحيات •

فكان ان ضاجعها سبعة أيام وست ليال ، وحين عاد الى حيواناته ، أدارت له ظهرها وفرت هاربة منه • يا اللادانة •

قام من فوره متسندا فاتحا حقيبته الكبرى ملقيا بكومات كراساته ونوته وأوراقه الصفراء ، وهو يجرها جرا الى حيث الطاولة الكبيرة التى أعدت للأكل والولائم فأحالها الى مكتب تعلوه أكوام الكتابات الخطية والمراجع الرثة • تحسس رأسه بين كفيه ، مبعدا شبح ذلك الكابوس الليلى •

ــ ابدأ بالتصنيف • هه • هاهى حكايات الحان المردة النداهات أم الشعور ، أشباح ما تحت الأرض • أين ؟ ومن عليها فى كل شق ومكان وأينما وجد حيز ، تلك التى ما أن يواجهها الانسى :

ــ اتشطر على من قتلك •

حتى تتوارى من فورها ، ان لم تحترق بنيران أحقادها حيث هى •

ها هى حكايات الأشجار وأخشابها المقدسة من زان وجميز وعوسج · حين أرادت الأشجار يوما أن تولى عليها ملكا هو العوسج الذى هدد من فوره بأن تخرج نيرانه لتحرق أرز لبنان · هه ·

قال وهو ينحنى هنا وهناك بشكل آلى ، مغيرا من أوضاع أكوامه ، كمن يفنط أوراق كتشينة ·

ـ الحيوانات والطيور وزواحف الأرض المشئومة والنجسة لها خانتها فى هذا الدرج ، من كلاب وأتان وغربان وبوم وضباع وحيات زائيـة ·

ـ ثم يجىء الدور على حمامة الأيك والحما ، واليمامة ومدنها على طول جزيرة العرب العارية ، والعنكبوت الذى له سورته (وليس صورته) كحيوان أو حشرة منقذة أن ضللت مغتالى الغار ، غار حراء ، وفوتت عليهم فرصة الاغتيال الجماعى ·

ـ دمه على الجميع ·

قال :

ـ يبدو أن القتل البشع المزق ، كان من الميسر حدوثه فى مكة واتمامه بنجاح ، لولا العنكبوت التلقائى المبادر ·

قال :

ـ ويبدو أن الهدف لم يكن القتل لذاته ، بقدر ما هو تغيير مسار الأسطورة البدوية ، لولا ذلك العنكبوت الدينامى المناور ، التغير كل شىء ، كل شىء ·

تذكر كومة لعب الأطفال ، فعزلها مبعدا :

ـ كوك كولا · انتو نصارى والا يهود ·

ترنـم :

ـ أنا الغراب النـوحى

أخطب وأروح على سطوحى ·

وأعجبته فابيولات صديق الفلاح المصرى ، أيبس أو أبو قردان ، ذلك الذى ينسب له أنه عيط عيطه شق الحيطه ٠

قتل ولاده وقعد مسكين ٠

ساعتها كانت قد غزته النوبة ، التى عادة ما يسبقها السعال ، وجاءته منكفئا على أكوام أوراقه ، فراح يزيحها بذراعيه المشمرتين بعيدا ، وآلمه أكثر أنه عــاد فهدم جهده المرهق ، تصنيفه ، مرة أخرى يختلط الحابل بالنابل ، والغلة بالغلث ، سعل قائلا :

ــ الغلث ٠

جاهد طويلا فى منع النوبة ٠ مركزا جل ما تبقى من انتباهه ، أين ٠ على ذلك الجاثم فى مرآته ، حكاياته من شفوية ومدونة ٠ ذلك الصراع الامبراطورى المقدس ، للذبيحة الرومانية يوليوس قيصر ٠

أراحه قدرته على الافلات من حصار الحالة ، واصل تنفسه المتعسر ، ملقيا بنفسه على الفراش ٠ نــــام ٠



- ٩ -

من مطلع النهار قام من فوره متصعبا ناشف الريق متأملا أوراقه المبددة المنكفئة من هنا وهناك ، وأزعجه أكثر ألوان ستائر البيت ، وتلك الكثرة من الورود الصناعية والصحراوية التى تزحم فازات الشقة • تأمل شريحة البحر المدد الصافى من الشرفة حيث على الجانب المقابل منه يتربص العدوان وهو يرتشف قهوته السادة ، مسترجعا قهوة الأمس • وتصور دهرا متصلا متلاحقا ، لم تشرق له شمس قط ، ذلك الأمس الأبعد من اليوم بالغد • يا لها من ليلة ، تلك السراديب المنسابة التى منها وعبر شقوقها تسربت شخوصه من موتى وأحياء • جميعهم جاءوه وحاوطوه احاطة السوار بالمعصم جنبا الى جنب ، الخالق الناطق ، ذات التماثل ، الاحساس بهم معا : الموتى الأحياء •

تساءل وهو يغير ملابسه متخاذلا استعدادا للخروج للنادى لحضور السيمنار الدولى ، حول ذات الموضوع •• اللا آمن •

ـ كيف حدث •

وفى النادى حاول جاهدا طرد الأمر كله ، بل ربما الرحلة بكاملها ، بدءا من وباء السادات ومهاتراته مرورا بصول عمان المختبىء ، حتى العالية وقهوتها المرة •

كان الحفل قد بدأ فأضيئت أضواء القاعات بالاضافة للتليفزيون الملون •

اتخذت الوفود أماكنها ، مع انفتاح باب أقصى القاعة المواجهة ودخول الرئيس ورؤساء الأقسام ، ودوت القاعة بالتصفيق لثوان متصاعدة ، لحقها هو على الفور مصفقا ، بل هو قام واقفا معبرا أكثر عن حماسته ويقظته وهو الخبير الجديد فى حكايات القرى •• الجدات •

جلس وحده حين أخذ الرئيس ونائبه مقعديهما جنبا الى جنب ٠ وكذلك بقية الوفود والضيوف من محدثين ومستمعين ومراقبين ومتفرجين٠

كانت القــاعة الفسيحة الفسيفسائية غارقة في الضـوء القوى الساطع ، بما ييسر الأمر على كاميرات التليفزيونات ومصورى الصحف ، وبخاصة الصحفيين الذين انتشروا من حول الوفود والمنصــة الرئيسية والرئاسية ، كمثل زنابير داخل خلايا نحل ٠

وحين دارت أكواب عصــير الليمون والبرتقــال والمانجو ، تذكر ما حدث رغم أنه كان لحظتها مستغرقا بكامله فى تتبع الندوة الدولية « ثقافة القرية والمدينة فى الشرق الأوسط » وتمنى جاهدا طرد ما حدث ٠ كما تمنى ألا يصيبه الدور فى يوم كهذا تجىء حصته فيه من الكلام٠٠ المحــاضرة ٠

قــال :

ــ الأمر لا يعنيني بالدرجة الكافية ، العدو المتــلاحق الذى تحول بالفعل عصرية يوم أمس الى حد المطاردة ، الحصار على تلال عمان ، تجبر الأخت الصغرى مع مطلع هذا النهار الذى يبدو أنه لن ينتهى بشكل مباشر على خير ، يتيح العبور بعده فى هذا الجسد ليوم جديد ٠ أين ٠ ها هو الرئيس والرئيسة يفتتحان الندوة الدولية ، ويبدو مما حدث أن الأمر لن يطول ، ليلقى بدلوه ، فعليه أن يسترجع الموتى قبل الأحياء ٠ قريتهم وتخومها ما حول بحيرة قارون ، قرى الجبل المحيطة هذه التى لا يمكن لأى محاضر أن يتلمسها من شرفات السمرلاند ، ممددة تحت شمس هذا اليوم الربيعى رغم ضراوة الحرب الأهلية ٠

تفرس بعض الوجوه من عرب وأجانب ٠ يضعون سماعات الترجمة الفورية على آذانهم ، وهم منصتون للكلمة الافتتاحية للاحاطة بالموضوع ٠

ذلك الماضى الحى ٠ ضيعة الفتاتين وفردوسهم المفتقد ٠ الهــدف الأخير للعالم من قديم غابر ، لمعاصر ماثل متواجد ٠

انتهى كلام الرئيس ومن جديد دوت القاعة بالتصفيق ، الجميع ألفهم التصفيق الحــاد فيما عداه ، بما أتاح للرئيس ونائبتــه وبعض الحضــور ملاحظته فى حرجه ذاك ، وهو يعــاود الانكباب على البرنامج الشامل ، للكلمات ، والمحاضرات والاطراحات والمناقشات ٠

دارت عدسات التليفزيون فاعتدل مستبشرا · بعض البروفيسورات والباحثين عندهم « دسك » ، أمراض مكاتب عصرية ، تصيب البروفيسور منهم في قفاه أو سلسلة ظهره الفقرية ، وبعضهم رمد صديدى والبعض ارتعاشات ، وعمى ألوان وقلب ، ونقرس ·

أما الاكتئاب فيستبد بالأغلبية العظمى مثله ، لعله حالة التحسر ، حاول طردها من مخيلته حين غزته على مشارف تلال عمان · قال لنفسه محذرا وهو يصلح أو يدون بعض الملاحظات على مرأى من الجميع :

– غير معقول بحال · هنا وعلى مرأى من الجميع ، خاصة أولئك الحاقدين المتربصين · هذا الحصار بالعيون والكاميرات ، ليت الأمر يقصر أو يطول وينفض السامر الذى غاب عنه صاحبه · القرية والمدينة ، ما الفرق في الشرق الأوسط ، في عمان ودمشق والطائف وصهرجت الكبرى والكعاى والدامور والقاهرة وصنعاء ودير مواس ، ما الفرق في هذا الشرق الأوسط ·

وحتى لو جاءت الطوبة في المعطوبة ، وحدث الفرق ، لن يصل الأمر الى حد يدعو الى الانزعاج ، ذلك الذى يغمر الشارع ويطفح على طول الشرق الأوسط ، وهنا الفرق حين يمكن طرح القضية من منطلق زمنى بأكثر منه مكانى فراغي ، طفح الماضى واغراق الحاضر العربى الماثل على اعتبار أن « الماضي يفسر الحاضر » ان لم يغرقه ، عاليه قبل واطئه :

– أجل أيها السادة ، فالمدينة في الشرق الأوسط ما هى سوى صورة متطورة ان لم تكن معدلة من القرية والنجع والبادية · هكذا الحال مع عمان وبيروت وقرطاج وطرابلس والقاهرة ·

هى هى بادية الجاهلية الأولى والثانية ثمود وقراها الخمس ·
هكذا الحال في مخيمات الشارع

حيث تباع الأطفال الرضع ·
حسب المواصفات ·
لون البشرة وخفة الدم ·
ناهيك عن أسواق النخاسة المعاصرة ·
اللحم الأبيض والخمرى ·
هنا على النواصي والسوبر ماركتس ·

البوتيكات ومشارب الشاى ٠

المحـــاور ٠

دارت المناقشات بعمق ، تساءل أكثر من باحث ومتخصص وأثنى بعض المشاركين على توجهات الكلمة الافتتـاحية وشجاعة الندوة لذاتها المقامة تحت وابل قذائف حرب الشوارع والتهديدات المعادية بحثا عن حل ٠ أين ؟

شحذ ذهنه في محاولة للتكامل مع عقول كثيرة للخروج من المأزق٠ الغرق ٠ رفع اصبعه طلبا للكلمة ثم يده بكاملها ، دون أن يسأل فيه أحد ٠ واصل المحاولة ولم يستطع ، ظل هكذا يطلب الكلمة دون أن يلفت نظرا ٠ ما الخبر ؟ الجميع يتكلمون فى استطراد فيما عداه ٠ لماذا هو وحده فى كل حالاته ٠ الجميع يلغطون ، يتبادلون اللفائف والمداعبات ، التواعد باللقاء ، المراجع ، الآراء المفيدة ٠

وحتى عندما رفعت الجلسة لتناول المرطبات والحلوى ، وانتقل الجمع الحاشد فى جماعات الى حيث بوفيهات قاعة الطعام التالية ، ظل هو يتحرك متعسرا جامعا حاجياته باحثا من تحت منظاره فى تسلل عن شلة يأنس اليها دون أن يلفت نظرا ، يتبادل معها حوارا ، وجهة نظر لا غير ٠ وكما لو أنه أحبط كلية فى العثور على وجه أليف مرحب ٠

توجه من فوره الى أقرب طاولة فأعد لنفسه طبقا من الجاتوه وعصير الليمون ٠

قـال :

ـ الليمون هو الحل للافلات مما حدث ٠ تلك القهوة المشئومة ٠ استند بالجـــدار وحده وراح يتأمل الجمع الحاشد من حوله وأمامه ، يرتشفون مشروباتهم ٠ يدخنــون فى شره ، يتبادلون النكات والمزاح ، يسترجعون معلوماتهم مضيفين ومصححين ٠ آخر المعلومات ، الاحصاءات ، المناهج ، الاتجاهات البنائية ٠ أجل شتراوس ٠٠ ليفى ٠

حاول ثلاث مرات التقرب من مجموعاتهم دون جدوى ٠ كانت الشلة أو الحلقة ، تتقارب فى أشكال ثلاثية ورباعية وفى معظم الأحايين ثنائية ، رجل وامرأة لتدفع به خارج قطرها ، فى محاولة منه لتلافى الوضع بشكل رياضى ، حيث عادة ما يدفع بعنقه النحيل الطيع من حيث التمدد والعودة

الى التقلص والقصر فى اتجاه ياقة قميصه والكرافتة متراجعا ، مواصلا البحث بلا كلل عن موضع آخر فى مناقشة يدلى فيها برأى ، وجهة نظر :

– على الاطلاق • ليس هـذا أبدا هو الحل • أجل ليس هـذا هو المنطق الجدلى المفضى الى حـل لن يجىء أبدا ويكتمل الا مع التشخيص وترصـد الحالة ، والتى لن تغدو أبدا ، طفح المـاضى الى حـد الاغراق للحاضر ، ما نحن فيه ، وليت الأمر بقاصر على الثقافة فى الشرق الأوسط ، لكنه يتمـدد سرطانيـا محتضـنا الشـارع والبيـدر ونقط التفتيش والكمائن ، وحرس الحدود ، التى عادة ما تتصدر لافتاتها الخطية الطرقات ورءوس المسئولين والجدران ودورات المياه وبيوت الراحة •

« أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » •

وحين بادرته سـيدة أنيقة بالسـؤال عن الحل الذى يبحث عنه الجميع فى عيون بعضهم البعض ، أجاب من فوره :

– بالطبع ، كل تصور فيه نفى الموجود الطافح وهدمه •

اعتدل معتذرا فى أدب القرود :

– التحليل الجدلى امكانية توجيه العمل الثورى توجيها سليما •

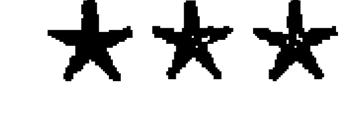
واجهته السيدة المهندمة فى حدة ، وهى تشير له باصبعها فى شبه اتهام :

– أنا أعنى الحل لما نحن فيه الآن فى الواقع •

غمغم بذات الأدب والصوت الخفيض قال :

– أجل • الواقع كبناء من المتناقضات •

أدارت له السيدة ظهرها ، وكان قد انسحب الجميع • دخل مكفهرا الى داخل قاعة الاجتماعات •



بدا أن الرئيس ونائبته ، انما يتحرشان به ، راوده هذا حين كان مأخوذ يدون احدى الملاحظات عقب تعليق موجز أدلت به زميلة باحثة فنلندية فى موضوع أو حقل الحزازير والفوازير ، مما أربكه الى حد متابعتها فى عداء ٠

لكن ما أن التقت صـدفة عينـاه ، بعينى الرئيس ونائبته متقاربى الرأسين ، وعيونهما الأربع تحط عليه ٠ واهتزازة الرئيس اياها ، التى دفعت ذات مرة بما كتب المغتال ، لأن يفض اجتماعه الوزارى رافعا رأسه عاليا الى حيث الكوة النارية فى أعلا سقف البهو الملكى ومنها يطل شبح رأس الملك الشرعى الذبيح صارخا بعلو صوته :

ـ لا تهز جدائلك الدامية ٠

لماذا يرقبانني على هذا النحو كما لو كنت المتهم الوحيـد فى هذا الحشد القفصى ٠

انكب المهاجر من جديد وقد اختلج تنفسه قائلا :

ـ الأمر لا يحتاج ٠ ثلاث جلسات أرفع فيها اصبعى بأدب ، ثم يدى فذراعى المشمر بكامله فى طلب الكلمة ، أية كلمة ، وجهة نظر ٠

رفع ذراعـه عاليا ، بل هو قام واقفـا احتجاجا على مرأى من كل المؤتمرين ٠ فنقر الرئيس على طاولته بخنجر نحاسى أعد لتقطيع الورق ، ودون أن يومىء اليه مباشرة ٠

جلس فى مكانه ، دون أن يلحظه أحد ٠

وارتفع صوت باحثة « حزر فزر » فطغى على تساؤلات الحضور من الباحثين والصحفيين والمراقبين ٠

راحت الفنلندية الفاتنة تربط بين الحزازير والألغاز ، وبين طاقات الذكاء الفطرى ، لدى الأقدمين وورثتهم ، فها هى ميكروفونات البث والتليفزيون الملون ، يغرقوننا بفوازيرهم السخيفة خاصة مع تسالى رمضان • ثم ها هى الصحف السيارة لا تبعد بنا كثيرا عن ملغزات جلجاميش ، فى مواجهة الاله الأكبر ، سائلا عن الموت قبل الحياة ، متحديا ذلك الاله الأزلى الخالد :

ـ اشمعنى انت اللى خالد •

وذلك بعد أن ظل ذلك البطل الالهى «قلقاميش» فى العالم السفلى، اثنتى عشرة ساعة مضاعفة متجولا فى الظلام الدامس ، مقاوما النوم ستة أيام وسبع ليال ، بحثا عن الخلود والتيقظ •

حتى اذا ما وصل الى عتبات كبير الآلهة « أوتونبشتم » متعرضا للكثير من امتحانات الذكاء والحزازير ، منها وضع سبعة أرغفة على رأسه « وأن يعجن الرغيف السابع ، ويشكل السادس ، ويبلل الخامس ، ويترك الرابع يختمر ، ويحمر الثالث ، ويشوى الثانى ، ويعد الأول للأكل وهو على رأسه » • غمغم متمخضا :

ـ تعطيـــل •

من جديد تمددت ذراعه بكاملها ، ومن طرفها تتدلى أصابعه المفكوكة الخمس ، فى وجه الرئيس ونائبته ، بينما التحـدى الغشيم يطغى على ملامحه بوجهه الأقرب الى محـاولات النحت الحديث ودأبه فى تشـكيل الفراغ بدلا من الكتلة وترهلها ، تلك الاستطالات الغائرة ، تلك العيون اليقظة الندبات • الأنف النحيف الدقيق الانسيابى الصقرى ، ثم ذلك الأسى المتمثل فى زمة فمه ، كمن يمسك عن القول :

ـ أجل الافصاح ، الجنب المريح الذى عليه ننام • نستريح ، ان أعبر عن نفسى مثلكم ، ألقى بدلوى ، وجهة نظر •

تنبه ساحبا يده السائلة معتدلا فى كرسيه مستديرا الى حيث اليد التى امتـدت من خلفه منبهة ، ليجد نفسه وجها لوجه مع تلك الفتـاة الجنوبية الحنونة الصغيرة ، فتاة راشيا الفخـار ، التى مالت على أذنه اليسرى مسرة ، كمن آلمها وضعه ذاك فوجدت له مخرجا هامسة :

ـ اكتب سؤالك وقدمه للرئيس ٠

شكرها حين انسحبت الفتاة مختفية فى كواليس المؤتمر ، وانكب مدونا : الزميل رئيس الندوة الدولية ٠ منذ أمس الأول وأنا أرفع لكم يدى بالسؤال وما من مجيب ٠

الباحث المهاجر لديكم

المـــذكور

أشار من فوره فى تعال الى أحد موظفى العلاقات العامة بالمؤسسة المعنيـــة بشئون الشرق الأوسط ونكبـــاته المستعصية ودفع له بالورقة المطـــوية :

ـ للسيـــد الرئيس ٠

أخذ الموظف الوريقة ودفع لآخـــر بها ، دفع بها لما يعقبه الى أن استقرت فى يد الرئيس الشارد ، فقرأها وردها من فوره عبر موظفى وموظفات العلاقات العامة بشاراتهم الخضراء التى تعلو صدورهم وتحمل طوطم المؤسسة ومناسبة المؤتمر ، الى أن استقرت من جديد فى يده ٠

أعاد المهاجر قراءتها ، مكتشفا انها ذات الورقة بلا اجابة ، بل حتى سؤاله ذاته الذى سبق له تدوينه بقلم جاف الحبر ، محى تمـــاما من سطحها ، بنفس ما حدث بذهنه هو ذاته لومضة ٠

من جديد دفع بذراعه العظمية المنتهية بأصابعه الخمس مشهرة فى وجه الرئيس بل الندوة الدولية بكاملها ٠ ولما لم يجد بدا هب واقفا على مرأى من الفتاة المجمدة فى كواليس المؤتمر ٠

وظل هكذا مهتزا عاصفا دون أن يسأل فيه أحد ، الى أن أعلنت دقات الرئيس المنذرة ، فانكب جالسا ٠ قال :

ـ يبدو أننى سأظل هكذا على الدوام ، أقف فى الخارج ٠

تذكر وقفته بعد منتصف الليل فى مواجهة العين السحرية مبتسما الى حد التوسل ، وتمنى للمرة الأولى قهوة العالية ، ذلك المغص الكلوى والمعوى الذى لم يبرأ منه لحين انعقاد الندوة ٠

وتصوره يوما يمكن اضافته مع بقية أيام الأسبوع الأخيرة ، تلك التي يختص كل يوم منها بكوكب أو جرم سماوى ويحمل اسمه •

وأدهشه للحظة ربط المحاضرة الفنلندية بين الألغاز وحزازيرها وبين أيام الأسبوع السبعة ، وما يصاحبها عادة من أحجية وملغزات ، تنتهى في الأبراج وثقافتها ، وهيافتها ، كسلعة لها خانتها اليوم داخل كل بوتيك وصحيفة سيارة •

أخرجه من احباطه ووقوعه في نكده الذاتي ، عينا فتـاة الجنوب الحنونة ، تدفع به من جديد الى معاودة الكتابة والسؤال ـ قال مهمهما :

ـ وجهـــة نظـــر •

كتب رقعة جديدة ومررها من يد ليد الى أن استقرت في كفة نائبة الرئيس ، فالتهمتها دون أن تصل يد الرئيس ، وراحت تمضغها مضغا على مرأى من الجميع •

أخفى المهاجر من فوره وجهه الأصفر غائر الجلد الى حد التوارى تحت نتوءات العظام الطولية بين كفتيه المتناسقتين مع وجهه •

ـ فخذا العالية تحت وهج نيرانها •

غمغم مطرقا كفا بكف :

ـ ارحـــم •

سعل بشدة واضحة ، تصـاعد الى حد الدوى عبر ميكروفونات البث والتسجيل من مسموع لبصرى ، وكاد أن يبصق على أوراق زميله العدنى الذى دفع اليه بسلة خلسة من تحت المنضدة •

تذكر من فوره وجه صول عمان الفحل ، بلا عينين ، وبصق فى منديله مسلطا عيناه المحمرتين من قوره على الرئيس ومرءوسيه وزبانيته وباحثيه وفتيات علاقاته العامة ، دون أن يتخلى عن ألمه الواضح المرتسم على شفتيه ... منطقة ذقنه الدقيقـــة ، هزت رأســـه أســـفا ، ان لم تكن تشفيا •

أشار بذراعه بكامله عبر الشرفة المواجهة المطلة على البحر بلا صوت حين سمع انفجارا لسرب طائرات يخترق جدار الصوت •

واصل الرئيس دقاته بخنجر الورق عاليا فى عصبية ، وواصل هو سعاله دون أن يثير التفاتا يذكر ، سوى من فتاة الجنوب التى تسللت فقاربته مقـدمة له كوب شراب ليمون ، شربه فرحا على دقات المنصـة الرئاسية ٠

عبر الشرفة تبدت له رأس الملك الذبيحة ، مواصلة اهتزازاتها ، ودوى الانفجارات والأسلحة المطاردة يطغى صـوتها على صـوت تلميذة كارل كرون ، الفنلندية ومقاطيعها :

ـ لمـــاذا أيهـــا الرئيس ٠

واصـــل اهتزازاته المنتظمة مسلطا عينيـه فى عينى الرئيس غير المكترث ، الذى كان ساعتها منجذبا ـ بفكره ـ بكامله فى أحبولات زوجته ومشاحناتها ، رابطا بينها وبين الفنلندية فارعة الجسد ٠

وحين دوى الانفجـار الذى لحق شرفات المبنى انبطـح مرتاعا مع المنبطحين ٠



- ١١ -

حين أفاق وجد نفسه في المستشفي ، مع ستة عشر خبيرا وباحثا وثلاث من فتيات العلاقات العامة ، وتلك الصغيرة فتاة الجنوب ، غمغم من فوره :

ــ الرئيس ونائبته ٠

وسمع حديثا جانبيا بين المرضي والجرحى فى أطراف العنبر شاهق الطول شديد الضيق ، الشبيه باسطبل انجليزى الطراز ، طليت جدرانه بلون أصفر لوني ، وما زالت لمبات سقفه المدلاة فى أعناقها وسلوكها مشعلة رغم أن الوقت كان ضحي نهار يوم جديد ، قال أحد المرضى :

ــ ان ما حدث كان متوقعا ، نتيجة منطقية فى منطقتنا ٠ فالنزال يفضى الى ما نحن فيه ٠

سمع أوجاعا وتوجعات وسبابا كثيرا ، معيدا تساؤله ، بل هو راح يحرك عينيه مكتشفا ضياع منظاره ، فتكور من فوره باحثا عنه على سريره ، وما تحته وحوله والطاولة وجيوبه بكاملها ، فقدت ٠ تساءل :

ــ الرئيس ٠٠ الباقين ٠

وضايقه جدا سماعه لتأوهات يعرفها ٠ فتح عينيه عن آخرهما ، ومسحهما بفوطة مستطلعا وجه العالية :

ــ ما معنى هذا؟ ٠

قال :

ــ ما معناه ٠

قام من فوره مرضوضا مجرجرا الى الخلف منه ملاءة السرير حافيا ، الى أن قارب سريرها ، فيما قبل منتصف العنبر شاهق الطول ، ضامر العرض ، قاربها ، نائمة تغط كطفلة راضية أقرب الى أن تكون فى ضيعتها أو حديقة بيتها الريفى ، منها الى هذا العنبر • تحسس جبهتها عن قرب ، فى ذات اللحظة التى قاربت السرير فيها ممرضة ، لامست يدها يده قبل أن تستقر على جبهة العالية نائمة ، انسحب من فوره عائدا الى سريره كمن يطمئن نفسه :

ــ تنفسها طبيعى •

استقر المهاجر على سريره مدخنا فى شره • صامتا بلا منظار ، لحين انفتاح أقصى أبواب العنبر ودخول وفد الأطباء وكبار الزائرين يتقدمهم ثلاثة مصورين صحفيين ، راحوا يصورون كبار الزوار وهم يسلمون على المرضى والجرحى ، ويقدمون لهم الزهور الصناعية والشيكولاتا ، والهدايا التذكارية فى لطف بالغ والمصورون ينحنون ويتلوون بفلاشاتهم لتغطية كل الزوايا •

ولدهشته اكتشف الرئيس ونائبته فى مقدمة الوفد الوزارى الزائر •

ــ همـــا •

تنبه مادا جذعه الناحل الطويل المنتهى بوجهه وأعلى ذقنه المشرئبة ، حين قارب الوزير وكبار الزوار فراش العالية ، والمحاولات الكثيرة التى بذلت من الأطباء والممرضين والسيستيرات لايقاظها • بل حتى مصورى الصحف والتليفزيون أخفضوا من اضاءاتهم التى كانت منذ قليل مسلطة كمثل جمر فحم على وجهها الفينيقى البرنزى وسباتها ، وذلك التنفس الهادى الوردى الصادر عبر أنفها الطويل القائم كمثل زاوية منفرجة مع سطح الوجه المسترخى الى حد النوم :

ــ تنفسها طبيعى للغاية •

اعتـــدل جالسا فى منتصف سريره ، تسبح عيناه رامشة أكثر بلا منظار •

على هذا النحو رمقه الرئيس ونائبته ، حين أحـاط بفراشه ستة مصورين مسلطين اضاءاتهم . بل ان بعضهم اعتلى سريره بحثا عن زوايا جديدة . وتكوين مبتكر .

وظل هو يرمش في قرفصته ، ضاما ركبتيه الناحلتين بساعديه ، باذلا أقصى جهده في أن يبدو ثابتا تحت وابل الاضاءات المكثفة والعيون ، خاصة الرئيس والنائبة التى سبقت أن التهمت سؤاله على الورقة قبل أن يقع الدوى المفاجيء بلحظات :

ــ توقيت مريب . عقاب .

قاربه الرئيس دون أن يراه وقدم له منظاره فابتسم من فوره ، ووضعه على عينيه فرحا أكثر مما شجع النائبة البضة على بذل جهد أكبر وأشق فى التـدافع مع المسـئولين ومصورى الصـحف النشطين الذين اجتذبتهم زوايا جديدة لاعادة تصويره بالمنظار مبتسما فرحا متطلعا الى ما حوله فى حالة من الصفاء المحلق نادرة .

لكن ما أزعجه حقا هو محاولته لرد التحيات الكثيرة التى انهالت عليه .

ــ حمد الله على السلامة .

ذلك أن صوته الأجش المبحوح على الدوام لم يخرج أصلا ، ليصل أذنا قريبة منه الى حد ملامسته والتقارب معه داخل « كدر » فوتوغرافى .

مضى معـانيا فى توضـيح حـــركة شفتيه للرد على كبـار الزوار وصغارهم ، لمجرد المجاملة تبادل التحيات .

ــ متشكر قوى . دا كرم منك . سليمة سليمة الهى يهد حيلهم .

بل هو حاول التندر مع الوزير بنطق :

ــ عمر الشقى بقى .

الى حد مقاربته ليصب مزحته هذه فى أذنه اليمنى بلا طائل ، ذلك ان الوزير وسكرتيرته الحسناء وطبيب العنبر ، أعادوا المحاولة لسماعه ثلاث مرات ، الوزير ، السكرتيرة ، طبيب العنبر الى أن تقدم منه الرئيس والنائبة فى انزعاج قليـل لاستيضاح الأمر ، فلعله يتشكى ، حتى ان النائبة قاربته بدورها مهونة واعدة :

ــ سؤالك عندى · فى عنيه ·

مشيرة الى فمها ·

وحاول هو ايضاح الأمر أكثر ، لا يشكو مجرد مزحة :

ــ عمر الشقى بقى ·

مشيرا معتدلا الى رقبته ·

ومن جديد ضاع صوته الأجش ، وطبطبت على ظهره النائبة منسحبة فى اثر الوفد المتقدم فظل مستقرا فى جلسته ، غير مقدم على التغيير من زاوية قرفصته ذلك أن الركب تحرك من خلف ظهره ، الى أن غمرته اضاءة العنبر الطبيعية بدلا من الفلاشات التى صاحبت تقدم الركب الرسمى ·

ظل مثبتا فى وضعه ذاك ، ذراعاه تطوقان ركبتيه مبتسما فى رضاء جلس متطلعا عبر منظاره المقرب الى الجهة المقابلة ، لحين ان أخرجه من وضعه الساكن ذاك ، الاضاءة التى عادت فغمرت ظهره المقرفص ومنطقة قفاه ومطلع رأسه الأميل الى الاستطالة الرأسية باتجاه جبهته ·

أخجله الى حد ، تكثيف الاضاءة التى داخلها الكثير من ألوان قوس قزح ، تبعا لحركة الضوء وزواياه ، أنه غطس قليلا فى ياقة قميصه ، دون أن يستدير مستطلعا الأمر :

ــ ايه اللى بيحصل ·· ولــو ·

خفت الضجة بخروج الوزير وكبار المسئولين من الباب الخلفى وتبعهم الباقون ، بعد أن أدوا دورهم وأخذوا الصور التذكارية الصحفية ·

حط وجوم أقرب الى السكون ، على العنبر وجرحاه فيما عدا وجه العالية حين تحركت بعينيها يمنة ويسرة كمن تبحث عن شىء لنراه ·

قفز من فوره حافيا مجرجرا ملاءة سريره باتجاه سريرها وهى مسجاة تهمس بلا صوت ، قاربها ، حين انكب مطلا بوجهه الطويل المتندم على الدوام على وجهها ، مكتشفا من فوره انها ليست الأخت الصغرى العالية ·

عاد من فوره الى فراشـه ، معيدا التروى والتفكير فيما حـدث ، ويحدث ماثلا أمامه بكامله :

ما معنى هذا . هأنذا أتحرك ، ليس بى خدش ولا حتى رضوض بسيطة . بل انه حتى ليس هناك أدوية ، أو موضع لمطهر ميكروكروم ، أين ؟

راح يتفحص أعضاء ومكونات جسده الناحل العظمى مفرط الطول والتدفق المتلاحق بالحرحة والحيوية . تحسس ذراعيه ، منطقة رقبته ، كيعانه ، ساقيه مقدمة سلسلة ظهره ، أسنانه ، ركبتيه ، تسمع دقات قلبه .

ـ أيـــن ؟

أدهشه الى حد كبير أن ليس بجسده بكامله أية آلام ، مركزا انتباهه على موضع آلام بواسيره ، وأزعجه أكثر أنها باردة لا تنبض بأدنى ألم .

ـ ماذا جرى .

هب جالســا نصف جلسة قافزا فى رشاقة الى احدى زوايا فراشه متسائلا :

ـ لماذا أنا هنا .

بحث طويلا عن مهرب على طول العنبر ، منتعلا شبشب زنوبة ، متحركا بأقصى حيويته الى حد الركض والجرى ، عن تومرجى أو ممرضة دون جدوى .

عاد ثانية الى فراشه مهدودا قليلا . محاولا تذكر ما حدث ، ذلك المؤتمر السيمنار الذى حرم فيه من الادلاء بمجرد وجهة نظر ، لحين دوى جدران المبنى وابتهاجه الذاتى بالانبطاح .

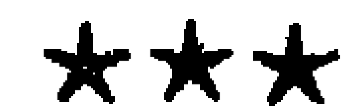
مضى يتلفت هنا وهناك بحثا عن الممرضـــة ، هب من فوره منتعلا شبشبه أزرق اللون ، سائلا :

ـ تسمح من فضلك . أى حد من ادارة المستشفى .

ـ أجـــل ٠

ـ أنا لم أجرح ٠

مضى المهاجر يكشف للتمرجى ، أو الطبيب ، هو لا يعرف ، ذلك أن محدثه كان يدفع أمامه بنقالة مستشفى عليها مريض أو جريح ٠ من يعرف وكلاهما يضع قناعه على وجهه ٠



- ١٢ -

حين تخلى عنه التمرجي ، دافعا أمامه بعجلته ومريضه أو جريحه أو عهدته وتركه نهبا لتساؤله ، عاد المهاجر منكسرا قليلا الى فراشه ، وراح يسترجع الأمر بكامله ، بدءا بالرحلة المضنية التى بدأها من عند سفح الهرم الأكبر من قرية « كرداسة » وما حولها بحثا عن حواديت القرى فيما قبل المعرفة بالراديو ـ طبعا لحين اختراق الحواجز وصولا الى هذه المدينة المتأججة بالنيران ، ناهيك عن قهوة الأخت الصغرى ، وصول عمان المرتعد ، والموكب بكامله الذى لم يعنه فى قليل أو كثير ، سوى من حيث وصول منظاره اليه ٠ صحيح انه تعرفه منذ أن تسلمه غير مصدق من يد الرئيس ، فما أن تحسس شنبره ـ حتى عرف انه ليس منظاره ، لكن ما أراحه وهون الأمر ، هو ارتياحه لحظة اكتشـافه بأن مقاساته هى هى ٦/٨٢٠٠ للعين اليسرى و١٨/٤٣٨٠ لأختها اليمنى ٠ ومن هنا كانت جلسة استرخائه تلك التى تعمد أن تجىء على مرأى من المسـئولين والجميع فى منتصف الفراش بأقصى دقة ممكنة ، وعلى فمه ابتسامة عريضة ، تسببت فيما حدث من تسابق للمسئولين ومصورى الصحف السيارة ، لتغطية كل الزوايا ٠ الجميع أخذوا معه أكثر من كدر وبوز تذكارى ٠

أخرجـــه من تزاحم أفكاره تلك ، ضجة عجـــلات نقالة المستشفى المخلعة العتيقة ، يدفع بها التومرجى الملثم عائدا بعد أن ألقى بمريضه على فراش أقصى العنبر عائدا ٠

قفز من فوره اليه معترضا :

ـ أنا هنا ليه ؟

رفع عامل المستشفى قناعه ، أو هو أنزله تحت ذقنه كمن يبذل جهدا مضاعفا وأجابه بكلام كثير موجزه أنه ٠٠ أى التمورجى لا دخل له

يذكر ، أو يمكن أن يشكل خطرا ، عليه أو على جميع نزلاء هذا العنبر ، وأولهم المهاجر ذاته • وقال ، موجها كلامه للجميع :

ـ ما نحن سـوى نزلاء معكم ومعه • فالأمـر سيان • طالما أنه « عبد المأمور » بل ان مأمور المستشفى ذاته ومديره ، له موقع أدنى من رئيسه ، وهى متوالية كما نعرف جميعا لا تنتهى •

وحاول هو بالمقابل أيضا ايضاح الأمر ، وأنه سليم ليس به خدش واحد ، حتى ان آلامه القديمة لم تعد تؤلمه •

راح يقفز هنا وهناك محركا جـذعه الأعلى فى رشاقة حسده عليها بالفعل عامل المستشفى ، وبعض الجرحى والمرضى ، بل والفتاة المواجهة التى تصورها العالية •

الجميع التقت عيونهم وحطت الى حيث يقف معتليا سريره ووسادات رأسه وبذلته ، كمن يخطب مدويا بلا صوت ، سوى من حشرجات بدت مؤلمة لبعض الجرحى • وبخاصة الفتاة التى هبت منزعجة ، كما لو كانت قد تخلصت من تأثير المورفين المخدر دفعة واحـدة على صوته المدوى ، زاحفة بجذعها الأعلى بكامله ، وهى تغطى منطقة أذنيها •

ولاحظ هو حركتها هذه ، فأوصل درجة حشرجاته الصوتية الى أقصى مداها ، مستعينا بعظميـة ورشـاقة تكوينه الجسدى ، وقدراته البلاغية المؤثرة التى يعرفها عنه الجميع •

لكن يمكن عدم الجزم الدقيق بما تناثر بالفعل من خطابه فى مواجهة التمرجى نصف المقنع الذى واجهه عبر نقالة العنبر البيضاء التى خدشت دماء راكبيها بياضها الناصع النقى ، فبدت متسقة بدورها مع كل من العنبر وجرحاه •

أقول لا شيء محدد حول ما تناثر من كلمات المهاجر وهياجه الى حد الخطابة ، الدفاع عن النفس •

ـ أنا لست جريحـا • لا مكان لى هنا ، طالما انى معافى • وفى مقدورى الكشف عن كل أعضائى :

ـ القلب ساقاى البول السكر الدم • أين ؟

تساءل بعض الجرحى الذين ساءهم وضعه وهياجه على هذا النحو ، دون مراعاة لراحتهم ، الا أن الفتاة شبيهة العالية ، صرخت من فورها بأعلى صوتها في وجوههم مشيرة الى أذنيها لاطمة :

ـ أنا سمعاء • مفيش نقطة دم • سكر •

وواصل هو دفاعه عن وجوده • لكن ليس أبدا وبالمرة هنا • مكاني حيث انى باحث متخصص •

راح يتوجع قليلا على سريره فى مستوى أعلى من التمرجى الغاضب المندهش ونقالته :

ـ ليتنى جريح أنزف •
استدار مستشهدا بالنزلاء •
ـ مثلكم جميعا • ليتنى ، لكنه شرف لا أدعيه • ليس فى مقدورى •

صرخ عاليا :

ـ اليكن هذا حالتنا •

واستلقى من فوره منحطا فى الوضع الممـــدد الملائم فى منتصف فراشـــه :

ـ تنفسه طبيعى •

انسحب عامل النقالة تحت قناعه ، ولم يعـد يسمع سوى صوت عجلاتها بأزيزها لحين اغلاقه الباب الأخير المقـابل بالمرصاد والكمارات الحديدية الضخمة على هيئة مقص عملاق متعانق •

ساد ذلك النوع من الصمت الذى عادة ما يعقب المشاحنات عالية الصـــوت •

أما المهاجر المسن ، فقد غطس نهبا لهواجسه التى لا تخلو بحال من آلام جسدية ، خاصـــة زوره الجاف الى حد التشقق مما أدى الى غياب صوته بكامله ، فى مواجهة الوزير والرئيس والنائبة الملهمة ، حين حاول تخفيف الأمر عليهم وبمجرد المداعبة الشائعة ، بأنه سليم معافى •

ـ عمر الشقى بقى •

ومع ذلك أخفق هو من جانبه في ايضاح الأمر ، ان لم يزده سوءا ، الى حد التخوف من الوشاية ، مما ترتب عليه بالقطع تركه على هذا النحو ، وهو الذي لا يحس خدشا في جسده ، وان لم يخل الأمر من هبوط عام ٠

تذكر فيما تذكر أن شيئا أقرب ٠٠ حدث له في القاهرة ، لم يكن بالدقة ذات الأمر أو الوضع ، الذي موجزه الخروج ٠

صحا ذات نهار ليجد نفســه جالسا القرفصــاء على سريره داخل بدرومه ، وأفراد ذلك الجهاز العام بملابسهم المدنية محيطين بالفراش والحمــام الملحق ، يفتشون السرير ومرتبته وجيـوبه وأعلى الشرفات ، وسيفون الكابينيه والكتب ، وغرفة الكرار الملحقة ، ودواليب الحائط ، وانتهى الأمر كالمألوف ، بأخذه مع الغسق داخل سيارة « بوكس » وفي أحيان شيفروليه وموتوسيكل ومشيا على الأقدام ، بل وظهر حصان ، يختفي بعدها لحين الافراج عنه ، بكفالة في ثلاثة أحايين غير متتابعة ٠

ـ والآن ٠

أحس بوخز زوره ، غمغم بذات الصوت الأجش المبحوح ، وهو يتطلع ماسحا أعلى حوائطه بعينيه ٠

صحيح أنه لم يكن ذات العنبر ، بسرائره الحديدية والبطاطين رمادية اللون على عادة الميرى ٠

وبدا استياؤه جليا في عيني تلك الفتاة الجنوبية كطفلة صفراء الوجه حنونة ، حين قاربت سريره في جينزها الأزرق وحديثها المفصح متحسسة جبهته ٠ نبضه ٠

وحين فتح عينيه في عينيها بدت منكسة أكثر خجلا ، سألها أكثر من مرة بلا صوت سوى الفحيح « لماذا هو هنا ؟ » ولما لم تجب تصورها جزءا من جهازهم العام ٠

مرة أخرى فتح عينيه حين راحت تدثره ببطانية وهي تشدها شدا من تحت منطقة وسطه في صعوبة ٠

كيف يمكن افهامها ، راح يشير الى منطقة زوره :

ــ اللوز ·

وحين أومأت اليه فاهمة ، مضى من فوره شارحا الأمر ، مشيرا مرة الى أعضاء جسده الخشبى الممدد ، ومرة الى رأسه ، ومنطقة الحجاب الحاجز وفكيه ·

قفز جالسا وهو يقاربها ، سائلا بصعوبة أجهدت الفتاة بقميصها ضارب الزرقة المزين بفراشات ذهبية تغطى منطقة نهديها :

ــ دى مصحة والا مستشفى ؟

وحين أجابته الفتاة بالنفى واصل :

ــ يبقى معتقل ·

ضحكت الفتاة وهى تحاول اقناعه بانها مجرد زميلة حيث ان فراشها فى أقصى العنبر ونفس صفه ، وأنها هى أيضا لحقها الانفجار ، الا أنها مثله لم يصبها جرحا ، كل ما هنالك أنها استغرقت فى النوم ، ولم يوقظها سوى صوته ·

قال بصعوبة مشيرا من جديد الى زوره :

ــ صوتى راح ·

وسألها ان كانت تسمعه ، فأجابته :

ــ بصعوبة شوية ·

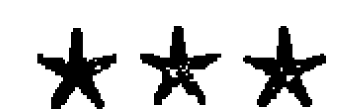
أعجبه ابتسامتها التى ذكرته لومضة بحقول مصر الممتدة ، فمضى يشرح لها الأمر كله مستعيناً بيديه وذراعيه فى ملامسة يديها البضتين البيضاوين وكتفها وعنقها النافر كمثل حمامة أيك دقيقة حين تنفعل وتتفاعل مع شرحه للأمر كله ، لحين تذكيرها لما تعرض له طيلة أيام السيمنار ، مذكرا اياها باقتراحها بكتابة سؤاله وتقديمه للرئيس ، حين التهمته النائبة من فورها قبل أن يصل يده ·

ضحكت طويلا ، وأشارت اليه بأهمية الخروج ، وحين سألها مقاربا هذه المرة وهو يتحسس مفرق شعرها العاجى الأحمر ، أعادت التأكيد بالايجاب ·

ــ بل يمكننا الخروج معا ·

ضمها من فوره الى صدره العظمى ، وقفز مرتديا ملابسه ، بعد أن أقنعته بأن هذا العنبر الذى تساقط طلاءه ، ما هو سوى رقم ، أو عربة فى قطار ممتد الطول من عنابر مزدحمة تغطى الأفق ·

وأدهشه أن الأمر لم يستغرق كثيرا ، ليجد الجهة المقابلة ، ويدلفان خارجين الى حديقة الليمون ·



حين غمرتها الشمس الساطعة خارج العنبر ، أخفى كل منهما عينيه بكفتي يديه • كان الوقت فيما بعد الضحى • الحر لا يطاق وشعر هو بخطأ لارتدائه ملابسه بالكامل حتى الكارفاته حين تصبب عرقا ، كانت فى بعض الأحيان تقوم بتجفيفه بمنديل يدها الصغيرة الرخيص ، الى أن جلسا على دكتين متقابلتين فى ممشى الحديقة المحاذية للعنبر ، وأجهدها المهاجر فى معرفة جلية الأمر ، مستشهدا بما حدث فى ذلك السيمنار المشئوم ، ولم يخل الأمر من ذكر أمراض الشرق الأوسط المستعصية اللا أمن اللا توازن اسرائيل والضحية الأخيرة لبنان وأحبولتها التى لا تبعد كثيرا عن بحث الفنلندية الفاتنة حول الحزازير والفوازير ، لحين وقوع الهجوم المفاجىء ، وتهتك مبنى الأوتيل البحرى والانبطاح أرضا ، ووصول سيارات النجدة والاسعاف •

وحين وصل هو فى حديثه الى حد زيارة الوزير والمسئولين أنكرت هى كلية معرفتها بهذا الأمر ، وهى التى لم تصح الا منذ حين •

حاول بصعوبة ، ضاعفت من نزف عرقه مدرارا تذكيرها بالزيارة والفلاشات ، ومداعبته التى عجز عن ايضاحها لحين فرحته بوصول منظاره الطبى حين ناوله له الرئيس ممتنا •

عاوده يأسه فلزم الصمت حين أصرت الفتاة الصغيرة على عدم تواجدها فيما حدث رغم الضجة والطنين وتعللت بالنوم ، فوافقها مكرها ، وهما يزحفان على طول مقعديهما فى اتجاه معاكس للشمس الحارقة •

هنا وهناك على طول مرمى البصر تراصت العنابر المستطيلة الغارقة فى الصمت ، ومن حولها انتشر عمال نقل المرضى والمصابين الجرحى المقنعون يدفعون بنقالاتهم البيضاء فى كل اتجاه بشكل منسق للغاية فى أقصى الأفق البعيد ينتصب مبنى ادارة المعزل ، بلونه البنى القاتم ، وشرفاته الرحبة ، ومن على رأسه ترفرف الأعلام الملونة فى حركة عكسية

لأسراب الطيور الضخمة العملاقة التى راحت تحلق ضارية بأجنحتها طائرة في اتجاه دائرى واحد ، فيما حول القبة العملاقة التى ينتهى بها المبنى المدجج بالحراس والمقاتلين ٠

نبهته الفتاة الصغيرة ، وهي تأخذ باصبعه بين راحتيها بألا يشير باصبعه على هذا النحو :

ـ هس ٠

حاول نزع سبابته من بين يديها ، موضحا بأنه لا يعني المبنى الرئاسى لذاته بقدر ما هو يعنى الجوارح ، من حداءات ونسور وخفافيش ، وتحليقها على هذا النحو ، ولا شيء يطغى على سمع المكان بأكمله سوى أصواتها الجارحة المعدنية الصدى ، تقطع أحبال صمت المبنى بأكمله ٠

ـ لابد أن فى الأمر وليمة ٠

أردف :

ـ بشرية ٠

انفصل كلية فجأة عن الفتاة ، وعاودته زمة شفتيه وهو يتطلع بعينيه فى توجس مستطلعا المكان ، الذى اختلط من فوره ـ داخل مخيلته ـ بأماكن لها ذات الصمت الموحش أو المتوحش ذاك ، رغم احاطتها بالكثير من المناظر البهيجة المنفتحة الخلابة ، حيث لم يكن الأمر يخلو من شلالات مياه أهرامات مدرجة ، بقايا أصنام هائلة الضخامة تنتصب فى الأفق الأحمر القانى مع الغروب ، قرى جبلية مطلة على هذا النحو ، نيل وبحار وأشلاء غابات ونخيل مفرط الطول ٠

أما الفتاة فغرقت بدورها فى أفكارها طويلا ، تذكرت بلدة أمها عبلة التى كانت ـ القنيطرة ـ حيث تربت فى حضن الجبل وجدتها ٠

ـ أين ٠

البلدة ضاعت والجدة ماتت ٠

مضت تحكى له حكايات لا رابط بينها ، عادة ما كانت تختتمها ، بانها لا تعرف ولا تدرى ، وهى تشرح له بساعديها الدقيقتين راسمة شبه دوائر غير مكتملة فى فراغ ٠

وتذكر هو من فوره بناءات وعوالم ومعمارية وفراغات ذلك المصور الميتافيزيقى السريالى ، دى شيروكو ، غمغم ملتاعا :

– يا له من يـوم ٠

من جديد عاود احتضـانه للفتاة ، مومئا برأسـه عاليا الى حيث الطيور المحلقة الضوارى ، بجلجلات أصواتها :

– احنا هنا ليه ؟

مرقت من حول مبني الادارة الشاهق البعيد ، سيارتان سوداوان فاخرتان ، تتصدرها الأعـلام الرئاسية ٠ نزل منها ركابها يضحكون متطلعين هنا وهناك باتجاه العنابر ، والأسوار الشائكة المسورة للمعزل بكامله وتناثر منهم بضع كلمات سمعتها الفتاة بدقة ، حين أسرت فى أذنه اليسرى مشرئبة :

– بيتكلموا عن وباء ٠

تساءل من فوره :

– وباء والا انفجار ٠

تساءلت :

– اسرائيــل ٠

وحـين انسحب الضـيوف داخلين المبنى الرئاسى ، جاهد هو فى ألا تعاوده الحالة ، سعل طويلا وبصق جانبا دون أدنى تحرج من الفتاة البسيطة الرقيقة ، التى حاولت مساعدته فى ارتباك مما ألم به ٠

ونجح أيضا هذه المرة فى أن يركز اهتمامه المركزى على الجوارح المحومة تحت وهج الشمس حول المبنى بأصواتها الجرسية المدوية ٠

وما أن فتح عينيه معاودا التنفس بصعوبة ، حتى أسر لنفسه وللفتاة التى لم تفهم شيئا :

– يبدو أن الأمر سيطول ٠٠ هاه ؟

تخفف كلا منهما من ملابسه ، وقاما يذرعان مشيا مساحات الظل الضنينة فيما حول أشـجار حديقة الليمون وزهوز الانترهينم بأفواهها المفتوحة على هيئة حيوانات دقيقة صريحة الألوان والعطر ٠

توقفا فى مكانهما حين وصل تحليق الطيور الضوارى من فوق مبنى الادارة ، وهى تضرب بأجنحتها وأصواتها ، الى حد العنف .. الصراخ .

وأمكن للفتاة الصغيرة لحظتها أن تربط بلا خوف ، بين برودة أطرافه حين تحسستها ، وبين ما يحدث .

قــال :

ـ أروح فين .

بدا وجهه مفصحا للفتاة الى حد جلى ، حين ركزت عينيها التركوازيتين الخرزيتين ، على فيزيقية ، جســده بكامله ، وهو يزم شفته مستطلعا ما يحدث عبر فراغات المؤسسة التى يغلب عليها اللون الأبيض ، ليس من المنطلق الجمالى ، بل لابد أن الأمر هنا متصل بالدرجة الأولى ، يتعذر هروب النزلاء ، الأمن :

ـ أيــن .

تذكر دفاع التومرجى الملثم فى مواجهته :

ـ ما نحن سوى نزلاء مثلكم .

سقط بصره أرضا باتجاه الفتــاة المعلقة بأطراف أصابعه بعينيها نظرة من تنتظر استطلاع الأمر ، ولما لم يجد كلاما يقوله ، استلقى على النجيل وأعناق الزهور البرية ممددا وقاربته الفتاة جالسة .

ـ وبعــــدين .

أصوات الجوارح تطغى على كل صوت حتى أزيز عجلات نقالات نقل المصابين الجرحى ، التى تضاعف نشاطها ، مئات من النقالات لكلا المرضى والتومرجية المقنعين :

ـ كل دا .

مضت الفتاة الصغيرة تعبث وهى تتشمم بأنفها الدقيق روائح اليود والصبغات التى أثقلت من « شوب » اليوم وحصار الأسوار الشائكة ، وعواء الجوارح أعلى القبة فوق .

فجأة توقف تومرجى العنبر مفتول الساعدين ، متخليا عن نقالته ومريضـــه بالقرب منهما ، ساحبا بيديه كمامتين ألقى بهما اليهما قائلا مهددا :

ــ البسـا ·

ومن فورها وضعت الفتاة قناعها على وجهها المكفهر ، وساعدته فى ارتداء قناعه ، واندفع كل منهما يتأمل الآخر عبر قناعه فترة فى توجس · انسحب على أثرها عامل المستشفى دافعا جريحه الى بعيد ·

ولما كان صوت المهاجر قد وصل الى درجة من الانحباس الكلى ، لذا بدا الوضع أكثر صعوبة من حيث التعبير · كيف والأمر برمته أصبح على هذا النحو الضبابى تحت صهد يوم صيفى كهذا وفى منتصف نهاره بالضبط :

ــ جوارح جرحى ·

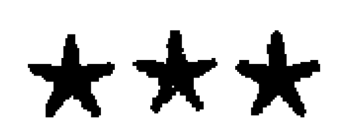
كانت الفتاة دائمة التطلع الى عينيه من أسفل الى أعلا عبر زجاج منظاره الطبى ، على اعتبار انهما الشيء الوحيد المفصح الذى لم يصل اليه القناع ، لذا حاول جاهدا شرح الوضع لها ، وهما فى طريق عودتهما الى العنبر ذاكرا ، بان الوضع فى مجمله غير طبيعى ، خاصة ما حدث منذ وصوله ، وضراوة الأخت الصغرى الضخمة ، كرد فعل طبيعى للأشياء والفراديس المفتقدة ، مضافا اليه نيران المحاور ، الحصن الجماعى · ما الذى تبقى · فها هى حكايته ، عمله وكاره لم يقاربها منذ مجيئه ولو بمجرد القراءة ، تلك التى أضناه جمعها وتحويشها سنينا ، أين هى منه ·

ورغم الكمامة التى تغيب ملامحها فيما عدا عينيها ، فقد تبدت فى عينيه تحت وهج الشمس ، وحدة صدى أصوات الجوارح كمثل الهة بحرية ضاحكة متفائلة ·

ضحك قليلا ربما للمرة الأولى منذ هروبه ، حين عرف أن ما أبهجها هو ذلك العـــالم المنقضى لحكايات : موت البجعة وكسارة جــوز الهند ، والسمساوية ، والعندليب الحكيم الذى أمسك به ذات مرة رجل مغفل · قالت :

ــ احك لى واحدة ·

ضحك المهاجر عاليا عبر قناعه ·· كمامته ·



بدا كمثل جد عظمى مفرط الطول يلاعب حفيدته ٠

لاعبها طويلا برغم الكمامتين ، حاكيا لها واحدة مضحكة :

ابن ملك تحت الأرض ، بيحب بنت ملك الأرض ٠

تحركت الفتـــاة الصغيرة بايقـــاع ابنة ملك الأرض ، مما أعاد الابتسامة الى شفتيه ، حين واصل متقوسا على نفسه حاكيا بصوته الذبيح فى أذن فتاته :

« لقى البنت ماشية في يوم ، في جنينة أبوها ، قرب منها ، البنت سحرت نفسها فرخة ٠٠ تكاكى ، تصرخ وتقول يا أولادى ٠ (توقف) ٠

وابن الملك سحر نفسه ديك وجرى وراها فى الجنينة ٠ فالبنت انقلبت رمانه ، الديك مضى يلقط حبها الأحمر ما عدا حبة رمان انقلبت حية ، طاردت الديك لحد ما مصته قتلته ٠

مضيا يضحكان طويلا ويعبثان عبر حديقة مدخل عنبرهما ٠

وحكى لها مومئا معبرا بجسده الشـاهق وأطرافه ، كمثل ممثل صولو :

ــ أسد شاخ وضعف وتمارض ورقد فى المغارة ، وكل ما يزوره حيـوان يفترسه ٠ لكن لما جاء الثعلب يزوره ويسلم عليه قال الأسـد العجوز :

ــ اتفضل ادخل يا أبا الحصين ٠

الثعلب قاله : ادخل ٠٠ بعد كل الضيوف اللى دخلت وماشفتهمش بعـد ٠

وأعجبته حكايات الضيوف الثقلاء ، فروى لها واحدة جديدة كانت تعقبها بضحكاتها الصافية ٠

ـ مرض غزال وجاء أصحابه من الوحوش يزورونه ، يأكلوا عشبه وحشيشه ، ولما صحا لم يجد شيئا ، فقال : آدى الضيوف وبلاويها ٠

وبادرته بدورها بحكاية جنوبية :

اصطاد كلب أرنبا ومضى يعضه بقوة ويعود يلحس دمه في حنان ٠ فقال له الأرنب ، تعضنى كأنك عدوى وتقبلنى كأنك حبيبى ٠

وبدلا من أن يضحك المهاجر كالعادة عقب كل مأثورة وحكاية فشر ، ابتسم ، الا أن ابتسامته توارت حين سمعها تهمس فى أذنه « حبيبى » الى حد أن عاوده الاكتئاب ٠

استدار مسرعا كشاب منفصلا عنها ٠

وحين تمالك نفسه مستديرا باتجاهها ، هاله انهــا منكسة كمن ارتكبت ذنبا : بل راحت تعبث بعينيها فيما يصل أعلى ركبتها من زهور برية ، من تلك التى لا وطن لها ، وفى معظم الأحيان تتخذ من الأرض المهجورة الصلدة منبتا لها ، لتزهو ببراعمها حمراء قانية تتخللها النقاط السوداء الفاحمة ٠

قطفت ثلاث زهرات برية رشقتها فى صدره ٠

حتى اذا ما دلفا جنبا الى جنب الى داخل العنبر ، بدا وكأنما هما يخطوان على ايقاعات مارش محبب ٠

تطلعت اليهما معظم عيون المرضى والجرحى ٠ لكن أين هم ، لقد قاموا جميعهم هاجرين سرايرهم ، يتزاورون ويتحلقون فى ممشى الطرقات الرئيســـية التى تفصـــل ما بين الأسرة ، يتبادلون اللفـــائف والبيرة والسفن آب ٠

وتعرف هو من فوره رغم الكمامات ، على آكثر من باحث زميل ٠ وفتيات العلاقات العامة الثلاث ، وشبيهة لعالية بل والعالية وأختها حين قدمتا لزيارة النزيلة المشابهة ٠

انحنى ليسمع تعليق، فتاة الجنوب التى كانت ساعتها تضغط يده :

ــ غريبة دول زينا ٠

قال فى حشرجة لم تتفهمها الفتاة :

ــ ســـــلام ٠

ومن فوره استدار محرضا :

ــ الخروج من هنا ٠ الآن ٠

وعلا تساؤل النزلاء :

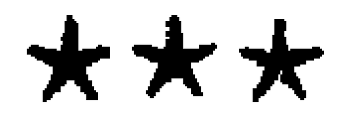
ــ احنا هنا ليه ٠

الى أن جاء العدوان الصهيونى بالجواب ، لم يبعد عنه ٠ جاء هكذا مستشريا من الباب للطاق ، وان لم يخل الأمــر طبعــا من مسببات أو تلفيقات بثها راديو العدو ، عن أمن الجليل وسلامته ٠

أى جليل ٠ الجليل الفلسطينى ، ضد من ٠٠ سكانه المطرودين ٠ اذن فلنعاود طردهم ٠

وكلما تواترت الأخبــار بالاجتياح ، هاج المرضى ، داخل العنبر ، وعنابر أخرى لا يحدها بصر ، كانت قد بصرت فتاة الجنوب بهذا المهاجر ، الذى واصل تحريضه بالخروج ٠

الى أن اندفعوا جميعهم خارجين تحت القصف بملابس المستشفى عبر شوارع بيروت المظلمة ٠



- ١٥ -

ظل ممسكا بيد الفتاة الجنوبية ، وهما يعبرون الشوارع المظلمة التى تطحنها الحرب ، آلاف القنابل العدوانية تدك المدن والجبل ، المخيمات والأحياء المكدسة بالفقراء . من لا مأوى لهم . قالت :

ـ حبـــالى .

نساء بملابس نومهن وشباشبهن ، يسحبن أطفالهن فى حرص . ورجال يحملون ما أمكن انقاذه من بيوتهم وجحورهن التى دكتها القنابل المعادية للفقراء ، أينما وجدوا .. قدموا من أمريكا واسرائيل بطائراتهم الفانتوم لقتل هؤلاء الحوامل وأطفالهن فى بيروت والجنوب والبقاع . زحموا شارع الحمراء ، وما حوله وما تفرع عنه من حارات وجادات .

افترشوا مداخل العمارات والبنايات والحدائق ، وكورنيش البحر والأوتيلات ، وأسطح البيوت ، والمدارس والمواخير .

بينما تبدت الطائرات المغيرة ، كما لو كانت تتعقبهم أينما رحلوا بصبيانهم وهلعهم المتبدى لتدكهم دكا :

ـ من لا وطن لهم .

المدينة كانت تشتعل بالنيران والشظايا والحرائق . والأنباء تحمل قصف الصهاينة للجمال فى لبنان خلدة والشويفات والدامور وعرمون وعاليه :

ـ الفقر والجمال .

ابتسمت له وهى ترفع رأسها عاليا ، وسط الظلام المطبق ، الا أنه واصل طريقه بصعوبة دون أن يتخلى عن العودة الى منطلقه ذلك الذى قدم به من القاهرة لتغرقه أحداث بيروت على هذا النحو . قال :

ـ الأمر لا يبعد كثيرا • ذات ما جئت به • الطفح ، أجل • باكابورتات العصور القديمة التي كانت • وهنا على ذات أرض هذا المكان • الأسوار القديمة ، ملايين الأسرى فى حجلاتهم ، والقتلى هم ملح الأرض التى على ترابها وصخور جبالها سقطوا •

استوقفته حين ضغطت يده الممسكة بيدها الصغيرة الهشة ، المخيمات التى انتصبت فى زوايا الميادين والجراجات من فورها النيران المتوهجة ، الناس وهى تركض طوابير اثر طوابير ، طوفان النيران المتوهجة التى تشعل السماء :

ـ ماذا حـدث •

اخترقت الطائرات الأجنبيـة حواجز الصوت من فوق رأسيهما ، حتى انها ارتمت بالجدار محتمية :

ـ ماذا حـدث •

ـ أشعر بدوار •

لحظتها كان دمها قد أسيل من عند مفترق شعرها العسجدى ، دون أن يبدو على وجهها الطفولى الباهت ، أثر الألم • ظلت ترقبه وهو مقرفص بجوار جدار محاولا ، التقاط قطرات الدم بمنديل ورقى ، مبتسمة :

ـ الى هذا الحد •

قالت دون أن يلتقط الكثير مما لفظت به فى عصبية :

ـ أجل • القلب تحمل الكثير • مثلك ••

وحين أعجبه قدرتها على التحمل ، طالبها من فوره التماسك لحين وصولهما الى البيت ، رغم تيقنه من صعوبة مثل هذا الأمر •

ذلك أن الشوارع كانت قد بدأت تغلى بالحركة والمسلحين ودوى القصف المتبادل ما بين الأرض والسماء الملبدة بالغيوم والنيران •

ـ لماذا على هذا النحو يرمون بلاءهم على كاهل مدينة عتيقة مثقلة بالحرب الأهلية التى مزقتها بالمدى والسكاكين على هذا النحو • العدوان ضارب الحصار والأظافر ، عبر كل منافذها الستة ، حتى البحر •

ومن كل مكان تطل تلك النجمة النارية الطوطم :

ــ نجمـــة داود ٠

أشارت الى حيث كان يجـرى الانزال ، لتتلقفه سناكى المقاتلين الفلسطينيين الفقراء ، على مشارف بيروت ٠

المقاتل الشيوعى والفلسطينى فى الدامور وصيدا البطلة منذ الأزل وقلعة الشقيف ، وخلده ٠

الأشبال على المحـاور يتصــدون للفاشيست المعضوضين على طول تاريخهم ٠

مضت ــ دائخة ــ وهى تتطلع اليهم ، شبان فى ذات سنها ولكننها الجنوبية ، التى جاهد المهاجر طويلا فى استيضاحها منها ، حين اندفعت قائلة ، كمن تعارك ذاتها بذاتها ، منفعلة :

ــ أجل على هذا النحو ، منذ أن ولدت فى احدى قرى صور نفس الشيء ، القصف الاسرائيلى بسبب وبدونه ، وحتى عندما أمضيت طفولتى الأولى بالقنيطرة بسوريا ٠ نفس العـدوان وحرق الدور ورحيق حيـاة القرى ، وها أنا فى بيروت المحاصرة بالعدوان ٠ الى أين ٠

مال عليهـــا بجـذعه الطويل مطمئنا ، وهو يدغدغ آخر أطراف أصابعها ، بأطراف أصابعه هو ، وداخله خوف خفى من افتقادها ، تراه فارق السن ، أم الموروثات ٠ أم التبصر :

ــ لعل ما يجمعنا هو افتقاده ٠

تساءلت :

ــ شـــو ٠

قــال :

كان يشدها شدا الى حد التوقف عن السير ، وجوه أطفال المجرين المعدمين على صدور أمهاتهم ، حيث افترشن الطوارات ومداخل البنايات والسينمات التى ما زالت تعلوها أوضاع « رومى شنيدر » تزحف على بطنها عارية ، بيدها سكين مشهر :

ــ على بطنها تزحف ، وترابا تأكل وتقتات ٠

وحين صعدا سلالم البناية ذات الطرز البيزنطى حيث يقيم ، أضاءا شمعة لاستكشاف الطريق ٠

على جانبى السلالم وطرقات البناية ذاتها ، تتراص وفود المهجرين ومن دكت منازلهم الآمنة ، تحت قنابل الصهاينة ، أعـداء كل الفقراء وجمال عرمون وعالية والشويفات وخلده ٠

وحين أشعلا الشموع عبر المكان ، وصبت هى الشاى ، واصلت حديثها المحتدم العصبى :

ـ والديها المهاجرين ٠ والبيت الذى كلما ذقنا الأمرين فى بنائه أعادوا هدمه بالقنابل وراجمات الصواريخ الضالة ٠ مدرستها على طريق مطار بيروت ، التى احترقت مرتين ، وأتوبيس المدرسة الذى دمر بأطفاله، ونجت هى والسائق صدفة ٠

قـال :

ـ أجل ٠ صدفة ٠

أعاد القول لنفسه وهما يعبران ميدانا يغص بالجنود ، والمارة عن آخرهم يعلو الاكفهرار الأميل الى الحزن العميق جباههم المحتدمة العالية :

ـ صدفة ٠ انها الشيء الوحيد الغائب عما يحدث على أرض هـذا الوطن الصغير المعذب ـ لبنان ـ أين هى فيما يحدث ؟ ان الأمر أميل الى المعادلات الرياضية الجافة الى حد الأرقام وثقلها ليس غير ، ومنذ الأزل ٠ صحيح أن الأمر لا يعنينى بدرجة كافية ، سوى من حيث الحكايات ٠ كيف أنى مجرد جامع لها من أفواه عجائز القرى المعدمة ، المتلاشية قسرا وبالضرورة ، مثلما يحدث الآن على أبواب وهامات المدن والدول القديمة : صور صيدا بيروت أمام العدوان الصهيونى ، فما بالنا بالقرى والنجوع ٠

وعلى هذا فالأمر متتابع الحلقات منذ الأزل ، هكذا تقول وتصر على القول حكايات القرى وتخاريفها الليلية ٠

ذلك الاجتياح العدوانى الضارى الذى يتصدره الطوطم السلف :
ـ النجمة المسدسة ٠

أشارت اليها من فورها بيدها القصيرة ، حمراء متوهجه فى الأفق البعيد تبدت من بين شقوق العمارات وفراغاتها ، كمن تسقط من السماء ٠

وحين احتواهما الفراش ، بدى الأم رأكثر صعوبة ، ذلك أنها راحت تشكو وتشكو ، رافعة ذراعها عاليا ٠

أما يده هو ساعتها فكانت دائمة العبث فى الموسى المسنقر تحت مخدته ٠ دون معنى ٠ قال مبعدا وجهه عنها :

كان من الواجب أن أكون أكثر دقة ٠ احكاما ٠ أن أبعده ، حتى لا يؤذيها الأمر ٠

راح يتأمل وجهها الشاحب وعينيها الخرزيين ، وهى تتخفف من أثقالها ، المطاردة عبر المدن المحاصرة ، حيث لا مهرب سوى الاختباء :

ــ الى أين ٠

قالت :

ــ هنـــا ٠

قام بجذعه الأعلى عن فراشه ، ومضى يتأمل وجهها العصبى الحاد طويلا ، زاما فمه فى حنق من سدت عليه جميع المنافذ ٠

عاودته نقطة بدئه ، حين حــزم حقيبته ذات نهار بعد أن ضمنها كتبه وحكاياته ، حاسما الأمر مقررا استيطان هذه المدينة المهترئة بالحرب الأهلية والتصفيات ، معاودا البحث فى مخلفاتها ، ويمكن القول نفاياتها بحثا عن منفذ ، أو مكمن داء عضال يفت فى جسدها المريض القابل على الدوام للتلوث ٠

هذا على الرغم من تيقن المهاجر بان الأمر فيها سيكون أحسن حالا وأقل حصارا من مثيلاتها العربيات فى الحجاز ونجد وصنعاء وقرطاج وعمان والقـــاهرة ٠

ذلك ان داءات مثل هذه المدن وأمراضها المستعصية ، لها أيضـــا مستوياتها الأقرب الى الخطر واستفحاله ٠

ها هو أخيرا على أرض ما كان يظنه فردوسا هلينيا فينقيا ، لمجتمع ثقافى مستنير ، يؤوى الغريب قبل القريب ويحميه ٠

هنا فى هذا الوطن الجبلى الوعر ، المزين بخيرات الأرض وعطائها الموسمى المزدهر ٠

أجل على أرض اللورد النبيل الذى كان جميلا فعشقته النساء ، أدونيس ـ أدون ٠

وعاودته حكاياته ـ كاره ـ تلك الممددة أكوامها على طاولة الطعام لم يلمسها منذ نزوحه مهاجرا ، وما حدث على تلال عمان ، حين عاودته النوبة ، التى عادة ما يفجرها الحصار ، ويمكن القول لا متناهية الحصارات التى اعترضته ، بدءا بالرقباء وأجهزة القمع فى القاهرة ، وبالغيبيين والسماويين والجهلاء ، لحين مجىء الأكاديميين :

ـ الرئيس ونائبته البدينة التى تقتات بالتهام التساؤل ٠ لماذا ٠ ضحكت فتاة الجنوب فى سذاجة طفلة ؟

ـ تذكرت النايبه ٠

عاوده تزمته ، ويمكن القول ذلك التعبير المتندم المتبدى على الدوام فى عينيه تحت منظاره ، فمه ، أنفه المستطيل ، هزات رأسه :

ـ ماذا جرى ؟

الدوى يكاد أن يقلب تلك البناية الخرسانية العملاقة كمثل حصن ، تنقصه أحصنته وخيوله الغازية ٠

ـ ما زالوا يدكون مخيمات الفقراء ٠

غمغمت :

ـ عاليه ٠٠ عرمون ٠

تذكرت ما تبقى من أصدقائها الأحيـــاء ، منذ نزحت مهاجرة مع أسرتها من احـدى قرى صـور ، مطاردين بالقذف الاسرائيلى وسـقوط

البنايات القديمة التى أحبتها على رءوس من فيها من أمهات وبنات فى سنها وأطفال ٠

تذكرت صديقتها الدرزية المتشاحنة دوما مع كل من يحاوطها ، وأختيها وخالتها السريانية :

ـ راحـــوا ٠

توالى القذف الى حد تطاير شظايا زجاج الشقة ، مخترقا جسدها نصف العارى ، تحت ملاءة السرير التى غطتها على الفور بقع الدم ٠

ـ آه ٠

وفى هذه المرة لم يسأل أحد فى جرحهما الدامى ٠



- ١٦ -

بدا المهاجر وفتاة الجنوب تحت ضماداتها ، الصمت ، كما لو كانا ينصتان عن آخرهما الى دوى الطائرات الأمريكية المعربدة دون رادع ·· حياء فى سماء بيروت المقاتلة ·

ــ مرضى ·· صهاينة ·

جاءت الممرضة بوجهها المستكين المتجهم الذى ذكره بوجه العالية ، وراحت من فورها ترفع أربطة الفتاة من حول صـــدرها الكبير المغطى بالدماء · مضت تدلكها محاولة تخليص لفات القماش الطبى المتجلطة بالدم الأحمر النازف المتجمد ، فيما حول تكورات نهديها النافرين :

ــ آى ·

هاله جمال صدرها ، حين هب برأسه عن وسادته ، ومضى يرقبهما فى فضول لا يخلو من شره :

ــ فاشست ·

وحين أحست الممرضة المتجهمة طويلة الوجه ، بما يعتمل فى أعماقه، طمأنته :

ــ اصابة سطحية ·

ذكره الدم المتجلط فيما حول صدر الفتاة الرحب ، بذلك الشعار الدموى السالف ، لأرجوان فينيقيا الذى تغنت به الالياذة الهومرية ·

عاود الاسترخاء بملامسة رأسه لوسادته ، متحسسا ما تحتها بيده اليسرى :

ــ المـــوسى ·

من جديد تلاقت عيونهما الغائرة فى ثقب الضمادات البيضاء :

ـ بسيطة ٠

هزت له رأسها مبتسمة لحظة انسحاب الممرضة المتجهمة ، التى سحبت شنطتها خارجة ، مغلقة الباب عليهما فى عنف صاخب ٠

من جديد عاودهما الصمت الذى لم يكن يقطعه سوى دوى القنابل التى تطحن أحياء الفقراء والمهجرين ، فى صبرا وبرج البراجنة وشاتيلا وما حول الجامعة العربية ، ويسمع صداها المدوى عبر الليل والاظلام فى شوارع الحمراء ٠

ـ آى ٠

كان قد أغفى قليلا ، الا أنه سرعان ما وضع منظاره على عينيه ، مستديرا برأسه صوب الفتاة :

ـ ماذا ؟

أشارت بيدها الى صدرها :

ـ دم ٠

هب من فوره حافيا ، الى أن قارب فراشها منحنيا ، بينما اندفعت هى متألمة ، وعلى جبهتها تقاطعت خيوط العرق النازف ٠

حاول تدثتها ، مطالبا اياها بالاستسلام للاسترخاء للنوم ، الا أنها بدت أكثر عصبية ٠

ـ نـــار ٠

أشـــارت الى حيث الأربطة ، وحاول هو ملامســـة صدرها ، حيث امتلأت خياشيمه بروائحهما الجنسية التى يعرفها ، يخالطها روائح اليود وصبغاته ٠

ـ نـــار ٠

لم يعرف كيف يتصرف بازاء الفتاة التى تبدت آلامها فى انفعالات وجهها وذراعيها وهى تنشج ألما :

ــ نسار ٠

هو يعرف عن الفتاة مدى تحملها ٠٠ جلدها ، ابتسامتها الضنينة الشاحبة المبددة لكل ألم وتهافت :

ــ ماذا جرى ؟

أتكون الممرضة تلك المتجهمة ، غامضة النظرات قد تعمدت أو هى أخطأت ٠ دفن عينيه أكثر فيما بين تكورات نهدى الفتاة الجنوبية ، التى من فورها أحاطته بذراعيها مشددة حصارها حول عنقه ومطلع رأسه جاذبة ، كمن تنشد ومضة حماية ٠

حاول هو مرات أن يخفى عينيه مغمضا عن صدرها المتفجر بالدم ، الذى مضت قطراته تأخذ لها مجرى ، لتعاود الضمادات القطنيــة رشفها وامتصاصها ٠

ولما لم يجد له منفذا والفتاة متألمة تغرز أظافرها ــ المقصوصة ــ فى عنقه وقفاه دون وعى ، مد يده فى حذر وراح يمررها محاولا الامساك بطرف الضمادات التى كانت قد تلاصقت حلقاتها من حول الصدر الطافح بفعل الدم النازف المتجلط ٠

ــ أوه ٠٠ أوه ٠

وجــد منفذه حين قارب أكثر صدر الفتاة مستعينا بطرف لسانه ويديه الاثنتين فى حذر ، كمن يذيب بلعابه دم صديقته الحنونة ، التى مضت من فورها تواصل شهقاتها وتعلقها أكثر بعنقه ٠

ــ بشويش ٠

وحين نجح فى حل ضمادات البز الأيسر ، واصل من فوره لعق الدم وما خالطه من أصباغ تلك الممرضة المتجهمة ٠

تذكر صفعها المفاجىء بعنف جلى لباب الشقة الخارجى وتذكر انها لم تبادلهما التحية ، ولم تنطق بشىء ٠

دوى القصف الشديد للعدوان والحصار ، والسماء الصماء النحاسية تبرق عبر زجاج الشرفات بوهج نيران المقاومة التى غطت كل سماء بيروت ٠

هنا احتضن الفتاة بأقصى عنف ، بينما يده اليسرى ترفع عن صدرها الثانى ضماداتها دفعة واحدة ، صرخت لها الفتاة من أعماقها ، مشيرة بأقصى توجسها الى البنايات المقابلة عبر الجدار الزجاجى التى لحقتها نيران العدوان فسقطت متهاوية بأطفالها ونسائها وعجائزها يطلبن الرحمة بأيديهن المتضرعة طلبا للنجدة ٠ الغوث ، وما من مجيب ، سوى اندلاع النيران المتصاعدة التى برقت ألسنتها مقتربة أكثر ، ذلك انهما أحسا وهجها الى حد احتراق جلديهما حتى ان ألم الفتاة وصدرها النازف لم يعد ، على عادة ما نعرفه عن الألم ودرجاته ، باسقاط أعلاه الحارق ، لأدناه الدامى ٠

ـ النــــار ٠

احتضنها مبتعدا الى الحافة المقـابلة للفراش ، عن ألسنة النيران المندلعة المحاصرة ٠ ودوت الطائرات العدوانية المغيرة ، التى لم تكف والتى تواصل حصارها من لا وطن لهم زاحفة على كل فراش ومنفذ ٠

أوقعها بأقصى رفق على الفراش ليفترشها ـ موكيت ـ الغرفة ، بينما ألسنة النيران تواصل زحفها الى حد الحصار داخل الغرفة ٠

ـ الدوى لا يتوقف ٠ والارتجاج يصل جدران البناء ـ الحصنى ـ ذاته وحيث يقيم ، الى حــــد الاحساس الجاثم بجلطة أو هى ومضـــة لتوقف ٠٠ الموت ٠

ـ نهــــرب ٠

اجتذبها من يدها وهاله مدى استردادها لحيويتها توازنها الى حد اختطافها لروبهــا المنزلى ، وشبشبها ولفائفها وكيس نقودها ومفتــاح الشقة ، واندفعا جاريين وهما يحتميــان بالجدران هنا وهناك ، الى أن تداخلا بصعوبة بأناس على شاكلتهما هربا الى حيث جراج البنـاية أو مخبئها عبر السلم الحلزونى الرصاصى الواسع ، وفود اثر وفود ، لا ينقطع لها هبوط وتدافع ٠

عرف المهــاجر البعض منهم ، من سـكارى وموسسـات مصريات وحبشيات وفتيات بنية اللون قصــــار القامات من سنغافورة والفلبين

وسريلانكا . والتقى فيما التقى من وجوه ، تكدست فى رعب داخل كراج البناية ، بالعالية وأختها .

ــ مـــرحب .

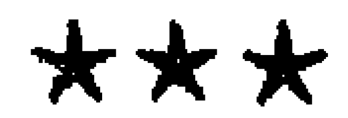
وقبل أن يجيب ، داهمه انحباس صوته ، كما داهم الجمع الحاشد دوى القنابل المهاجمة واتساع رقعة النيران الزاحفة ووهجها اللاسع ، تلك التى ضاعف من وهجها بل ولحاقها وامساكها بأطراف الملابس التى لحقت بكم ردائه المنزلى ، وعرف من فوره انها من نوع النابالم ، حين تقدم منه ســمكرى لبنــانى مهاجما ، فخلع كم الجلباب منتزعا من عند الكتف ، محذرا الجميع الذين لحقتهم ذات النيران والشظايا .

ــ نابالم .

لم يعد يحس بوجوده ، ولا بالفتاة المريضة ، محركا جذعه المستطيل تبعا لاندفاع حركة الناس وهم يتكومون فى آخـــر الجدران ، يدفعون بحائطه الخرسانى الى أن أسقطوه مواصلين فرارهم عبر منفذ الأحراش الصخرية المواجهة المطلة على البحر ، هنا تراجعت الوفود الفارة بفوهات المدافع المتربصة على طول الشاطىء تصب لهبها .

ــ أين ؟

حاول التراجع متعثرا ، باحثـــا هنا وهناك عن الفتــاة الجريحة الجنوبية صديقته ، دون جدوى .



تحت القصف المتـوالى عبر كل المحاور واصـل المهاجر بحثه عن صديقته الجنوبية ·

بدأ أولا بزيارة أصـدقائهما والجيران ، ومسكنها بالمزرعة الذى افتحمه مهجرون جدد دون طائل ·

وفى كل مرة كان يعاود بحثـه فى الحمراء وحيث كان يقيم ، فيما مشيا فيه معا من شوارع وأزقة ، حتى البناية التى كان يقيم فيها · كانت البناية القديمة العملاقة تموج بسكان وغرباء مثله ، ما بين مقاتلين وموسات مصريات وشراكسة وامرأة بلجيكية فى منتصف العمر محاطة بكلابها وأسر بكاملها تعتلى صور الامـام الصـدر وجنبلاط مساكنهم وموارنة ·

وزاد ذلك الاختلاط وفاض ، حين قدمت جمـوع المهجرين الذين دكت الطائرات أو البارجات بيوتهم ومخيماتهم ، وبخاصة تلك الدبابة التى تفنن الاسرائيليون فى تجميع سرقتها من أسلحة فتك ودمار غريبة أخرى من هنا وهناك · ـ الميركفا ـ والتى من فورهم أعلنوا عن بيعها وتسويقها معددين قدرتها الخارقة على سفك دم الفقراء واهداره · أولئك المطاردين الذين لا وطن ولا ثمن لهم ، من صبرا وبرج البراجنة والكولا ومنطقة الجامعة العربية والبريد وشاتيلا ·

كانوا فى تجمعاتهم يواصـلون زحفهم من موطن أو مسكن لآخر أكثر أمنا ، ما بين أحيائهم الشعبية ، والجبل وقرى الجنوب والشمال ، لا شىء يشكل هيئاتهم وملامحهم سوى الفزع والفرار هربا من الجلد ، بل خروجا منه ان أمكن ·

كانت الناس تحت الحصار ، قد بدأت تعرف بعضها البعض ، سواء وهى تتبـادل النظـرات المستطلعة عبر الشرفات والبلكونات ونواصى

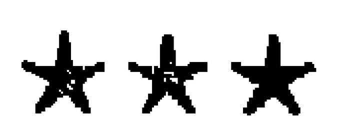
الشوارع وشواطىء البحر ، والمقـــاهي ، والمخابىء وجراجات السيارت وكمبونات السلالم وأسطح البنايات والجناين والحدائق العامة ٠

كان المحاصر منهم يتطلع الى جاره أو جارته ، وجه أسمر فينيقى أو أوربى وبخاصة فلسطينى ، يبرز له مرة مطلا غارقا فى أوهامه ومخاوفه، من فجوة شقة أو عبر ستائر أو شباك أو كرسى هزاز ٠

بينما الطلقات وراجمات الصواريخ تدوى ، ويبرق ضوؤها المعدنى المذهب ساطعا على السحب منطبعا على الطبيعة ذاتها التى تغيرت سحنتها وفضاؤها اللاندسكيبى ، فأصبحت فى بعض الليالى شديدة القيظ ، أميل الى البرودة وخلخلات صقيع بيروت الشتوى ٠
حتى اذا ما أعقب صمت الليل الدامس الخالى من كل نور وكهرباء ، الدوى ٠ تبدت المدينة عبر صمتها وجراحها النازفة ٠ أشبه بجسد عملاق لمريض أو جريح مفتوح البطن ، ممتثل لعملية جراحية اسرائيلية النهج ٠

وعلقت بضع سحنات بذهن المهاجر ، منها ذلك الكهل الفلسطينى ، وابنته العايقة التى قتل زوجها منذ اليوم السادس فى الدامور ، والذى استوطن احـدى شقق البناية المواجهة ٠ ويبدو فى كل غروب محملقـا كمشدوه فى اللاشىء ، ولا شىء أو بادرة حركة تصدر عنه سوى ضرب أخماس فى أسداس بأصابعه العشر ، كمن افتقد كل شىء ٠ لابد أنه فلسطينى ٠

المطاردات لا تنقطع ، والمدينة تبدو من كل زواياها ومنافذها كمثل سجن ان لم يكن حصـنا كبيرا مسـورا بآلات حـرب الغزاة الخواجات الفاشيست ٠



- ١٨ -

ظل المهاجر موقنا من أنه سيصل يوما الى غايته ومرفئه الآمن ، برغم أن كل ما حوله كان يشى بعكس ذلك ، فالعــدوان يستشرى عبر اللحظة وما يعقبها ، ولا شىء يمكن أن يوقفه ، يعيده الى صوابه ، لا العالم ولا شعوبه ولا نقاباته ولا رأيه العام أصبح فى مقدوره •

الجميع أخفقوا الى حد الفشل • وضعوا أصابعهم فى الشق • كل شقوق هذا العالم الذى نعيشه ، ومنها بالطبع الشقوق البشرية ، اللحم الطازج الأبيض والأسمر والنحاسى البشرى •

لابد أن هذا ما يحدث •

وضع الأصابع فى الشقوق خلفـــا وأماما ، عبر كل التكورات ثم الغشيان • التآمر •

قـــال :

– لعل الأمر لم يعد بنا هنا تحت القصف والحصار عن «فابيولات» الرءوس والرمال••

الاستخباء • الدقن •

وها هم النـــاس من حــوله أينما حــل يتحركون عبر الشـــوارع والساحات وشواطىء البحر ، بلا طائل • لا مفر •

ماذا يحـــــدث ؟

تذكر حــديث سيدة شابة ، كانت تنتصب فى وجهه المنكس حين زارهم ليلا خلسة محاطة بأسلحتها من مسدسات وخناجر ورشاشات ، بانتظار لحظة وصول ميليشياتهم والتمشيط •

ـ ها هو السلاح مكانه ، لن أحركه . وان حدث ليكن حيث ينبغى أن يكون فى وجوههم المعدنية ..

صرخت فى وجهه :

ـ الفاشست .. اللمامة .

وحين حاول ايضاح الأمر ، وبأنه لا يبغى شيئا سوى الراحة ، لحظة اطمئنان . عاودت الصراخ .

ـ هذه المدينة ، كانت يوما تصخب وتشتعل نيرانها ومظاهراتها لأى حدث عربى وغير عربى تافه فى العالم ، تتضامن وتعبر عن فرحتها ، مساندتها ، شجبها بالسلاح .

هدأت قليلا وهى تكمل فى مرارة :

ـ أين نحن الآن . القصف والدماء ليل نهار ، ولا من يسمع .. العرب . العالم ؟

بصقت :

ـ مؤامرة .

ـ مؤامرة .

هز رأسه خجلا متحسرا :

ـ صحيح أين العـــالم ؟ ما خارج الحصار . النـــاس فى طرقات المدن . العواصم .

لا شىء سوى القصف الذى التهب من جديد ، وجاء هذه المرة عبر البخنـــر ..

سمعت عبر السلم الحلزونى ، دقات أرجـل لبنات ثلاث نازلات مسرعات ، عرف فيما بعد أنهن بناتها ، حين اندفعن داخلات وهن يلعن خبر وصول المليشيات الغازية للتفتيش :

ـ ماما ماما وصلوا .

ولدهشته حين رأى الأم الشابة ثابتة فى وضعها فلم يرمش لها جفن ، حتى انه حاول الاقتراب أكثر منها لاستطلاع سبب ثباتها المريب ذاك ، الذى لم يقطعه سوى محاولة كبرى الشقيقات الاقتراب من الأسلحة، عندئذ انتفضت الأم واقفة بجذعها النحيل شاهرة ذراعها مانعة ابنتها من لمس السلاح :

ـ حذار ـ ربما حذار • كل شيء مكانه واتجهت ناحية باب مدخل الشقة ـ البدروم ـ وفتحته على مصراعيه :

ـ تعـالوا •

حين ازدادت ربكته ، تفجر منه العرق مدرارا •

كبت فى نفسه رغبة قوية فى الانسحاب ، العودة من حيث أتى :

ـ الى أين ؟

ربط بين البنات من جانب ، والأم فى غلها من جانب مقابل ، وتقدم منها محاولا من جديد اقناعها بتمشية الحال والتصرف على عادة ما اتبعه الناس فى بيروت ، منذ الرحيل الدامى للمقاتلين وخلو الجو لهم ليبيضوا ويصفروا بعد أن اقتحموا المدينة ، عقب رحيل حراسها ومقاتليها وفى أعقابهم فلول القوات المتعددة الجنسيات • فالكل هنا أسلم سلاحه أو أخفاه ، أو حتى مجرد التخلص منه بابعاده فى الزبالة ، التى شكلت بدورها حصارا عما يشكله الغزاة المدججون بأقذر الأسلحة وأحدثها ، بدءا بالنيران مرورا بالنيترون والفسفور ، وانتهاء بالجراثيم والطواعين •

أصبحت الزبالة بدورها تشكل حصارا ، آكواما فى الخرائب والساحات ومفارق الطرق ومداخل البنايات وحتى الحدائق العامة لم تسلم منها •

ظلت عبر أيام الحصار تنمو وتتراكم ، خاصة بعد أن أعلن الغزاة عبر مكبرات الصوت والراديو والمنشورات التى كانت تلقى بها الطائرات من فوق الرءوس ، بالاستسلام والقاء السلاح •

وبازاء الوضع والتهديد المتواصل ، أخرجت المدينة عبواتها من سلاح ومتفجرات وبارود ، ملقية به فى الزبالة والنفايات •

حتى اذا ما لامستها النيران ٠٠ بقايا سيكارة اشتعلت من فورها وتفجرت من هنا ومن هناك ٠

وبذا لم يوقف تفاقم الأمر ، سوى تحذيرات المسئولين عبر الراديو والتليفزيون ٠

ــ ابعدوا النيران عن الزبالة ٠

سمعت قرقعات أقدامهم وأسلحتهم الهمجيـــة عالية ، وهم ينزلون سلم البدروم الحلزونى المفضى الى حيث الشقة ٠ وحين اندفعوا داخلين ثبت الجميع فى أماكنهم كمثل دمى ، الأم ومن حولها بناتها الثلاث ٠

وامرأتان من الجيران ، كانتا تلعبان الورق وهما تدخنان وتحتسيان رشفات القهوة الباردة ، تحت وهج شمعدان نحى فى ركن الجدار ٠

وحين دخلوا لم يتعرف سحنتهم أحد ذلك انهم صوبوا من فورهم بطارياتهم وأسلحتهم ، حتى أن المهاجر تخاذل جالسا قليلا على أقرب كنبة ، ثم هب من فوره منتصبا ، دون تيقن ارادى من تصرفه العفوى على هذا النحو ٠ كان مشهدهم مدججين بالظلام ، بشعورهم الطويلة المرسلة وتسلطهم وأسلحتهم من مدافع وخناجر وقنابل ٠

كفت المرأتان عن اللعب ، ومن فورهما هبتا واقفتين متداخلتين فى تساند ٠

تبادل جميع الموجودين فردا فردا النظرات المريبة الى حد الكراهية ، انحباس التنفس ذاته ٠٠ الجنود الدخلاء ذوو العيون الزرقاء والخضراء بخوذاتهم وتجهمهم وقنابلهم المتفجرة من حول أجسادهم ٠

والناس داخل بيوتهم ٠ البنات الثلاث ، المرأتان الى بعيد ، المهاجر الضيف فى انزوائه يده على جيب بنطلونه لحظة استعداد لاخراج هويته ، حيث تجمدت يده مما الفت نظر أحـــد الجنود الذى أرابه الأمر فاندفع مسلطا ضوء بطاريته على عينيه ٠ هنا أخرج الهوية والأوراق مقدما ٠

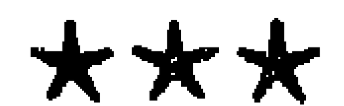
الأم فى حنقها الدفين ، تتـــأملهم بأقصى شراسة يمكن لعينين أن تفصحا عنها هذه السيدة الرقيقة ذات التقاطيع السمحة والتى كثيرا ما آكل

من يديهـا الحانيتين ، وهى تناقشـه فى كل شىء حتى حكايات القـرى والضياع ولغوها ، الياس أبو شبكة وبودلير والتكافؤ مع الشر ٠

أية شرور يا لبنـان ٠

هكذا تضرعت السيدة ، فى لحظة محاولة أحد الجنود لاقتحامها ، استفزازها الى حد محاولة تمرير فوهة بندقيته المشرعة المصوبة الى جيدها النافر كمثل حمامة أيك ، ثم النزول بها الى نهديها وما بينهما فى بطء ، مرورا بخصرها وما بين فخذيها ٠

هنا اختطفت الأم من فورها طبنجة أفرغتها فى جسده ، فى ذات اللحظة صوبت عليها المدافع الرشاشة ، لتحيلها الى كومة لحم محترقة أمام بناتها الثلاث ٠



- ١٩ -

كلت قدما المهاجر العجوز تحت القصف المتوالى بحثا عن فتاته الجنوبية التى افتقدها داخل الخندق ، وصدرها النازف بالدم مدرارا • زار جميع مستشفيات بيروت بدءا من شاتيلا والبربير ، وانتهاء بمستشفيات الهلال والصليب الأحمرين والجامعة الأمريكية •

ظل أياما اثر أيام يطوف العنابر ، ويتداخل فى الجرحى المنكوبين سائلا •

المدينة جميعها تدميها الجروح النازفة ، ممن قطعت أيديهم وسيقانهم ، وخزقت عيونهم وغابت عنهم ملامحهم ، يتحركون على عجلاتهم وعكاكيزهم ، وأذرع التومرجية وذويهم والسيسترات والجدران •

القصف لا يتوانى ، حتى المستشفيات ولحم الجرحى النازف لم يسلم ، وسيارات الاسعاف بأجراسها واضاءاتها تمر عبر الشوارع المظلمة دون انقطاع •

كم يا ترى يصل حجم الجروح والاصابات ، لو أنها تراكمت فى كفة ميزان ـ قبان ـ دون سبب واضح • تعالت ضحكات استلفتت أبصار الجميع وسمعهم • ماذا حدث • منذ مدة طويلة لم تطرق أذنه ضحكة ، قهقهة على هذا النحو • رغم الابتسامات الودودة التى تعلو وجوه الجميع• حتى الجرحى والمشوهين ، لم يغب عنهم حبورهم ، وهم فى ضماداتهم ، معلقين على فراشهم موثوقين من أرجلهم وكعوبهم ، كمثل ذبائح •

كانوا يتلقون الزهور ، وعلب الشيكولا مبتسمين وهم موثوقون يئنون فى صمت لا يسمع •• المقاتلون •• تراها أين ذهبت ؟

فى مستشفى غزة ، مضى يرقبهم داخل عنابرهم ، شبان وشابات طريحون ، يتسامرون فى وداعة ، تحت القصف والمطاردة •

الشـــهداء ٠

لعلهم الحقيقة الوحيدة فيما يحدث ٠

فالجميع كانوا قد هاجروا فرارا ، وظلت المدينة تواصـــل طردها السكاني في اتجاه الضمور والفناء وغياب الحركة بالاضافة الى الحرمان من الماء والضوء والدواء ٠

الليل موحش ، والعمليات لا تنتهى ٠

ويبدو الأمر كمثل

ذلك الملازم دوما للطرد ٠

فلول التاكسيات والشاحنات لا يتوقف لها هدير محملة بالمهاجرين وأشلاء بيوتهم التى كانت ٠

وعادة ما تقع مثل هذه الرحلات من بيروت الى الجبل أو شمالا ، مع الفجر ، بسبب الفزع ولا شيء سواه ٠ يا لها من لحظة أليمة ، تلك المصاحبة للغياب وهذه البيوت وصور الجدران وذكرياتها ٠

صحيح أنه لم يعانها كما يحدث للآخرين ٠

فهو حتى لم يأخذ حقيبة يد لمسافر أو مهاجر ؟ ٠ لم يأخذ من شقته حتى ملابسه الداخلية ٠ ترك كل شيء كمـــا هو عقب تهدم بعض أجزاء البناية التى فيها يقيم ، وعنها نزح معظم سكانها ٠

قال : الأمـــر لا يســتحق ٠

عرج من فوره على رسام فلسطينى ، لم يخرج موضوعاته أبدا ، عن ذات الموقف ٠٠٠ الخروج ٠ أناس منكمشــون عبر فرغات اللوحة ذات البعدين ، يتحركون تحت أحمالهم وأزيائهم الفلسطينية ، وحطاتهم شبه مطاردين وكما لو كانوا يبغون الافلات من أسر اللوحة ذاتها ذات البعـــدين ٠

جمال وماعز ملون ، وفي أقصى اللاند السكيب ، تتبدى أشلاء لمدن وقرى متفجرة ، نهبا للحرائق ونيران الكبريت والكوبالت ٠

كان له لحية كثيفة يغلب فيها بياضها على سوادها ، تلمع عيناه شرها لكل ما يمت الى الحياة والأحياء ، رغم رسوماته ذات الدلالة المحددة، للهجرة والرحيل وخراب البيوت ٠٠ الخروج من أسر الجلد ٠

ما أن فتح له شق باب مسكنه الحديدى متهللا ، حتى اندفع من فوره داخلا عابرا لوحات الهجرة والترحال التى ملأت صالة البيت وفاضت الى الحديقة ٠

وحين تأمل المنظر ، تذكر من فوره حديقة الليمون قصيرة الشجر الملحقة بعنبر صحة المعتقل ، فيما قبل العدوان ، والذى لم يخرجه منها متأبطا ذراع فتاته ، سواه ٠٠٠ العدوان ٠

جلسـا من فورهما يحتسيان البـيرة الساخنة متواجهين فى شبه الحديقة الفقيرة العارية ٠ ولم يخرج حديثهما بأبعد مما يحدث ٠

الـدم والنـار ٠

تمادى المضيف كثيرا دفاعا عن موضوعه الذى يشغله سنين طويلة منذ تفرغه بمرسم الأقصر منذ الستينات قائلا وهو يمشط لحيته بأظافره فى هدوء ، لا اتساق بينه وبين ما يحدث من وهج النيران والدوى ، ذاكرا بأنها القوة الدافعة للتاريخ ، ومنذ الأساطير الهلينية المبكرة ، يتبدى الأمر جليا فى حالة بروميثيوس وعقابه ، ذلك المقتحم مغتصب النار ، التى بها يصبح بنو البشر أندادا للآلهة ، كما ذكر كبير الآلهة زيوس ٠ الا أن بروميثيوس ــ بعيد النظر ــ كان على وعى تام بعقابه المتمثل فى نخر النسر لقلبه على جبل كيقاوس ، لينبت له قلب جديد فى صباح اليوم التالى ، يعاود النسر الوحشى التهامه بلا رحمة وبكثير من التأنى ٠

اختتم مصور الرحيل الفلسطينى كلامه عن الدم والنار ، مشيرا لما يحـدث ويبرق عبر سماء المدينة المحاصرة ومحاورها الملتهبة بكليهما مستشهدا ٠

أما المهاجر فلم يجد عندئذ كلاما يقوله ولو من باب ومدخل اثراء الموضوع الماثل للنقاش والممارسة ، مضيفا بأن الأمر الجلى ، هو ان لكل

شيء مهما ضؤل وانكمش تاريخه ودورة تواجده ، بدءا بالجراثيم وحربها حتى الثدييات ، وزواحف الأرض ، والسماء المنقذة منذ يهوه المحارب حتى نسور جيش الدفاع وطائراتهم القاذفة المحاربة بلا محاربين ٠

قـال :

فما بالنا بالدم والنار ؟

ابتسم الفنان قائلا :

ـ ها أنا أتأهب لرحيلي السادس ٠

راح يتأمل محتويات بيته عبر باب الحديقة الواطىء ٠

ـ كل هذا سيذهب ويروح مثل سابقه ٠

ارتفع مزاحه وقهقهاته طويلا :

ـ نحن لسنا بعيدى النظر ٠٠ مثلهم ٠ فلا يجب أبدا أن نعد بيوتا ومآوى وذكريات وأشياء من كتب وملابس ولوحات ، بل حتى الحب ٠

استدار راقصا هازلا :

ـ ما الفائدة ٠ طالما أننا فى كل مرة وطرد ، نتركها متخلين ٠

مضى يجرى عبر مسالك الحديقة الضيقة :

ـ اللى فى سكتى ٠٠ يحلالى ٠

اندفع يجرى ويقذف بلوحاته وأوراقه واسكتشاته وجرادل نفطه وألوانه عبر صالة البيت الضيقة هازلا :

ـ ما الفائدة ٠

اقتربت أصوات الدوى والمعارك ، محاصرة أكثر ، حتى لم يعودا يسمعان بعضهما ، بعضا ٠ ويبدو أن المصور المرح قال الكثير الذى لم يصل منه سوى متناثرات منها ، أهمية بلا حتمية أن يحيا المطارد خفيفا كمثل طائر ذليل الا أنه محلق بلا ممتلكات أو ارث ٠

وطالب بأهمية التراضى دون ضجر بما نحن فيه ٠

وحتى عندما صافحه المهاجر مبتسما مودعا أعاد قوله :

ـ ما الفائدة ٠

كانت الشوارع الصماء غارقة فى ظلامها الدامس • ولا شيء ينبيء عن حياة سوى كوميونات المسلحين عند مفارق الطرق • وكانت السيارات المحترقة مكدسة على جانبى الشوارع بكثرة واضحة •

وبدت الدور التى رحل عنها أصحابها خامدة مستسلمة للوحشــة التى حطت على جـدرانها وكواهلها ، أما أرضيات الشوارع والميــادين الفسيحة فقد فرشــت بشظايا الزجاج المتطـاير من الأبـواب والنوافذ والشرفات • ولم يعد يسمع سوى القصف المتلاحق عبر البحر والمحاور •

وكثرت بشكل ملفت أفواج الكلاب والقطط الضالة التى اتخذت أصواتها من نباح ومواء ، حدة احالتها الى أكثر ضراوة •

وحين تيقن من أن العـدوى أصابته ، تداخل أكثر الى أقرب سور واندفع يعوى •



- ٢٠ -

أيقظه من اغفاءته أول سرب طائرات مغيرة جاء عبر البحر كالعادة مبكرا جـــدا مع نسمات الصباح ومطلع يـوم جديد من أيام الحصـــار والعـــدوان ٠

تحسس من فوره هوينه ، ولدهشته لم يعثر عليها في جيب سرواله الخلفي كما اعتاد على وضعها ، بل عثر عليها فى جيب سترته الأعلى ، ولم يطل تفكيره فيما حدث ، ذلك أنه رأى اناسا يجرون مسرعين فى اتجاه واحد ، فاندفع مجهدا مؤرقا فى أثرهم لا يعرف له اتجاها بعينه ، رابطا بين قصف الطائرات المغيرة على الأحياء والبيوت التى لا تزال تغط فى نومها ، وبين أكداس المنشورات التى لابد وأن محتواها كالعادة ، مطالبة البقية الباقية من سكان بيروت بالفرار هربا بالجلد وانقاذا له :

ــ ليخلو الجو لهم ٠

واصل عدوه مرهقا :

ــ بيضوا واصفروا ٠

تداخل مع الفارين ، الى حد أنه عاد فسبق الكثيرين منهم ، خاصة النساء الثكالى والمسنين والمصابين ٠

انكفأ مرات على الأسفلت ، حين لوى عنقه لتصدمه الطائرات فى اثره تقذف بالحمم ، وبدا له الأمر وكأنه فى سبق معها ، مما أحاله الى حمامة مهيضة ، الا أنها أخف حركة من كثيرين ٠

كتم من فوره رغبة ملحة فى الضحك :

ــ منذ أن نزلت قدماى هذه المدينة المثقلة وأنا أعدو دون غاية ٠

غمغـــم :

ــ لعلنى أصبحت مثلهم مهجرا •

ردد متذكرا كلام صديقه الرسام الملتحى :

ما الفـــائدة ؟

وأيقن بأن هذا أصبح حالنا على أرض هذه البقعة الموبوءة من العالم ، أن نجرى كثيرا هربا بالجلد •• ومنه •

لماذا نحن بالذات ؟ هاهى القـارات الخمس من حولنا : ها هى أفريقيا السوداء •

وأعاد اليه الأمــــر نقطة بدئه وكاره • نفايات القرى ، العوامل المنقضية •

قــال :

ــ السباحة المعاكسة •

ــ اللاهدف •

ــ أخيـــل •

ــ حرث البحر •

مضى يتأمل الوجــوه بحثــا عنها بوجهها الأبيض البرىء ، كشاة ضــــالة •

وانضم الكثيرون للموكب ، وتداخلت الأجساد وتقاربت أكثر ، نساء وفتيات وأطفال وشيوخ وشبان وأمهات يحملن أو يجررن أطفالهن الرضع باكيات بالدموع •

ما من حارة أو شارع جانبى أو زقاق ، لم يلق بدلوه فى بحر الموكب الزاحف عدوا بلا هدف واضح أو مستقر •

والطائرات فى الأعقاب تفرغ حمولاتها من قنابل ودوى وحرائق ، أصبح يحس وهجها الحارق فيتصبب منه العرق

عصرا يعصر عرق الجبين •

رأى نفسه مجهدا الى حد مغالبة السقوط أرضا تحت الأقدام الفزعة المروعـــة ٠

كان الموكب ساعتها يعبر جاريا من فوق كوبرى علوى يفضى الى ساحة الشهداء التى يعرفها ٠

تسند بالدربزين الحديدى للكوبرى فى اعياء واضح ومضى يتلوى بجذعه النحيل فارع الطول ، مجاهدا فى السيطرة على تنفسه ٠٠ نبضه ٠

وقبل أن يأخذ راحته الكافية ، راح يعدو فى بطء فاكا عنه رباط عنقه ملقيا به ٠ حتى اذا ما انتهى به المقام وحيدا تعبا بعد أن انفض عنه الموكب ٠ اتجه من فوره عابرا الميدان الموحش الفارغ ، الى شق لا يبين فى الجدار المواجه ودلف منه صاعدا بضع سلمات حجرية متربة تسدها القاذورات والنفايات الا انه تخطاها ، ليجد نفسه مشرفا على ميدان صغير مسور من جميع جهاته ببعضه مقاه وبارات شعبية فقيرة ، وفى مداخلها تراصت مقاعد قصيرة من القش ، وتمدد السكارى والشمامون متحلقين فى ظل الجدران ورطوبة السقف ٠

انحط من فوره على واحد من تلك المقـاهى ، وظل يلهث ويمسح عرقه الغزير ، ويتطلع الى السماء الملتهبة بالنيران والقذائف ٠

أعاد تأمل الوجوه من حوله ، فوجدها ولدهشته ، غائبة عن عالمها ٠

اما منكســة تتطلع الى الأرض تحت أقدامهـا ، أو مسبلة العيــون لا تهزها شاردة أو دوى ٠ ما الخبر ؟ لماذا الناس هنا على هذا النحو من السكينة وروقان البال ، وكأن الأمر لا يعنيهم فى كثير أو قليل ؟

فحتى أجهزة البث التى ترسل بأخبارها ومارشاتها الدافعة للحماس، يبدو وكأنها لا تلامس آذانهم ، تساءل : تراهم مستسلمين أم شامتين ٠ سمع أحدهم يطرق كفا بكف ، وهو يقعى الى بعيد على صندوق ورنيشه بدلا من كرسى المقهى :

ـ قلناها كثير ٠

كمل له آخر ضاحكا ، وقد بدا نصف أسنانه الفضية :

ـ ما يتفرق معاهم ٠

تساءل :

ـ مين ؟

ـ تجار هذا البلد .. أصحاب البنوك والودائع .

وسرعان ما حل الصمت الذى لم يكن يقطعه سوى دوى القذائف ، وأخبار الراديو المزدحم وأصوات أحجار النرد داخل المقهى .

حلقت طائرتان معاديتان من فوق المكان من حول محيطه ، حتى تيقن من أنهما لا محالة ستفرغان حمولتهما من نابالم وقنابل عنقودية فوق رأسه بالتحديد ، ودون تفكير ثبت بصره عليهما طويلا ، تاركا العنان لجذعه الأعلى بكامله راجعا الى الوراء ، الى حد ملامسة الجدار ، والانبطاح أرضا دفعة واحدة ، حتى أنه سقط على آخرين من خلفه موقعا بعض الكراسي والمشروبات وظل هكذا مضطجعا فترة الى أن جاء الدوى والانفجار الى بعيد .

عندئذ تسند جالسا من جديد ، ثم هب بقامته المديدة ، ملقيا نظرة خجلى على الموجودين ، معتذرا مطبطبا على كتف من أوقع بهما :

ـ اعذرونى يا اخوتى . آسف جدا .

ولدهشته الكبرى أن الأمر بدا عاديا فلم يلق له أحد بالا ، وكما لو أن عينا لم تلحظه .

ما الخبـــر ؟

انحط جالسا على كرسيه منزويا ، رأسه بين ساعديه ضاغطا .

الى أن قاربه أحدهم باسبرين وكوبة ماء ، فشكره المهاجر ممتنا ، مستعيدا من جديد ثباته ، ماسحا زجاج منظاره ، حين عاجله الرجل :

ـ انس .

ـ كيف ؟

ـ مثلما نفعل جميعا .

أشار بأصابعه الخمس المرصعة بالخواتم :

ـ الجميـــع .

وحين تفهم الموقف ، ابتسم في ود الى محـدثه مقاربا ، حتى اذا ما جاءت القهوة كان قد اتصل بينهما الود ، مما حدا بالرجل وكان قصيرا ممتلىء الحركة ، لأن يضع يده في جيبه مخرجا في قليل من الحذر علبة ـ نشوقه ـ مقدما له جرعة تشممها بمنخاريه عاطسا في البداية ٠

كان الغروب القاني قد بدأ يزحف ٠

ولعلها المرة الوحيدة منذ العدوان المروع والحصار التي ينسى فيها فتاته الجنوبية الضالة ، متذكرا من فوره العالية وأختها ٠

جاءته العالية الأخت الصغرى تزحف على أربع عبر الميدان المسوز بمقـاهي الشمامين والزعـران ، تبحث عن ماذا ٠٠٠ فردوسهما المفقود الذي كان ٠

أحس من فوره براحة تسري في أعصابه ، بدءا من قدميه العطنتين داخل حذائه ، مرورا بساقيه وركبتيه ورأسه ٠

أصبح المكان الغاص بالرجال أكثر شاعرية ٠ بل لقد انفتحت أكثر من شرفة وبالكون أطلت منها نساء متحررات من معظم ملابسهن ٠

يبدو أنه لم يكن يلحظهن منذ أن دلف إلى هنا لاهثا متشويا :

ـ يـــاه ٠

أخرج من فوره مائة ليرة متحسسا ، ودسها خلسة في جيب محدثه، الذي رفض في البداية مصرا على رد المبلغ ، الا أنه أصر بدوره وعيناه على فتيات الشرفات أعلى بدلا من الطائرات ٠

وحين رضخ الرجل اللبناني القصير الى القبول قدم اليه من جديد جرعة ضعف سابقتها وأكثر من ســيجارة وتجددت القهــوة السادة ، وصفا الجو ٠

ويبدو أن أخبار الراديو بدورها جاءت بالجديد المشجع :

ـ هـــدنة ٠

ذلك أن التصفيق جاء مدويا من داخل المقهى وبقية المقاهي المواجهة وعربة بائع السجق الساخن وزبائنه ، وتعالت الضحكات والتعليقات :

ـ افـــراج ٠

ـ نشم فقط نفسنا٠

ـ الهى يهد حيلهم ٠

ـ عصابات ٠

ـ ريجن وبيجن ٠

ـ بيجن وبيجن ٠

ـ بيجن وشريكه ٠

أحس بالجوع المفاجيء عقب الجرعة الثانية ، فهب من فوره مادا الخطى الى بائع السجق وعـاد محمـــلا بستة سندوتشات وسلاطات ، اقتسمها مع الرجل وجرسون المقهى ، ورجل آخر عجوز يرتدى شورتا ملونا كان قد أوقع به حين انبطاحه ٠

علت ضحكات نســاء الشرفات ، وعرف فيهن فتاة سمراء رقيقة التقاطيع مصرية ٠

وعرف من صديقه اللبنانى ، أن اسمه محمود العريض ، وانه تقلب فى عدة مهن ، منها خبـاز ، وبائع عرقسوس ، وسمسبار ، وصـاحب محل قليبرز ٠

مختتما خبراته ومهنه بأنه صحفى ٠

قـال :

ـ صحفى ٠ أمال ٠

أما هو ففاض وزاد معه فى الحديث ، عن فتاته الصورية المصابة التى أضاعتها الحرب وأعياه البحث عنها :

ـ لم أترك مستشفى واحد فى بيروت ، شارعا ساحة تحت القصف، ولم أعثر لها على أثر ٠

غمغم محمود :

ــ العدوان . الحرب . أولاد الرمم « خاربين البيوت » . أين نذهب ونفلت منهم ومن ظلمهم ؟ ... لا مهرب سوى النسيان .

وعاد يعزم بجرعة جديدة ، فشكره المهاجر ممتنا ، معتذرا بأنه لم يسبق له .

وما أن تطلع ــ العريض ــ الى ساعته متحينا لحظة انسحابه حتى طالبه المهاجر بايصاله فى الطريق الى أقرب فندق ، هنا أشار ــ العريض ــ من فوره الى سيارته « البويك » المستهلكة البلاء طلاء وكانت مركونة فى أقصى الطرف المقابل للميدان ، حتى اذا ما استقلاها ، وبذل العريض جهودا مضنية فى تسخينها وادارة محركها ، اقترح عليه من فوره الاقامة معه بمسكنه الذى يقيم به وحده ، بعد أن رحل أسرته وأبعدها عن الحرب والأخطار . زوجته وبناته الثلاث وأمه المقعدة ، وعمتين دفعة واحدة منذ الشهر الأول للحرب الى دمشق .

فنحن الرجال نحتمل ، أما النساء الحرمات ، فعبء ما بعده عبء فى هذه الأيام السوداء التى لن تنتهى .

وحين وصل محرك السيارة الى درجة التنقل بتكاسل عبر الظلام الكثيف ثم الاسرع ، أخبره بأن منزله يقع فى منطقة أكثر خطورة من الحمراء وحيث كان المهاجر يقيم ، ضحك وهو يتطلع الى الطرقات الخاوية مهونا :

ــ لكن لا يهم فأنا أعرف كيفية التسلل ليلا ، ومثلنا مثل الناس ، فى شاتيلا .

غمغم المهاجر مأخوذا :

ــ شاتيلا .



تواصل القـذف بعنف لدرجة أن العريض أطفأ فانوس سيارته ـ الخردة ـ فمضت السيارة مندفعة تزحف عبر أكداس الظلام المخيم ، الى أن أشرفا على أحد جوانب حديقة الميدان التى أحرق العدوان شجرها والتى أحالها الفلسطينيون الى مجمع لمقابر شهدائهم • بل حتى الحديقة المقبرة لم تسلم بدورها من القصف والدمار فى محاولة الفاشست المعتدين لاعادة تدمير الموتى وحرق عظامهم داخل أكفانهم •

تسللا خارجين من السيارة ، وحين حاول المهاجر غلق بابها امتدت يد العـريض فمنعته وهو يجذبه من يده متسللا عبر أوحال الشـارع ومطباته ، ثم استدار به جاذبا الى حيث فتحة خاصة بالنفايات ، انفلتا منها الى داخل المخيم الغارق لرأسه فى الظلام والصمت وروائح البارود والتى يخالطها العطن •

وبحذاء الجدران واصلا تسللهما عبر عدة حارات متعرجة قذرة ، قادتهما فى نهاية المطاف ، الى البيت المكون من أربعة طوابق • وما أن دلفا داخلين وأشعل العريض قداحته ، حتى أحاطت به ثلة من النساء والصبيان المهجرين تكوموا هنا وهنـاك فزحموا المدخل والممر المؤدى الى السـلم الحجرى القذر ، واندفعوا سائلين عما يحدث :

ـ الاسرائيليون يزحفون أكثر هذه الليلة • المخيم مطوق من محاوره الثلاثة • الخلاص •

تطلع الجميع الى السماء ، حيث تفجرت اضاءات القنابل الفسفورية التى بدأت تسطع صفراء فاقعة مقتربة ، فاضحة كل معالم المخيم ، وهى تقترب أكثر ليتضاعف وهجها مخيلة اليـل المكان الدامس الى نهـار جلى التفاصيل ، مما أتاح للمهاجر اعادة تأمل المكان وأناسه ، ونسائه اللائى رحن يغطين وجوههن بكفوفهن متواريات فى استسلام ، بينما أحاطت الأمهات بأطفالهن فى انتظار ما يحـدث ويعقب عادة مثل هذه القنـابل

الضوئية المشابهة لشموس بطيئة الحركة تسقط من عليائها فوق الرءوس مضيئة محاور المكان هدف العملية ، محددة أماكن الثوار والمقاتلين وأسلحتهم •

وحاول العريض دون جدوى تذكر ، تهدئة الجميع ، باعلان خبر الهدنة الذى سمعه فى المقهى مستشهدا بالمهاجر وقبول المقاتلين الفلسطينيين قهرا حفاظا على حياة النساء والأطفال •• الخروج •

عم صمت طويل حشد المهجرين والسكان فمعظمهم فلسطينيون •

اندفع يصعد بضيفه حيث يقيم مستعينا ببقايا شمعة لتجنب أجساد المهجرين الذين زحموا السلالم ومداخل الطوابق الأربعة الى أن وصلا المسكن المكون من غرفتين فسيحتين ، يغلب عليهما الاهمال وضيق ذات اليد •

انحط المهاجر من فوره على فراش غير مرتب ، خالعا عنه حذاءه ، وسرواله :

ـ ايه •• هدنة •

وحين أغمض عينيه قليلا مستسلما للقذائف المتبادلة التى كانت تمرق مدوية من فوق رأسه • تساءل :

ـ لو أنها ماتت ودفنوها لقضى الأمر •

كانت قد عودته على أن تجيئه ، وبين أحضانه وذراعيه العظميتين، تدفن مخاوفها وتوترها ، بازاء الاشتباكات الملتهبة دوما على طول هذه المدينة :

ـ أين ؟

مضى المضيف من فوره ، يدفن ويداوى توتره •• هلعه فى الاكثار من جرعات الكوكائين واللفائف مغيرا ملابسه ، قافزا ما بين زوايا الشرفة الرحبة المطلة على الميدان ، وبين غرفة نومه متحدثا بصوت مرتفع دون أن يسمعه المهاجر • قال : بأن الوضع يزداد سوءا ، وينذر بمؤامرة أكثر من الهدنة ، والتقاط الأنفاس •

وذكر أن هذا هو حالهم على الدوام منذ الأزل الطعنات من الظهر ، وليتها طعنات ، انها مئات « الهيروشيمات » التى أصبحت مدوية تحت سمع العالم المتآمر بدوره وبصره ٠

وبدا معتذرا لضيفه المهاجر ، بأنه ضاعف من أخطاره هذه الليلة ، وان كان لم يعد يجد مهربا منقذا من هذا البلاء الباطش على طول المدينة وعرضها ان لم يكن لبنان بكامله ، بل والشرق الأوسط ٠

وأكثر المهاجر من موافقته :

ـ صح صح ٠ تمام تمام ٠

وكان ساعتها غائبا بكامله عما يحدث ٠

يسترجع لحظة تذوق دم صدرها النازف والهلع الآسن فى عينيها المعبرتين ٠ وذكر محمود العريض ، عبر حركته الدءوب وتوقده بالجرعات كثيرا :

ـ الخروج ٠

ـ ونحن ؟

عاد ففتح باب الشقة على مصراعيه ، قبل أن تطرقه ثلاث فتيات فلسطينيات يطلبن تسوية قهوة على بوتاجازه ، ومن فوره اختفى معهن داخل المطبخ الضيق ٠

احتدم نقاشهن الذى لم يكن يخلو من ضحكات صافية :

ـ خـــروج ٠

وتصورها لحظة طرد جماعية ، وود لو أنه واصل بحثه ولم يكل ٠

جاءته احـدى الفتيات خلسة ، بهـدف الاطمئنان والتسرية عنه ، تزحف على أربع على بلاط الغرفة ، بيدها لفافتها المشعلة ـ الملفوفة ـ لتقدمها اليه جاثية على أربع :

ـ الأخت الصغرى ٠

تعارفا حين قدمت له نفسها فى بدلتها الجينز الأقـــرب الى زى المحاربين ، أميـل الى القصر والامتلاء واسمها شادية ، مخطوبة لشاب لبنانى يدعى بسام ٠

وبدت قليلا مؤرقة وهى تقاربه ضاحكة لا يروقها الموقف بكامله ، خاصة على هذا المحور وأشارت له الى الجهة المقابة من الشرفة دون ادراك منه لشيء ، سوى تفهمه لمخاوفها الدفينة على صديقها المقاتل على ذلك المحور وحيث أشارت « بسام » ٠

ذكرته كثيرا بصديقته من حيث حساسيتها وفروسيتها الدافقة ، حتى ومحاولتها لتقريب حذائه من تحت السرير ٠

هب من فوره معتدلا مرحبا ، معاودا الانضمام الى الباقين ، الذين تعالت أصواتهم بما يتلاءم والقصف القريب الضارى ٠ ودارت القهوة واللفائف وجرعات العرق اللبنانى الساخن ، فلا كهرباء ولا ثلاجات ٠

اختلطت أصوات الفتيات وتعبيراتهن الساخطة الماجنة الهلعة ، مع أصوات راديو لالتقاط الأخبار ، وتعرف موقع القدم ، التنفيس فيما يحدث من أخطار محيطة مطبقة ٠

جرت احدى الفتيات الى الشرفة مشيرة الى حيث الانزال ، واشتداد حركة مقاتلى القوات المشتركة فى تشبثهم بأماكنهم أعلى البنايات المواجهة يسارا ، وخلف متاريس الشوارع ، لا يثنيهم عن موقعهم تقدم صفوف الدبابات المشرفة على التلال المحيطة بالمدينة المحاصرة ٠

وبدا القلق أكثر مرتسما على وجه شادية ٠

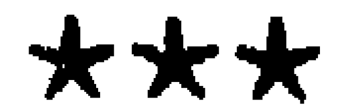
تواصل القتال على مرأى منهم ، وتداخل الجميع بعضهم فى بعض، وارتفع ذعر السكان أكثر من فقراء ومطاردى الشعبين اللبنانى والفلسطينى فى الأدوار السفلى ٠ للحظة أقرب الى الومضة ٠ تبدى الأمر له كمثل كابوس جاثم مخيم ، ولا مهرب ٠

ركض مرات الى الطرقة الخارجية ، وتداخل فى المهجرين المتلاصقين فى بعضهم البعض ، كجسد واحد ، دم واحد يسرى متدفقا فى الشرايين ، حتى لم يعد يعرف اللبنانى من الفلسطينى ٠

ـ أما من مفر ؟

قاربته الفتاة بيدها شمعة ، وحين عاد الى داخل المسكن ، أسلم نفسه للعريض والفتيات متداخلا مفترشا بلاط الشقة وبضع مخدات قطنية ، تاركا قياده لمهرب ـ العريض ـ بالنسيان والتناسى ضاحكا مع الباقين ٠

بينما الدوى والحصار يزحف أكثر مطبقا على الجميع ، حين غفا المهاجر نائما ، وعلا غطيطه ٠



- ٢٢ -

فى ضحى اليـوم التـالى ، على غير موعد ، ودون جهد منه للبحث عنهـــا ٠

التقيا هـكذا داخل احـدى غرف عمليات مستشفى شاتيلا الذى لا يبعد عن بيت مضيفه محمود العريض أكثر من حارتين جانبيتين وثلاثة شوارع ٠

ذلك ان العريض أيقظه من نومه وغفوته التى ألمت به فجأة ، معلنا فى أذنه بأعلى صوته الجهورى مدويا :

ــ قوم قوم ٠ البنت شادية استشهدت ٠

ــ شادية ٠

اندفع من فوره جالسا ممسكا برأسه بين كفتيه من أثر الصداع ورطوبة البلاط ، محاولا استرجاع الاسم وملامح تلك الفتاة الفلسطينية فى زيها العسكرى ومرحها العذب ٠ وذلك الحنان الجارف الذى أحاطته به منذ أن التقيا أمس ، حتى انه نسى المعارك وأوجاعه واستسلم لنوم عميق أفاق منه على استشهادها ٠٠

ــ كيف ؟

لم يمهله العريض ، بل اندفع من فوره يحضر القهوة حاكيا بصوته العـالى وايقاعاته المتلاحقة دون أثر لتندم ، كيف أنهـا صممت وركبت رأسها على أن تلحق بصـديقها الشاب اللبنانى الذى لم تكن تكف عن الحديث عنه منذ التقيا ، والذى يرابط مع زملائه مقاتلا على أحد محاور المخيم ، دفاعا عنه ٠

غمغم المهاجر متذكرا :

ــ بســـام .

ــ بســام ، وفعلا سحبت سلاحها وظلت تعدو الى أن لحقت به . ولم يطل الأمر بهما ، حتى جاءنا خبر الاثنين ، اصابتهما معا ونقلهما الى المستشفى القريب . جحيم .

وحين ذكر العريض تأهبه لزيارتها والاستعداد للجناز والدفن لم يجد المهاجر منفذا من أصحابه ، برغم أن المضيف حاول ثنيه وابقائه فى المسكن ومواصلة النوم ، حين أحس تهالكه ولونه الشاحب .

مسح وجهه بمنشفة مبللة ، وعدل من هيئته أمام مرآة متربة ، واندفع فى أثره ، الى أن أشرفا على الميدان حيث تقع المستشفى ، التى تصدرتها وملأت أروقتها عائلات الجرحى والمصابين والشهداء .

وما أن دلف بنصف جسده داخل غرفة العمليات ، وعيناه على جثمان شادية المسجاة حين قاربها العريض وهو فى اثره ، حتى وجدها فى أحضانه مقبلة .

فى البداية لم يتعرفها تحت قناعها فى زيها الأبيض ، الى أن قفزت عالية محتضنة متعلقة بعنقه مقبلة بلا صوت وتشمم روائحها العذرية .

ــ معقـــول .

ودون أن يعى ما يحدث ، وهو يتأمل فتاته الجنوبية ، فى صمتها المتفهم المفصح عن الكثير ، وردائها الأبيض ، اندفع نحوه العريض عائدا من فوره مقاربا معلنا انقضاء أجل الفتاة :

ــ ماتت .

ــ شادية .

انسحبوا ثلاثتهم خارجين من عنبر العمليات المشابه لجاراج ، ويدها الدقيقة تعمل فى يده ، قدمها الى العريض الذى ابتسم :

ــ شىء مفرح فى هذا الغم أن يلمع شىء ، تلتقيا .

عرف منها بأسها بحثا عنه ، الى أن تقدمت متطوعة للعمل بهـذا المستشفى مع صديقة أخرى درزية تقيم هنا تدعى ليلى سبق له أن شاهدها معها مرارا .

وأخبرها بدوره مسرعا منفعلا متوعكا ما مر به وألم من ظروف منذ تهدم البناية وسد مدخلها وهج سكانها عنها ذعرا وافتراقهما ٠

قاطعته :

ـ أعرف ٠ ومررت عليها ثلاث مرات آخرها أول الأمس ٠

ابتسمت :

ـ وبالطبع لم أسأل عنك ٠

تساءل :

ـ كما هى ؟

ضحكت :

ـ أكثر سوءا ٠ فالشارع بكامله أصبح شبه مهجور ، وأصحابها رحلوا الى الجبل والشمال ٠

قاربه العريض وهو يلكزه منبها لمشهد الفتاة الفلسطينية شادية وحبيبها اللبنانى ، جسديهما المسجيين على نقالتين ، وقد أحاط أهاليهما رأسيهما بالورود والزهور والصبار ، وأحاطوا بالعجلتين حاملين سلاحهما المشهر ٠

تقدم العريض من رأس الفتاة مصلحا ، مختلسا نظرة أسية أخيرة من تحت خباء وجهها السمح الطفولى المبتسم دوما ٠

وعاد كالمذعور فشدد عزاءه للأم الهرمة الثكلى وفتاتى الأمس ، اللتين قاربتا المهاجر مسلمتين فى حزنهما ، فقدمهما لصديقته التى رمقتهما بنظرة فاحصة يعرفها عنها سائلة :

ـ من البنتان ؟

حكى لها مكملا ما ألم به عقب افتقاده لها ولبيته وكتبه ومخطوطاته ، لحين التقائه بالعريض والاقامة عنده ، ثم كيف التقى بفتيات العمارة الثلاث عنده بمسكنه ، لحين استشهاد احداهن ٠

بدا أنها تفهمت الموقف ، خالعة عنها معطف المستشفى ، دافعة برأسها وخصلات شعرها الذهبية الى الوراء كمثل جواد عربى فتى ٠

ـ شوب ٠

ومن فورها رافقت الموكب ، المستعد لرحلة الدفن فى حديقة شاتيلا ، التى أصبحت حديقة الشهداء ٠

كانت الهدنة المزعومة قد استقرت عقب اتصالات ما بين عواصم الشرق الأوسط والأمريكتين وغرب أوربا ٠

الشوارع بدت قليلا مزهوة بأناسها الشاحبين المكدودين من أثر ثقل عدوان الأمس الذى امتد طيلة النهار وحلول المساء بطوله حتى مطلع هذا اليوم التالى ، وغارات الطائرات القاذفة بكل أنواع الدمار وحممه ، مضافا اليها البوارج والزوارق البحرية ، ناهيك عن الدبابات والمدرعات ، وقنابل الاضاءة وكل أنواع المدفعية لم يتوقف لها عدوان ٠

بدا ما تبقى من نساء بيروت ورجالها وهم يروحون ويعدون من أمام عتبات بيوتهم أو أمام المخابز والأفران ٠ متحلقين فى طوابير مستكينة للحصول على الخبز والماء وعربات الخضروات والفاكهة ـ البايتة ـ والبحث عن شموع الاضاءة والكيروسين والدواء ، وهم يتبادلون النظرات والتهانى بالتواجد ـ حتى الآن ـ داخل أجسادهم ٠

وحين تراصوا متقابلين داخل عربة نقل الموتى السوداء ، جاءت الأم والفتيات بفستان العروس المحترقة شادية الأبيض ، ونصبوه قائما فى موقع الرأس من تابوتها ٠

تلمست بيدها الدقيقة ، يده فى رقة سرت عبر عظامه والسيارة تمرق بهما الطرقات المفرغة من الناس ٠

قال العريض :

ـ أعمـــار ٠

سالت دموع الفتاتين من رفيقات الشهيدة فى صمت ، شمل أيضا ايماءات الأم الفلسطينية السمراء ، التى راحت تلطم مقبلة أطراف كفن الابنة :

ـ ظلم ظلم ٠

تســندت الأم فى محاولة منها للوقوف على قدميها والاقتراب من جثمان الابنة المسجى ، فى ذات اللحظة التى حاول فيها العريض معاودة اجلاسها على مقعدها ، دون تراجع منها ، انتهى بالعريض الى أن تعنف حركته أكثر ، ذاكرا مرة بأن الأمر لا يعدو :

ـ أعمــار ٠

وأخرى بأن الشهيد أبدا لا يموت ٠ ولا داعى لمزيد من الازعاج ٠

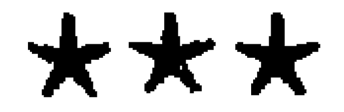
هنا تبادل جميع المتواجدين داخل سيارة نقل الموتى ، النظـرات المتسائلة ٠

الا أن اصرار العريض على عـدم السماح للأم بالاقتراب من الجثة ، أهاج عواطفها أكثر فأكثر ٠

ـ بنتى ٠٠ حبيبتى ٠٠ أبوسها ٠

هنا لكز العريض المهـاجر كمن يطلب عونه دافعا بجسد الأم الى الوراء ٠

وغطت الفتاة الجنوبية فى ذعر وجهها بكفة يدها ، فى ذات اللحظة التى جاشت فيها مشاعر الأم الى ابنتها الى حد مقاومتها للعريض وشابين آخرين مسلحين وانتصبت من فورها واقفة منحنية على النعش ، كاشفة فى رقة أم تهدهد صغيرتها ٠٠ طفلتها ، ولدهشتها ٠٠ صرختها لم تجد شيئا سوى خصلة شعر محترقة ، تعلو مطلع جمجمة ٠



- ٢٣ -

ما أن حلت الهدنة المريبة ، وبدأت دفعـات المقاتلين فى الترحيل البحرى • حتى بدا ما تبقى من سكان بيروت تحت الحصار وفوهات مدافع العـــدوان ، كمن يستيقظون لتوهم من كابوس جمـــاعى يكتم التنفس ذاته •

بدأت الجموع تأخذ طريقها الى الشوارع ، خاصة الحمراء التى دبت فيها الحيـــاة من جديد ، ففتحت معظم المقــاهى والكازينوهات ومحلات الأطعمة الشعبية ومنها اللحم بالعجين أبوابها •

وعادت وجـــوه الفتيـــات البيروتيات الرقيقات تزحم الشوارع ونواصيها •

وهن ذات الفتيات المقــاتلات ، بزيهن الحربى ، كما أنهن ذاتهن اللائى كن يبكرن فى كل صباح ويأخذن طرقاتهن الى حيث ميناء بيروت ومرفئها لتوديع المقـــاتلين المغــادرين وعائلاتهم ، يلوحون لمن عاشروهم وقاسموهم حيـــاتهم وخبزهم وكدهم اليومى ودافعوا عن مدينتهم وهن ينثرن الزهور والورود من فوق رءوسهم فى زهوة ووعود باللقاء •

وعلى هذا النحو دأبت فتاة الجنوب ورفيقتها الدرزية ، فى معظم أيام الخروج العصيبة •

وكم كان المهـاجر يحس بالزهو ، حين كانت تعود اليه لتحـدثه مختلجة عن هول ما أثاره الموقف من مشاعر ، وما علق بذهنها من حكايات وقصص الغرام الدافق بين اللبنانيين والفلسطنيين وهى العلاقة المتقدة التى جاء العدوان ليدمرها من جوانب عدة ، تختتم على هذا النحو بالفراق ، وخروج أولئك المطاردين أينما حلوا ، من لا وطن لهم •

فى تلك الأيام التى أصبحت تتســم بالحلاوة بعودتها ، وســماعه للهجتها الجنوبية كمثل نغم ، أو « ميلودية » عذبة تعاشر أسماع سامعها •

فبدأ المهاجر معها يستعيد أمنه وسلامته الذاتية ، بازاء ما عاناه عبر العدوان ولياليه وافتقادها والتشرد ، والهروب المفتعل بالشم والمخدرات مع صديقه اللبناني الجديد طيب القلب ، الذى قاسمه مسكنه مجزلا له الأجر أضعافا فى الوقت الذى كان يرفض فيه العريض عن جد أخذ أى شيء ، والاكتفاء باستضافته فى تلك المحنة التى حلت بالجميع ، عـرب ولبنـــانيين ٠

وفى بعض الليالى كانت تزوره صديقته الجنوبية ، لتمضى الليل معه فى أحضـــانه فى غرفته المنعزلة الى حد ما عن الغرفة التى اختارها صاحب المسكن لنومه الليلى المتقطع وشخيره العالى المتصل ، ومعاركه مع نفسه عبر كوابيسه الملازمة التى ادعى لكل من حادثه فيها ، بأن العتب ليس عليه ، بل هى الحرب ٠ ودمارها حتى فى النوم والمضاجع ٠

ودأب هو بدوره ، على زيارة صديقته التى دفعها واجبها الى التطوع لخدمة المصابين والجرحى من الشباب والأشبال بمستشفى هذا المخيم الفقير الذى جمع معدمى الشعبين الفلسطينى واللبنانى ومعظمهم أيضا من مهجرى الجنــوب ، الذين فروا اثر اعتداءات العدو المتسلط المتعـــاقبة ، وآخرها هـــذا العـــدوان الذى وصل ذروته بحصار بيروت بل واقتحام أطرافها وتقطيعها قطعا على مشهد من أهلها الثقلين ٠

كان يأخذ طريقه الى المستوصف عبر شوارع شاتيلا وآزقتها العفنة، مستطلعا وجوه الناس البسطاء الذين لم يتخلوا للحظة عن ابتساماتهم البشـــوشة برغم جسامة المحنـــة بالعـــدوان والخطر الداهم المحاوط برا وبحرا وجوا ، فى استباحة ما بعدها استباحة تجيء على هذا النحو منذ ما قبل ١٩٤٨ لحين التواجد الفعلى والتباهى بالنجمة الغازية ــ الطوطم ــ المسدســـة ، تعلو بفعل وهج القنابل الفسفورية ، وعبر أستار الليل الكثيف وانقطاع الكهرباء فوق أعلى معالم المدينة العاصمة بيروت ، ورموز كرامتها ، دون أدنى استحياء ٠

رغم ذلك لم يتخل هؤلاء القوم السمحاء عن ابتساماتهم المرحبة ، خاصة للغرباء ، حيث ان السكان بدورهم غرباء ، ومن هنا يجيء التعاطف متجانسا لا رياء فيه :

ــ وطن الغرباء ٠

بل هو تعـرف الى الكثيرين منهم رجالا ونساء . تعـرف على أسرة شيعية لبنانية أم وخمس أخوات فى سن متتابعة متقاربة ، وجميعهن حتى الأم لم يتركن لحظة وداع وتساند مع الخارجين أو المطاردين .

وحكت له الأم البشوش الهرمة ، كيفية انقاذها لبناتها وأولادها هربا بالجلد من مجزرة مدينة الخيام الأقرب من متاخمة الحدود الاسرائيلية فى الجليل الأعلى حين اجتاحتها الميليشيات الأسرائيلية عام ١٩٧٨ ، فقتلت معظم ذكورها عن آخرهم من آباء وجدود وأشبال .

كما استمع من مصحح لغة عربية طويل القامة أحمر الوجه يدعى عساف قسيس ، كيف أحالت اسرائيل بلدتهم بكاملها بالقرب من صور ، بعد أن أجبرت سكانها قتلا وتهجيرا على أن يخلفوها مفرغة من كل حياة ، لتقيم فيها القوات الاسرائيلية بروفات حرب حيـة على الطبيعـة لاتقان ـ أو اخراج ـ حرب المدن ، بنسف الدور والمدارس والمستشفيات وكل معلم لحضارة وحياة .

لمـــــاذا ؟

كان يحلو له آخر النهار ، ومع حلول المساء ، اصطحابها من عند الباب الخارجى المطل على حديقة تفضى الى سلالم المستوصف . حين كانت تمد له ذراعيها الاثنتين القصيرتين ، كمثل عصفور جريح محلق ومن فورها تلقى بنفسها بين أحضانه لاثمة مطلع عنقه ، ويمضيان يجوبان الشوارع ولهما هيئة أب وابنته .. وحيدته .

يغوصان فى أوحال المخيم ، يتطلعان خلسة الى الوجوه المحاصرة فى صـمتها المطبق كمثل ذبائح الضحية . يعملون : يبيعـون ويشترون ويتزاورون ، ويتحلقون حـول دكاكين وعربات الأكل والفاكهـة وخبز الزعتر . انتظارا لأن تعمل بدورها آلات الحرب الأمريكية القادمة عبر البحر فعلها فى لحم أجسادهم وفقرهم « الدقة » كما لو أن الهدف الفعلى هو اندثارهم ، الفقراء .

.. كانت كثيرة التساؤل بلا كلمات :

ـ لماذا الأمر على هذا النحو ؟

أما هو فكان يجيبها ، بأنه لا يصدق ، وأكثر ما يضايقه هو هذا الأمر ، أن لا تصدق ما ترى وتشهد الى حد الدهشة .

صحيح أن مثل هذا الأمر كان من الممكن أن يصادفه عبر حكايات القرى والحقول ، حين كان صاحب النجمة المسدسة يحرث أجساد أعدائه الفلسطينيين والأردنيين بالنوارج والباجات ذات اللفافات حصدا جماعيا ٠

لعله ما يحدث ٠٠ أو يقاربه فالحصاد هذه المرة يجيء نيرانا ونابالما عبر الزوايا الست أو المسدسة ٠ بالاضافة طبعا لمكبرات الصوت والبث ذات اللهجة المهذبة التى تطالب أشلاء سكان هذه المدينة وغيرها بالفرار هربا بالجلد ٠

– الى أين ؟

النـاس لا يكفون عن الفرار ، ان جنوبا أو عبر أحياء العاصمة وشقوقها وأطرافها المقطعة وضواحيها ٠ لا شيء أصبح يمكن أن يرى ، سوى وفود وكوميونات المهجرين ، يسدون كل منفذ ومدخل لبنـاء أو حديقة هامة أو واجهة سينما بالحمراء ٠

وحيث كثيرا ما يأخذان طريقهما اليها لمضيا هكذا متسكعين من طوار لآخر بلا هدف واحد ، سوى مجرد التطلع الى وجوه وهيئات ما تبقى من أحياء وحتى يحين الحين ، بانتظار ما يستجد من أدوار وحصد ٠

وذات يوم وجدا نفسيهما على مقربة من البناية التى فيها كان يقيم المهاجر ، والتى لحقها القصف الجوى فتهدم طابقها العلوى ومدخلها الذى سد تماما ، فشلت حركتها وعنها رحل سكانها ٠

مضى يتأمل من داخل الكاراج المهجور الواقع خلف البناية الى حيث مسكنه الذى كان ، كتبه ومخطوطاته وملابسه ٠

وكم كان حبوره واكباره لفروسيتها حين أخبرته من فورها بأنها ستصعد مستعينة بسلم الى بلكون بالطابق الثانى ، ومنه الى ما يليه حيث مسكنه وستلقى اليه خاصة بمخطوطاته التى كان منشغلا بالعمل بها قبل العدوان ، وما يعن له أيضا من أشياء بسيطة ٠

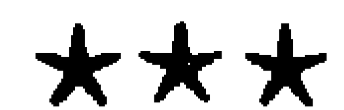
فى البداية وحرصا منه عليها ، حاول ثنيها عن مثل هذا الفعل ، فلا داعى للخطر ويكفى ما نحن فيه ٠

الا أنها أصرت معدلة عن كيفية التسلل عبر باب الشرقة الى داخل المسكن بلا مخاوف ٠

ومن فورها قفـزت جارية الى البنـاية المجاورة ونجحت بمساعدة ناطورها في احضار سلم خشبي ، تسلقته حتى أصبحت داخل المسكن ، وراحت تلقى اليه بأوراقه وما وقع عليه اختيارها من ملابسه وأشيائه ، ضاحكة ، وهي تمازحه ممتنعة عن احضار بعض الأشياء في عبث بناتي محبب ، الى أن نجحت نازلة :

ــ ها أنا قد نجحت .. أنفع ..

وضحكا طويلا وهما يأخذان طريقهما بعد أن ساعدته في حمل معظم أشيائه في حنان ، الى حيث مسكنهما الجديد في شاتيلا .



تساءل المهاجر بين وقت وآخر ، عن ذلك الخيط الخفى غير المرئى الذى يربطها به ، الى حد أن توقف حياتها عليه وأن تتخلى عن مصاحبتها لأهلها الذين رحلوا الى مهجرهم بالبرازيل ، منذ الساعات الأولى للعدوان، بينما تخلفت هى — مصرة على عدم ترك البلد للمعتدين ، اذ أن هـذا بالتحديد هو هدفهم ، كمـا سبق لهم فعله فى فلسطين ، نشر الذعـر والفزع واعـادة استثمارهما فى ترحيـــل السكان وهجرتهم الى حيث لا رجعة :

— لـن أرحـــل ٠

وهكذا بقيت قاصرة طاقتها على العمل بالمستشفى تكنس وتنظف وتسهر على رعاية المصابين ، لتعود آخر اليوم لترعاه ، تقرأ له وتنصت الساعات الطوال وتصنع له قهوته السادة وطعامه ، وتحمل الماء والصحف وخبز المستشفى « الجراية » ٠

ما الذى يشدها اليه ٠ انه لا يستطيع أبدا الادعاء بأنها على دراية بدوره الفكرى فكيف يصلها منهجه فى علمنة الثقافة وعلوم الاثنوجرافى والانثروبولجى وجدلية ما يحدث بعامة ، ثم ما ضرورة مثل هذا الآن فى — جحيم — ما يحـدث وتلحقهما نيرانه ووهجـه الحارق ٠ أسئلة يظل يطرحها دون اجابة ، منذ ذلك السيمنار الذى انتهى بالانفجار والمصحة المعتقل معـا ، لحين مجىء العدوان بدءا من الجنوب مستشريا عبر كل المحاور ، لحين القتال والصمود ، وقبول الخروج والرحيل ، ووصول القوات متعددة الجنسيات ٠

تذكر وعوده المتكررة لها بالسفر والترحال لرؤية أكبر حيز ممكن من هذا العالم وتضاعف هذا الحلم وكبر أكثر مع حلول العدوان والحرب٠ ما الذى يشدها اليه ٠ أتراه افتقاد الأب ٠ على عادة ما يحدث بالنسبة لمثل هذه الحالات ٠ أم تراه الخطر ، تلك الجاذبية الخفية — اللامرئية —

التى جاء من وطنه هاجا الى هذا البلد الصغير الغارق لقمة رأسه في بحاره الآسنة ·

بل ان تساؤلاته أوصلته الى حد محاولة الامساك بتلك الصدفة التى دفعت بكليهما الى المجيء أصلا الى هذا الحى الفقير المضطرب دوما بمعدمى الشعبين الفلسطيني واللبنانى ، ان لم يكن كل الفقراء · من لا وطن لهم · ذات ليلة سألها ان كانت تستشعر بحق مدى الأخطار المحيطة ، وان كانت تفضل الرحيل والبحث عن مسكن أو مأوى آخر أكثر أمنا ، قالت :

أيـن ؟

وأردفت بأن الخطر هنا ، كما هو بكل أحياء بيروت · لا فرق يذكر بين المسكن والخندق والشارع طالما أنهم أصبحوا يتعمدون ضرب المخابىء ذاتها ، ومدافعهم تطول كل شق فى بيروت الغربية الوطنية ·

وتعللت بارتباطها بزميلتهـا الدرزية · والمستشفى القريب الذى تعملان به ، واقامة جسور الاتصال والتعارف بالجرحى والمصـابين حتى الأطفال ، ومن غيبت الحرب وجوههم الى حد البشاعة ·

ــ كيف أتخلى عنهم ·

قالت :

ــ كيف أتخلى عن صديقتك الفتاة الفلسطينية شادية ، التى جاءوا بها ورفيقها اللبنـانى فجرا ، كتلة لحم بلا وجه ، سوى من بقايا نبض ضنين ، وأحسست بها وهى مسجاة ، تحملق بى متعلقة بأحد ذراعيها بمؤخرة عنقى هذا ضاغطة · الى أن توقف نبضها ، وسرت البرودة من قبضتها خلف عنقى ، الى عنقى ذاته وبقية جسدى وأطرافى ·

وكيـف ؟

لا أحد يعرف ، بل هو نفسه المهاجر لم يعد يدرى · ففيما يتصل بنفسه يستوى الأمر · فهو لم يتخل للحظة عن سلاحه ، صحيح أنه غير كاف ، ولا يستوى مع أسلحة العدو من نابالم وقنابل انشطارية وأوبئة ، ذلك أن سلاحه مجرد سكين (قرن غزال) أو موسى الا أنه كاف فى كل الحالات وأضيقها لقتله أو انتحاره بازهاق نفسه ، وقتما أراد ·

وقليلا ما حادثها فى هذا ، حين تحسسته تحت وسادته ـ الموسى ـ ذات ليلة ، ولمسته سائلة :

ـ لماذا الاحتفاظ به هنا ؟

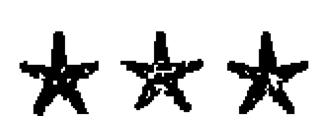
تردد فى البداية ، حول كيفية اخبارها ، الا أنه ألمح لها بحقيقة الأمر ، كيف أن لكل انسان مأزقة واختياره لتوقيت فك وثاقه وغيابه ٠

ساد الصمت بينهما للحظة كان من الممكن أن تطول جدا ٠ ذلك أنها قامت مبتعدة عن الفراش ، واندفعت تتأمل وجهها وجسدها نصف العارى بملابسها الداخلية ، ثم اتجهت الى المرآة المواجهة لباب مدخل المسكن ، وتناولت لفة زهور ـ الأوركيدا ـ التى كانت قد جاءت بها اليه ، ومضت فى ذات الصمت توزع الزهور وتنسقها فى فازات البيت الى أن عادت اليه ، فأشعلت لفافة وانحنت على ذراعه فلثمتها قائلة :

ـ طبعا الانتحار حل مطروح ٠

وجاهد هو ساعتها فى تغيير الموضوع الماثل للحديث ، معيدا الموسى الى مكانه ، وهب من فوره منشغلا معها ومساعدتها فى تنظيف حوض غسيل المطبخ واعداد القهوة ٠

ولعلها كانت اللحظة المحـددة التى مست فيها قلبه ـ الشائخ ـ فأحبها ٠



- ٢٥ -

جاءهما صاحب المسكن محمود العريض فزعا مروعا الى حد أنه كسر مزلاج باب المسكن الخارجى معلنا أن الاسرائيليين ــ الجزم ــ لم يكتفوا بما فعلوه بلبنان ، فاغتالوا الرئيس المنتخب بشير الجميل وكبار جنرالات ميليشياته ، فى ذات التوقيت الذى أعلن فيه تأهبه لافتتاح جسر فؤاد شهاب أو جسر الاتصـال بين العاصمتين ، بيروت الغربية والشرقية • اذ كيف يتوحد لبنان وتلتئم لحمته ، هم لا يريدون له سوى التمزق ، عزل اللحم عن اللحم ؟ تساءل ثلاثتهم ولعلهم اتفقوا :

ــ لازم يعملوا حاجة •

ــ يدخلون بيروت الوطنية ، بعد رحيل المقاتلين الفلسطينيين الذين أوقفوهم وصدوا عدوانهم بحجة تمشيطها ، ويعملون مذابحهم •

هبت من فورها عن فراشها مؤكدة فى صمتها العظيم :

ــ هنــا •

ــ ما العمل •

أجاب العريض ، وهو يتحرك بشكل مكوكى لا ارادى ، يأكل فى نهم ويحتسى البيرة ويحشو منخاريه ويعطس بحدة :

ــ هنا مثل هناك •• لا مهرب •

تلاقت عيونهم فى ذات اللحظة التى واجهت هى فيها المرآة بذات الصمت •

اعلن الراديو اغتيال الرئيس والحداد •

قال العريض :

وجاءت الأخبار كالعادة سابقة لكل توقعات قبل حلول المساء الدامى وبصر العالم .. الخول .

قبلته ضاحكة وبدورها قبلت العريض :

ــ موعدى . عندى شفت الليلة .

ــ الليلة .

ود لو أنه قفز اليها معترضا هذه المرة معلنا هواجسه ، ما يعتمل فى داخله ، ولا يعرف كيف يمكن أن يعبر عنه ، يفصح عنه :

ــ بنتى .

انتفض واقفا مجاهدا فى ألا يبدو منحنيا ، واندفع يلثمها فى كل ما هو عار من جسدها جاثيا على ركبتيه ، حتى ملابسها بنطلونها الجينز القديم ، أذنيها ، عينيها ، سوارها الذهبى .

تجسدت له كلبنان ..

أرزة قصيرة فى مقدور أى رياح معتدلة اقتلاعها .

أما هى فمضت تلحس حواف فمها غير مستوعبة ما يحدث ، على عادة الضحايا .. بل هى أعادت ايقافه على قدميه منتصبا وتأملته لحظة .

وجاءت الأخبار كالعادة سابقة لكل توقعات قبل حلول المساء الدامى فى شاتيلا .

غمغم لنفسه :

ــ الليلة تباع الرءوس بيع السماح .

تذكر كليب الفلسطينى ملك العرب .

أذاع راديو محمود العريض الترانزيستور ــ المتآمر ــ سلسلة من الأخبار ، التى جاءت كمثل جلد على بطن عار .

واندفعت الفتاتان الفلسطينيتان ، اللتان اختفى مرحهما العربيد فى أعتى ساعات المحنة عقب استشهاد رفيقتهما الثالثة شادية ، داخلتين محملتين بأخبار جديدة :

ــ لا قدم واحدة فى الشوارع . مخلوق . سوى الكلاب الضالة المسعورة .

اندفعوا جميعهم خارجين مسرعين وفى أعقابهم المهاجر - المصرى - نازلين السلالم متداخلين فى الأجساد الكثيرة التى زحمت السلالم وما تحتها وطرقات البناية ، وقد عمهم الصمت ، فتحولوا جميعهم من رجال ونساء وصبيان ، الى عيون مفتوحة عن آخرها ، تعمل فيما حولها من فراغ نصف مظلم ، أما الآذان والحلوق ، فلا عمل لها ، لا كلمات ، ولا سماع لأناشيد الراديو الحماسية التى تبث غنائياتها عن لبنان :

- أحبك يا لبنان

يا وطنى أحبك .

ثم سيول الأخبار المميتة حتى العظم ، للتهديدات الاسرائيلية لجيش الدفاع ضد من ، هؤلاء الناس ، والأطفال الرضع . خرجوا أربعتهم الى الشوارع التى غطاها الصمت المترقب . لا سيارات ولا بشر ما عدا الكلاب التى تزايد سعارها ، فى عراك ضار حول أكوام الزبالة وصناديقها وروائحها .

ظلوا يمشون فى ظل الحوارى ميتة الحركة ، ومنها الى الشوارع ، الى أن قاربوا مبنى المستشفى التى تبدت وحيدة بيضاء ، تنبض فيها بقية حياة ، حيث تكوم الأهالى هنا وهناك ، وزحموا حديقتها قصيرة الشجر العسارية .

مرق سرب من الطائرات الأسرع من الصوت وعليها ثبتت كل العيون عاليا .

وكان قد انفصل عن العريض وفتاتيه الفلسطينيتين متخذا خطاه وحده باتجاه المستشفى .

ألقى السلام على الجرحى وأهاليهم ، وصافح أحدهم ، مندفعا صاعدا السلالم المفضية الى داخل عنبر الجرحى .

وما أن التقيا ، حتى أسرعت اليه ملقية بنفسها بين ذراعيه ، على مرأى من الجرحى والمصابين ، الذين ركزوا أبصارهم الكليلة عليها .

- ماذا يحدث ؟ .

أزاحت قناعها عن وجهها النضر المبتسم :

ـ لماذا جئت ٠

أفضى اليها بما يختنق به هذه الليلة :

ـ هذه الليلة الليلاء ٠٠

دعينى أتأملك ٠

قدمت الفتاتان مسلمتين عليها ، وفى أعقابها العريض ٠

ـ ما الأخبـــار ؟

ـ يزحفون أكثر باتجاه بيروت ، بمدرعاتهم ودباباتهم ٠

صرخ أحد المقاتلين الجرحى ، دفعة واحدة على صوته من خلفهم :

ـ تعـــالوا ٠

وبدا كما لو كان يهب لتوه من نومه أو يجاهد فى أن يهب واقفا باحثا عن سلاحه :

ـ خـــونة ٠

انسلت هى من بينهم منزلة من جديد قناعها على وجهها جارية اليه مسندة مهدئة ،معبرة بذراعيها المفتــوحتين ، وصدرها الرحب العريض وايماءاتها بكاملها ، خاصة تلك الابتسامة الحانية التى كانت ـ تفتق ـ الخباء أو القناع عن وجهها ٠

أخــذته فى صدرها ضامة معيدة رأسه المقــاتل الشبل على نهديها الحانيين الى وسادته ليعاود النوم من فوره كمثل طفل بين ذراعى أمه :

ـ بيتقدموا صوبنا ٠

صرخ العريض بدوره مهتاجا ، وهو يتراجع عن الشرفة المطلة على التلال القريبة ٠ كان المساء قد بدأ يحط جاثما :

العـــدو يزحف ٠٠ يقترب ٠

سمعت الطلقات المدوية تجيء من كل الاتجاهات الأربعة المسورة للمخيم فترة ٠

وبدا الترقب الشديد ، على وجوه الجرحى والمصابين الذين قاموا جميعهم عن مضــاجعهم فى تحفز ، بل ان البعض منهم تحــامل ممسكا بسلاحه ٠

انفتح الباب على مصراعيه ، حيث قدم أهالى المصابين وذووهم ، فلم يعرف من يحتمي بالآخر ، سوى أن الأمهات قاربت أكثر أبنائهن وبناتهن ٠

ــ مهرب ٠ ٠مغيث ٠

النيران القريبة تواصل حصارها ، حيث تساقطت المباني ، وارتفعت الحرائق والتهب الجو بكامله ، فتحول الفراغ الى كتلة متوهجة من نار تسد كل منفذ وأفق ٠

قاربته أكثر وهو يتداخل في الأجساد المندفعة التى راحت تتقارب وتتلاصق ، حتى أن الجرحي قاموا بدورهم عن سرائرهم وتلاصقت الأجساد أكثر فأكثر ، الى أن أصبحت كتلة واحدة قابلة على الدوام للاستزادة بقدوم بقية المرضى والممرضين والأطباء ٠

وتحول الليل ، الى نهار بفعل القنابل الفسفورية التى تفجرت فى السماء كاشفة كل أرجاء المعسكر وتفاصيله ، بل ان تفاصيل الجنود المعتدين ، بآلات حربهم التى تبدت أكثر شيطانية ووضوحا وهم ينسفون البنايات المحيطة التى نزل عنها سكانها ، متلاصقين على ذات النحو ، كمثل جسد واحد ، يتعذر انفكاكه ، لحين أن تحصدهم النيران فيسقطوا على ذات الوضع المتلاحم كتلة صماء واحدة ٠٠ جثة ٠

حاول محمود العريض ، وهو يتداخل أكثر فى الفتاتين وبقية الموجودين ، التنبيه لما يحدث ، صوت مكبرات الصوت العالية التى لا يصل صوتها بفعل القذف المتواصل والانفجارات وصرخات أهالى المخيم الذى تحول بكامله الى كتلة من النيران الزاحفة دون أن يسمع شيئا ٠

كان المعتدون يصعدون البنايات المحيطة والمواجهة بأيديهم مدافعهم وقنابلهم ، بل وسيوفهم وخناجرهم التى تقطر دما ، بفعل وهج القنابل الفسفورية :

ــ مذبحة ٠

أحاط بالمستشفى كتيبة كاملة من الجنود ، وبدوا وهم أكثر قربا مقنعين ، لا يبين من وجوههم المتحفزة للقتل والتمثيل بالجثث ، لتغيبه ملامحها ، سوى عيونهم الغريبة الملونة ٠

صرخ أحدهم بالعربية :

ــ العواجيز هنا ٠

هنا اندفع الجميـــع جريا ينزلون الســلالم · الا أن بقية الجنود المهاجمين ، تفرسوهم مسرعين ، معيدين الجميع ، فيما عداه ـ المهاجر ـ وفى اثره العريض الذى بدا للحظة مهدما لا يقوى على الوقوف ·

وقبل أن يستدير المهاجر ، كانت النيران قد حصدت الجميع من ثلاثة اتجاهات ، حيث سقطوا من أعلى السلالم كتلة واحدة ·

وتقدم الباقون بأيديهم سلاحهم الأبيض فمضوا من فورهم يجزون الرؤوس · أحس بأن عينيها كانتا تحطان عليه ، وهو يركض هلعا عبر الأستار ، وأحد الجنود يمزع بطنها عرضا :

ـ ابنتى ·

ظل المهــاجر ورفيقــه اللبنانى يجرون عبر أستار الليل ، وانضم اليهما بعض الراكضين والهاربين، الى أن خرجوا من أسر المذبحة··شاتيلا ·

كان ما يزال نائما على مقعده · رأسه الى الوراء وغطيطه المتقطع غير المنتظم يثير الركاب ·

حين أعلنت مضيفة الطائرة الوصول بسلام الى مطار القاهرة :

ـ ســـلام ·

وداخل ردهة الوصول بالمطار ، تمثل المنظر داخل مطار القــاهرة ذاته هذه المرة · الجنود الاسرائيليون بخوذاتهم النحاسية وأسلحتهم وعدوانيتهم ، يحيطون فتاته من جهات عدة مطلقين النيران الى أن سقطت ممددة على أرض المطار فبقروا بطنها · قال :

ـ هنا ··· هذه المرة ·

لصوص الموتى

- ١ -

منذ صباه المبكر ، كان قد بدا حياته كلص مقابر ، ومثله مثل بقية أفراد هـذا الكار الموغل فى القدم ، ربمـا منذ ما قبل الدولة القديمة والتاريخ برمته .. كان أعشى ، لا يرى نهارا وفى ضوء الشمس الا أنه يرى ليلا وله عينان كعينى القطط ، يضنيها الضوء ووهجه الساطع .

لذا اعتاد النوم نهارا غائبا عن كل وعى لا تزوره وتغزوه سـوى أحلام وكوابيس الموت المتقطع ، كوابيس وأحيانا أحلام وآمال الموتى وما يصطحبونه معهم فى مقابرهم من حلى فضية وذهبية ، بأحجارها الكريمة من زمرد وياقوت وفيروز ثركوازى ولابس لزلى وهو الحجر المعرق بالذهب ويطلقون عليه فى القرى المجاورة حجر سيف بن ذى يزن .

بدأ حياته برصيد الموتى من الأحياء المعاصرين من رجال ونساء وحتى الأطفال ، بحليهم وأكفانهم وتوابيتهم الموشاة بكل ما هو نفيس فى حالة الأقباط ومقابرهم .

وشيئا فشيئا شرب المهنة حتى الثمالة ، حين أحال نشاطه الليلى الى مقابر الأسلاف الغابرين من يونان وبطالمة ورومان وأقباط ، صعودا الى الفراعنة وكنوزهم الدفينة من توابيت ونايس ـ تؤنس الموتى ـ على شكل عرائس باهرة الجمال فارعة الأجساد ملونة .. كعرائس المولد ، ومن أوشبنيات مصنوعة من البرسلان والسيراميك وأحيانا المعادن حتى النفيس منها ، توضع مع الميت فى مقبرته ٣٦٠ أوشبيتى للدفاع عن رمته وحمايته ، وكان يجمعها من أعماق المقابر بالأغبطة والزكائب ، مع ما يوجد من معبودات ـ طواطم ـ لحماية الميت من ثعابين وحيات وأبناء آوى يطلق عليها أبا الحصين ، وقطط وجعارين وصقور ، وكتبة جالسين القرفصاء ناشرين صفحاتهم التى كتب عليها : تمام أفندم .

ناهيك عن الأقنعة والرسوم الزيتية التى تشير بوضوح الى تشخيص الميت ، وأيضا الرسوم والنسجيات والمشمعات واللوحات والبرديات من فرعونيـــة وقبطية للآلهة والآلهـات والعذراء والمرضعات والمسيح الطفل

والمحرض والمصلوب محاطا بالملائكة ، خاصة أربعة أركان التابوت والجهات الأربع ·

كان اسمه « سيد الطنساوى » ولقبه الذى اشتهر عنه « أبو عنين حمراء » نظرا لعطب عينيه وعشائه ، وكان قد بدأ يتواتر صيته من قرية الى ما يجاورها بدءا من أبى صير الملأ وخرائبها التى لا تنتهى ازدحاما بالمقابر الأثرية والآبار الرومانية ، ومجموعة الهوارات المجاورة ، واللاهوت والغرق السلطانى وكيمان فارس ، وحى الصاغة الذى تعرف فيه على تاجر أنتيكات ومساخيط عجوز ، يدعى المعلم « بسخيرون العجايبى » ، توسم فيه منذ أن التقيا ضالته ، فاصطحبه من حانوته الى داره المتاخمة ، وأعلمه وصب فى أذنيه الكثير من الأفكار حول هذا الكار القديم قدم الموت ذاته والذى تمرس فيه ربما منذ الطفولة ، فهو ينحدر من رحم أب تربى وأم ندابة محترفة ، ويقع بيتهم القديم على تخوم خرائب أبى صير الملأ أشهر وأغنى جبانات مصر الوسطى ، فهو بالسليقة يحمل فى طياته وكيانه كل مقومات النجاح وتحقيق الفوز فى هذا الكار الكنز مصدر ثراء الموعودين من تجار وصاغة وترابية من لصوص الليل الموهوبين الذين تدب أرجلهم حيثما الثراء والذهب الأحمر السيال ·

وأخبره الباسخيرونى بأن الذهب هنا لا يقتصر على معدنه وقيراطه المعهودين ، بل الذهب فى الأحجار الجلمودية وفى النسجيات والفخـار والبرديات والعملة والزجاج والجداريات والمخطوطات بل وقطع الثقافة التى قد تفوقه سعرا وقيمة ·

واستطرد معه يعلمه ويفتح حواسه وشهواته على هذا العمل السرى الليلى وخفاياه ، بدءا من كيفية التعرف على المقابر وكنوزها بمجرد ضرب الأرض بقدمه عبر صحارى ووهاد خرائب أبى صير الملأ والهوارات ، وهرم اللاهون المدرج ، وكيف يتسمع تطبيل الأرض من تحت قدميه ، ثم أقصر الطرق الى الحفر ، واستخدام الحبال فى حالة النزول ، وأعطاه شموعا مصنوعة من شحوم معينة ·

وحذره من الغوص فى أعماق المقابر ودروبها ومسالكها التى قد لا تنتهى فى حالة انطفاء الشمعة وانقطاع الأكسجين ·

وصب فى أذنيه من جـديد كيف أن هناك أشياء أكثر أهمية من الذهب ذاته من ذلك لفائف البردى وصور الموتى الملصقة برأس التوابيت فى موضع رأس الميت المنسجى ، ولفت نظره للكثير من الأشياء والعناصر

التى قد لا يوليها اهتماما ، مثل الأخشاب والأكفان والنسجيات الموشاة بالرسوم ، وحتى الفخاريات لها قيمتها وأسعارها ، فالعبرة هنا ليست مقصورة على الذهب ٠

وحذره من عدم تعريض مواده مرة واحدة للضوء ، ومن عدم غسلها بالماء :

ـ الماء أعدى أعداء الآثار ٠

وحتى تراب المقبرة عليه أن يجمعه ، ودربه على كيفية التعامل مع المومياوات ، وخلع أسنانها الذهبية ان وجدت ، وكذا أعينها العيرة ، وفك الأقنعة عن وجه الموتى والمومياوات باستخدام دفرات خشبية رقيقة ٠

ولم يغفل العجايبى من أن يطالبه بالتكتم والمدارات على الشموع ، هو ومن سيستعين بهم من الحفارين الذين يختارهم بكل دقة وحذر ، موهما اياهم بأنهم انما يبحثون عن الذهب ، الذى يعز تواجده ، ورغم ذلك فهو يدفع لهم أجورهم ، لحين الوصول يوما الى الكنز الدفين الذى يعز تواجده فى هذه البقاع الجدباء ٠

اقتاده العجايبى بعد أن استدعى ابنته فارعة الجمال « كلوديا » وأمرها بفتح مخزن البدروم ، وكانت تحتفظ بمفتاحه معلقا فى جديلة شعرها القرمزى ٠

وحين دلفا الى داخل المخزن العتيق بأرففه ودواليبه وأقبيته ، أطلعه على مجموعة من العاديات والتماثيل شارحا له قيمتها ـ النقدية ـ حينئذ تولاه الاندهاش قائلا :

ـ كده ٠٠ دى مراتى بترميهم فوق سطح البيت ، وتسند بهم البيبان ٠٠

وطالبه المعلم عجايبى بجمعهم وحفظهم واحضارهم اليه ، ودفع له أثمانهم مقدما ٠

قال الطنساوى غير مصدق :

ـ والورق بتولع به الكانون ٠

لطم عجايبى :

ـ البرديات ٠

وشهقت الابنة رائعة الجمال مكتملة الأنوثة التى كانت قد تملكت أغوار قلبه منذ أن أهلت عليهما بطلعتها المتوقدة ٠

قاربتهما ممسكة باللمبة الغازية رقم ١٥ ، كاتمة ضحكتها :

ـ النصوص ٠٠ فى الكانون ٠

أقسم الطنساوى فى ذروة اندهاشه :

ـ والخشب ٠٠ الوتايس ولفايف التماسيح

وكاد العجايبى أن ينهال عليه ضربا على مشهد من ابنته :

ـ بهايم ٠

- ٢ -

وبدلا من أن يتجه الطنساوى الى قريته أبى صير محملا بما أعطاه له المعلم من نقود سخية لمواصلة ما اتفقا عليه ، وجد نفسه ينزل مسرعا من أتوبيس ــ كافورى ــ فى موقف قرية متاخمة هى « أهناسيا المدينة » واتجه من فوره الى حيث حانوت صديقه ــ المبلى ــ ولدهشته وجده لا يزال مفتوحا ، وكان يعمل تاجر دقيق ، حط رحاله الى جانبه ، شارحا له فى لهوجة ما دار بينه وبين ذلك الخواجا من المدينة ــ واحتفظ باسمه تكتما :

ــ صحيح الكلام دا يا طنساوى •

ــ دا اللى حصل يا أبو محمد يا مبلى ، كل حاجة لها ثمن حتى الفخار والشقافة •

قال المبلى وهو يغمس بيده حفنة دقيق فى وعاء به زبد ويدفع به الى فمه :

ــ يا خسارة •• يا ميت •• خسارة • هه •• دا ياما حرقنا فى ورق أصفر وخشب ، ونايس وتعالب وصور ميتين وأكفنة وسجاجيد موشومة من كل حتة بالصور •• خسارة •

واقترح عليه غلق الدكان والذهاب للبيت ليتعشيا ويحتسيا العرقى ــ أول قطفة ــ ليطلعه على كومة من العملات الصدئة التى كان لا يزال يحتفظ بها خبيئة داخل بلاص ردة ، ويضع توابيت مغطاة بالرسوم والكتابات •

وخلال الطريق ظل الطنساوى يحكى لصديقه واصفا ذلك الجمال الباهر الذى لم يشهده قبلا فى امرأة وهى ــ كلوديا ــ ابنة الخواجا ، قوامها وشعرها الذهبى وعينيها الساحرتين وحديثها العذب واستحسانها للمجموعة التى باعها لهما اليوم • شهق :

ـ يا له من يوم •

ـ اشرب •

حمل الطنساوى شروة العملات البرنزية كابية الزرقة والاخضرار من أثر حزازات العصور فى صرة فى سيالته ودفع بسخاء لصديقه ، واتخذ طريقه ضاربا فى غياب العتمة الثقيلة ، قرية تشيله وأخـرى تحطه ، الى أن دخل أبا صير ، ومن فوره اتجه الى مقهى أو شبه غرزة تديره غازية ـ تائبة ـ تدعى « رحمة » اعتاد أن يلتقى فيها ليلا الحفارين والفواعلية والترابية من معارفه ، ممن عمل معهم •

أمسك عن أخبارهم بكل ما دار خلال مشواره القصير الى المدينة ولقائه بالصاغة واتفق على جمع الشمل للعمل غرب هزم اللاهون ، دافعا لهم على غير العادة عرابين مقدما . مؤكدا ضرورة الالتزام بالمواعيد والعمل بهمة ، فمن يدرى ؟ قد تصل أيديهم هذه المرة الى الكنز المرصود وهو الحلم الطاغى الذى يستغرق كل حفار ـ وباحث ـ :

ـ من يدرى •• ؟ بختك يا أبو بخيت • دى أرزاق •

وسخرت منهم صاحبة الغرزة ـ العايقة ـ وهى تقدم لهم أكواب الشاى الحنبضل ومعسلهم ، هازة رأسها :

ـ وآدى مقصيصى آهى يا عرر بالنفر ان لقيتوا حاجة زى كل مرة الا الفخار وخشب النعوش •

غمغم الطنساوى :

ـ وماله •• كله له تمن يا رحمة •• ياريت •

مضت تغنى وتطرقع بأصابعها وترقص :

ـ دى قولة : ياريت ما تعمر بيت ••

أما الطنساوى فبعد أن دفع العرابين وطلب من الحاضر اعلام الغائب، ببدء العمل فى اليوم القمرى المحدد الذى اتفقوا عليه ، لم ينم تلك الليلة ، ظلت تراوده وتتملك مخيلته صورة كلوديا ابنة المعلم ، وهى تبتسم له خفية وتقدم له أطايب الطعام والبوم المسكر ، وتأخذ جانبه فى المساومة

طالبة من أبيها زيادة الثمن وعرابين الشغل الجديد واصفة إياه دون أن تحدد اسمه بأنه :

ـ قدم السعد ٠

مما ألهب خياله فى تصـــور بمكان الحفر الجديد وتحديد مدخـل الجبانة وموقعهـا من الهرم المدرج ، متذكرا ما ذكره له أخـاه الأكبر ـ مسعود ـ الذى كان قد عمل لسنوات مع البعثة الأمريكية كرئيس عمال فى مكان آخر يعمل ويقبض ويأكل معهم فى مكان مغلوط ، أما هو فكان على دراية يقينية بمدخل الجبانة لكنه رفض اعلامهم ٠

وكم حاولت رئيسة البعثة الغربية الخوجاية جرجرته فى الكـلام لينقذ الموقف وينقذ سمعة البعثة بكاملها التى لهثت لسنوات للوصول الى المدخل ، فأصر على ـ الملاوعة ـ والانكار ٠

وكم عرضت عليه من أموال وهدايا ، حتى نفسها وجسدها ، فأخذ ما أخذ مصرا على الانكار ذاكرا :

ـ هو أنا أهبل مهطول ٠٠ أديهم كنز العمر ٠٠

وظل يحلم باليوم الذى سيتمكن هو فيه من تمويل عملية فتح الكنز وكأنه على دراية يقينية بمحتوياته ودهاليزه وخفاياه :

ـ ايمته ييجى اليوم ٠

وها هو اليوم يطل برأسه ٠ أجل هذه المرة ٠٠ لكن الأخ الأصغر ـ الموعود ـ ، قام عن فراشه منسلا من بين أحضان زوجته وأولاده الأربعة ، دافعا عنه أجزاء جسدها المترهل ، نازلا من أعلى ظهر الفرن الذين اعتادوا اعتلاءه شـتاء ، متحـركا فى جنبات البيت ، فأكل حلوى « كلوديا » وهداياها من بسيمة وبسبوسة وصنع شايا ، واستغرق طويلا فى اعادة تصور مدخل الجبانة المرصودة ، كما سبق ان تعرف عليها من فم أخيه الأكبر الحاج مسعود ، وهو الخبير المحنك الذى توارث مهنة الترابية أبا عن جد ، وكان يرفض الافصاح عن خبراته الدفينة هذه لأى انســان ٠٠ سـواه ، وهو أخيه الأصغر ـ الصامت المطيع (الطنساوى) ، فكيف للطنساوى الأصغر أن يخونه يوما ، سالبا عنه سره الذى أخفاه عن أكثر من بعثة أجنبية تناوبت الحفر فى هذه البقاع الصخرية المترامية التى

دأب القوم على تسميتها بالملاة ، حتى الجامعة الأمريكية التابعة لولاية بنسلفانيا ، حابسا سره حتى عن فاتناتها من النساء ، اللائى يفتن الحجر بجمالهن الطاغى وأجسادهن نصف المكشوفة التى أحالتها سخونة الشمس الى الاحمرار القانى :

ـ أبدا أبدا •

وها هو سر الوصول الى فم المقبرة العملاقة يقفز قفزا الى ذاكرته ومخيلته ، مسترجعا تلك الخارطة الترابية التى كان أخوه الأكبر الحاج مسعود يرسمها بعكازه على التراب • كيف له أن ينسى ، وهو الذى دأب على جرجرته فى الكلام والاستفاضة عن نوادره مع البعثة الأجنبية ، وكيف انه تركهم على عماهم يواصلون بحثهم لسنوات دون الوصول الى شىء يذكر ، عائدين فى نهاية المطاف بخفى حنين كما يقولون ، بينما هو يحتفظ بالسر اليقين لمدخل الجبانة الملكية التى ترجع الى الدولة القديمة وعصر بناة هرم اللاهون المدرج ، وربما أكثر قدما •

وللحظة خاطفة برز الى رأس الطنبساوى ذلك السؤال المؤرق ، فكيف له أن يستلب سر أخيه الأكبر الذى ظل يتكتمه عنه لسنوات طويلة مضنية ، ثم ها هو يقدم اقتناصه منه ، دون أدنى بادرة ذنب أو استحياء • ما الذى حدث ، تراها شهوة النقود والثراء ، أم تراها من •

ـ كلوديا •

ذلك الحنان المتدفق دافىء المشاعر الذى أحاطته به ، وكأنها على دراية بقدراته ، حين كانت تسلط عينيها النفاذتين الفاتنتين داكنتى الاخضرار على عينيه مستطلعة أغواره :

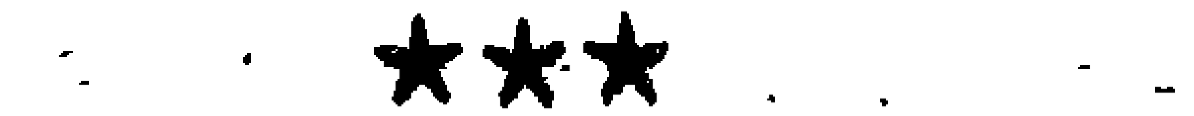
ـ يا له من يوم •

استلقى نائما وسط أسرته ، وهو يغلى ويفور بحلم استجلاء سر الكنز الدفين ، الذى استلبه عن أخيه الأكبر منذ الصغر ، وظل دفينا فى أعماقه الى أن التقى بها :

ـ كلوديا •

زفر طويلا على سطح الفرن الملتهب بجمر خشب الدوم والجرجوب :

ـ يسوم •



- ٣ -

وخـلال دأب الحفر ـ أو البحث ‥ أو البحث ـ كمـا يعرفونه الحفارون من العمـال والفواعليـة ، وهم يعملون بمعاولهم كمثل عمال التراحيل ، مدججين بالظلام تخوفا من العيون الراصدة من كل جهة ٠

تذكر الأخ الأصغر تلك الحكاية التي كان قد سمعها من حكائين البلدة ، بل ومن أخيه الأكبر ذاته ٠

عن ذلك البناء العتيد باني قصر الملك ـ الفرعون ـ وكان الوحيد الذى على دراية بمداخل الكنز الذى يحتويه وما يحويه من أموال وذهب ومجوهرات ونفائس ٠

وقبل أن يموت البناء الماهر ، اسـتدعى ابنه الاكبر وأخبره عبر هذيانه عن الكيفية البسيطة التى يمكن له بها اخضاع كنز الملك وفتحه ، ثم أسلم الروح ٠

حتى اذا ما ضاقت الحال بالابن الأكبر ، واستحالت دنياه بأسرها الى سواد غطيس فى عينيه عقب موت الأب البناء المفاجىء ، ولم يجد له مهربا ‥ استبد به حلم الكنز وكيفية معرفته بسره وفتحه ٠

وانقاذا لما حل به وبالأسرة ـ بعد ان أخذ مكان أبيه عقب رحيله ـ من جوع ومذلة ، قرر بعد طول تردد ومخاوف عاصفة من جانب الفرعون المتسلط المنتقم واذنا به ، التوجه الى قصر الفرعون وترصـد شـواهده الشـاهقة وقلاعها ومداخل سراديبها التى تقود الى حيث خزائن الملك المستعصية على كل من تسول له يده مجرد الاقتراب منها ومن فخاخها ‥ سواه ٠

حتى اذا ما استكمل رصد خطته العسيرة التى كان قد أفضى له بها أبوه بنـــاء الملك المحتضر ، منفذا بكل دقة ، أفضت به الى فك مكنون الخزائن الدفينة فأخذ منها ما أتيح له من مال وذهب ونفيس الأحجار عائدا ليلا الى داره ، فأخفاها عن العيون حتى عينى أمه ذاتهـا وأخيه الأصغر بخاصة ٠

ودارت الأيام دورتها الكؤود ، وجن جنون الملك الفرعونى المتسلط حين اكتشف افتضاح سر كنزه ونهب الأثير اليه من مقتنياته العزيزة التى لم يكن يغمض له جفن ان لم يمتع نظره بها ، محققا انقطاعه عن مشاغله اليومية الثقيلة المؤرقة المستعصية عن كل حل ، من صراعات داخلية للبلاط تغذيها الأحقاد الدفينة وجنون التسلط والصعود ، وصراعات خارجية للطامعين فى مصر وخيراتهـا من آسـيويين هكسوس وحيثيين وأحبـاش وغيرهم ٠

انها اللحظة الوحيدة التى تسنح للملك الفرعون للغياب عن مشاغله وأعمال فكره ، حين يدلف فيها سرا ليلا الى حيث السرداب الموصـــل الى الخزنة الكنز ، خالعا عن كاهله أقنعة ومثقلات الحكم والسـلطة ، ليستحيل الى طفل يلهو بدومياته ، من منحوتات ذهبية ونادر الأحجار الكريمة من ياقوت وزمرد ولازورد وفيروز سيناء التركوازى ولابس لازولى وأحجار قمرية ٠

يتأملها معيدا تنسيقها على ضوء الشموع مستلقيا على أريكته الملكية ، مطلقا العنان للحكاية والأحدوتة أو النادرة المصاحبة لكل تحفة وظروف جمعها ، سواء أكانت قلادة أم سوارا أم تمثالا أو ما يتصل بلوازم التاج وارثه : فهل يجىء اليوم الذى يفقـد فيه عزيز مقتنياته وارثه ، ومن تراه جرؤ على فك طلاسم خزائنه ٠

فى البداية أفرغ الفرعون شحنات غضبه الجارف على رءوس مرءوسيه وحراسه وأولياء شئون أمته داخل قصره ومضجعه ٠

لكنه حين هدأت ثورته استقدم رئيس وزرائه العجوز الحكيم مفكرا :

ـ دبرنى يا وزير ٠

ـ التدابير للاله ولك يا ملك الملوك ٠

قال :

ـ أنا شايف ان اللص الجهنمى اللى وصل لهنا وسرقنى امبارح ٠٠ لازم حاييجى بكرة ٠

ـ أكيـد ٠

استدار مفكرا مهموما داخل ساحات قصره الشاهق وهو يدق أعمدته المرمرية فى حنق ، عائدا فجأة مواجها وزيره مطبقا على عنقه :

ـ فهمت ٠

ـ أجل يا مولاى ٠٠ والفخاخ جاهزة ٠

وهكذا نصب الملك بنفسه الفخ السرى على عتبات خزائنه ٠

حتى اذا ما أشيع خبر ذلك الثراء المفاجىء الذى اعترى الأخ الأكبر ، والحاج الأصغر وتلصصه اليومى لمعرفة السبب مطبقا الخناق على أمهما ، الى أن باحت له بالسر ، وقرر الذهاب الى حيث المدخل السرى لخزائن الفرعون ، أطبق الفخ على عنقه دون افلات ٠

وحين علم الأخ الأكبر من الأم ليلا بفعلته ، ركض كالمجنون ليجده على هذا النحو متضرعا ليخلصه :

ـ ارحمنى الفخ ٠

وهنا لم يجد الأخ الأكبر بدا لتخليصه وبالتالى تخليص نفسه من الفرعون الهائج وانتقامه الأسود ، سوى أن استل سيفه وقطع به رأس أخيه ، ثم لف الرأس نازف الدم القانى داخل عباءته وعاد به الى البيت فألقى بالرأس فى حجر الأم المنكوبة النادبة المنتحبة بلا صوت ، تخوفا من عيون الفرعون وجواسيسه ٠

وحين وصل ـ الطنساوى ـ الى هذا الحد من الأحدوثة التى تتابعت فى مخيلته وهو يواصل تقدمه بالحفر أمام رجاله وعماله ، وكانوا ساعتها قد وصـلوا الى مدخل الدهليز الأول الذى يقود الى سرداب المقبرة ، استدار مأخوذا آمرا الرجال بالتوقف عن الحفر ، هكذا دون سبب واضح :

ـ استنوا لحظة ٠

وتعالت الهمهمات المتساءلة :

ـ خير وصلنا المدخل ٠

ـ لأ ٠٠ أبدا ٠٠ أبدا ٠

اندفع الطنساوى جاريا باتجاه مدخل الخروج طلبا للهواء النقى ، كمن يدفع عنه كابوسا ، ملقيا بجسده بكامله ممددا على رمال الصحراء والوهاد ٠

ـ يا ساتر ٠

حتى اذا ما لحق به الرجال بعد أن أطفئوا شموعهم وتكاثرت الأسئلة وهم يسقونه ماء :

ـ خير يا « أبو رمضان » ، ايه الحكاية ٠٠ حاجة قرصتك ٠

ـ لأ ٠٠ أبدا ٠٠ أبدا ٠

ظل يتقلب يمنة ويسرة ، وهو يدق الأرض بقدميه وساعديه كالذبيحة على مرأى من الرجال المشدوهين وأكبرهم سنا وخبرة صديقه المقرب « أبو جابر » الذى تمدد بدوره الى جانبه محاولا التخفيف عن آلامه وعصبيته وما حل به فجأة :

ـ ماذا به ؟

انه لم يسبق له أن كتم عنه سرا منذ صباه ، بل ومنذ أن تزاملا فى هذا الكار الليلى ٠٠ هتك المقابر وسرقتها ٠ تساءل أبو جابر وهو يستدير الى حيث فوهة المقبرة المطلسمة التى استعصت على كل من حاول الاقتراب منها ، حتى الخواجات الأجانب من أمريكان وألمان وانجليز ، فشلت حملاتهم وبعثاتهم فى اخضاع مكنون أسرارها ومداخلها ، وعادوا الى بلدانهم بخفى حنين :

ـ مالك يا طنساوى ؟

ـ مش عارف ٠

همس أبو جابر :

ـ لأ لأ ٠٠ دى مش طريقة شغل دا احنا لسه برا وبالطريقة دى الرجالة اتوغوشوا ٠

ـ أبدا أبدا ٠

تماسك الطنساوى جالسا مشعلا لفافة ، مقترحا على أبى جابر صرف الرجال الى بعيد وايقاف العمل مؤقتا والانشغال بالأكل •• ودش البصل وعمل شايا ثقيلا علقما ، محققا اختلاءه بصديقه القديم العجوز الذى كان في سنواته الأخيرة قد اتخذ منه بديلا عن الأخ الأكبر •

ضحك قليلا زافرا حين داعبه أبو جابر بالمحبوبة الجديدة التى تملكت مشاعره :

ـ تراها كلوديا •

ـ ياريت •

ـ ماذا ؟

وأفاض معه الطنساوى بتلك الحكاية الكابوس التى يعرفها وسبقا أن تندرا بها حول كنز الملك واضطرار الأخ لقطع رأس أخيه ، وربط بينه وبين الأخ الأصغر فى الحدوتة الذى سرق سر أخيه الأكبر مما اضطره لأن يقطع رأسه ليخلصه من فخ الملك الطاغية صاحب الكنوز •

شربا الشاى العلقم وأضاف الطنساوى :

ـ وزى ما أنت عارف يا أبو جابر •• أنا سرقت سر فتح المقبرة دى من أخويا الكبير •

ـ عارف •• عارف •

اضطجع الى جانبه :

ـ بس فين هيه المقبرة •• دا احنا لسه على البر ولما نصل للى فيها يبقى يحلها حلال يا طنساوى يا بنى •

غمغم الطنساوى :

ـ بس احنا بنعمل حسب رأيه بالضبط •

استدار مجددا :

ـ وآدى التلال التلاتة ، والصنمين •

سخر أبو جابر :

ـ تلال ايه وأصنام ايه • •ياريت ونبقى نراضى يا سيدى أخوك الكبير ، ياخد اللى هو عايزه ، نخلى الدهب له ، واحنـــا ناخد ونكتفى بالكناسة •

تساءل :

ـ مش دا رأيك يا طنساوى ان كله له تمن حتى الطين والفخار ٠

وأراح هذا الرأي الطنساوى ، فهب منتصبا متذكرا :

ـ طيب افرض ان حد من الرجالة قاللوا على اللى بنعمله ٠

أجاب أبو جابر مخرجا من جيبه مصحفا صغيرا :

ـ يبقى نجيبهم راجل راجل ونحلفهم على الختمة ٠٠ دى ٠

***

- ٤ -

واصلوا الحفر الليلى لأيـام وشـهور دون جدوى ، حتى نضبت نقود « البسخيرون » وابنتـه كلوديا التى كانت بمثابة القوة الدافعة للطنساوى ، كما كانت قد أوحشته كثيرا واشتاق الى حنانها وخمرتها ، فقرر الرحيل الى المدينة وطلب المدد منهما ٠

واستشار فى هذا صديقه أبا جابر الذى شجعه وبسط له الأمور ، ومن بدأ مشروعا كبيرا كهذا فلابد أن يواصل العمل المضنى فيه لحين اتمامه ٠

وهكذا حمل الطنساوى صرة العملات المعدنية التى كان قد سبق أن اشتراها من صديقه تاجر الدقيق باهناسيا المدينة ، وركب الأتوبيس الذى أنزله عند السـواقى بحذاء بحر يوسف ، فاتخذ طريقه الى حى الصاغة ، حتى اذا ما قاربه ، وجد كل شىء على غير عادته ، وحين سأل عما يجرى أخبروه :

ـ النهاردا حد السعفه ٠٠ العيد ٠

كانت الرايات والزينات الملونة تغطى فراغ الشارع والأولاد والبنات فى ملابسهم النظيفة البراقة يلعبون ويتسابقون الى الملاهى التى تزحم الميدان وكان كل شىء يدعو الى البهجة ، وفرق الموسيقات الشعبية تخالط الغناء وموسيقى الأورج الكنائسية تصدح من داخل الكنيسة وساحات الدورة ، وعربات الحلوى والشربات هى الأخرى تزرع شـوارع الحى وحاراته ، مزدانة بالبالونات والبراريج وصور العذراء ـ المرضعة ـ وطفلها تتصدر ساحات وبوابات الدور :

ـ يوم مليح ٠

وتذكر فى كل خطوة وايماءة وجه كولوديا الصبوح الذى لابد وأن يكون فرحا فى يوم كهذا • الا انه تهيب من مواجهتها •• خاصة على هذا النحو ودون احراز لأدنى تقدم فى الوصول الى مدخل المقبرة الكنز الذى أنهكه وأنهك رجاله العمل بها دون جدوى ، بل ودون أدنى بارقة أمل وكان فى الأمر أحبولة أو طلسم خفى ، من ذلك الذى لا ينقطع له تردد على أفواه الجهلة والعوام من حواديت وخرافات الكنوز المطلسمة التى عادة ما يضطلع بحراستها ديك وحشى ، أو كلب مسعور أو حية لادغة تسبعى يسمونها « أسد التراب » أو حتى جعران ينفث الموت المحقق ، لكل من تسول له نفسه الاقتراب من المقبرة الكنز •

الا أن الطنساوى لم يكن يعطى آذانا صاغية لمثل تلك الأقاويل والتلفيقات ، وتحاشاها رافضا منذ الصغر ، فما هى سوى تعاويذ العجزة والمغاربة التى يذكر لهم حنكتهم فى فتح أعتى الكنوز المطلسمة :

ـ كلام ابن عم حديت •

وحين واجه حالق الدرب الذى يتصدر بيتهم العالى واجهته ، لم يجرؤ على الخطو والدخول اليه ، عبره حتى دون أن يطل عليه ، كمن يخفى نفسه عن عيون مسهدة بانتظاره • آكل بليلة بالمكسرات على مقهى مطل على بستان صغير ينتصب فى وسطه كشك موسيقى •• وأنغام تصدح وأولاده من كل سن يلعبون ويلهون بمراوح وأيقونات عيد السعفة ، الى أن استجمع نفسه واغتسل بماء البستان الضنين ، وعاد سائرا باتجاه الدرب ـ الجيتو ـ داخلا ، رافعا الرأس هذه المرة للبيوت العالية ذات الطابقين والثلاثة بيلكوناتها وترسيناتها وزهورها الفواحة ونباتات العليق والخروع والياسمين ناصع البياض يغطى الجدران التى تساقطت عنها ألوانها البهيجة التركوازية التى كانت •

الموسيقى يخالطها الغناء الجماعى تزحم أذنيه ، ويده كانت هذه المرة تتحسس صرة النقود المعدنية داخل سيالته :

ـ كلوديا •

ما ان لمحته من ترسينتها ، وكانت كما لو كانت تسقى أصص زرعها وأقفاص حمامها الزاجل ، حتى جرت من فورها نازلة السلالم الخشبية :

ـ أهلا أهلا •• تفضل ادخل •

استبقت يده الخشنة فى يدها البضة لفترة دفعت به الى تخطى عتبة الدار ليصبح معها داخل ساحة البيت المعطر برائحة الكحك والمنين والباسكويت والغريبة :

ـ أعد .. كل .

ـ كل سنة وأنت طيبة يا ست

ـ هاه خير .. وصلتوا لفين .

انطلق يأكل أطايب العيد .. السعفة دون أن يجد جوابا :

ـ لسه .

ـ لسه .. ليه

زفرت وهى تقاربه وتنتقى له ما يأكله :

ـ نفسى أبقى معاك يا طنساوى وأتفرج عليكم تحت هرم اللاهون .. فى ضوء القمر وانتوا بتعملوا .

وتزايد اعجابه بها وصدق رغبتها ، وكما لو كانت على دراية بما يحدث ، ولم لا ؟ وهو الذى شهد فتيات العالم من الحفارات يعسكرن وأحيانا ما يشاركن فى الحفر بحثا عن مداخل المقابر الأثرية وكنوزها الدفينة المستعصية دون كلل .

ـ تشرفنى يا ست .. كفاية بس وشك السمح .

قال :

ـ دا وشك كله خير .

مد يده الى جيب سيالته على استحياء مخرجا صرة النقود وقدمها لها مغمغما :

ـ هدية .. حاجة تكسف .

وسأل عن الوالد ، فأخبرته بأنه يعيد على جيران قريبين وهو على وصول ، فاعتراه حرج شديد ، قطعته هى بأن قامت من فورها فأحضرت مزيدا من الطعام والحلوى ، دافعة به لأن يأكل ويأخذ الباقى للطريق . وحين طلب ماء ، أحضرت له خمرا من النبيذ الأحمر القانى .. مشروبه المفضل .

وحين اختلت بصرة النقود وفتحتها متأملة فى فرح طفولى ، رغم أنها لم تكن ترى شيئا من صدأ العصور ، الا أنها هبت منتصبة مشدوهة غير مصـــدقة وهى تجلو بأصبعيها احدى العملات الصغيرة صارخة من أعماقها :

ـ معقول ٠

هب واقفا مقاربا وهو يتأمل « العملاية » اللامعة فى يدها ، وكلوديا تجلوها بمفرش احدى الطاولات باندهاش :

ـ هيه

ـ أيه

ـ أغلى عملاية فى العالم ٠ ٠معقول ٠

غمغم :

ـ يا ست دى هدية بسيطة ٠

وهاله صفاءها وصدقها الذى لم يسبق له أن يشهده فى تاجر أو مشتر :

ـ هدية ٠٠ مليون ٠

ـ مليون ٠٠ ما معنى هذا ٠

أخذت العملاية الصــــغيرة فعالجتها فى حرص بسائل ، وقاربتــه محتضنة وهى تقلبه فى كل وجهة :

ـ هيه ٠٠ دهب ٠

ـ دهب ٠

مضت ترقص قافزة كمن فقدت صوابها باحثة عن شىء وهو فى أعقابها غير مصدق ، متحركة فى جنبات البيت الأنيق الى أن عثرت على ضالتها وكتاب قديم مصور مضت تقلب صفحاته ، الى أن توقفت عند احدى صفحاته ومضت تقرأ الوزن والوصف والتاريخ والثمن :

ـ الميزان ٠

جاءت بميزان الذهب ووزنتها :

ـ هيه يا طنساوي ٠

قبلته من جديد محتضنة ناشرة بهجتها فى كل جنبات البيت :

ـ ياوش الخير ·

وفجأة جاء الأب ، مرحبا فاندفعت مقبلة محتضنة اياه وهى تريه العملة البطلمية :

ـ العملة النادرة ·· هيه اللى عملها بطليموس فلادفيوس لحبيبته بمناسبة زواجه ، وسبب ثراء بطليموس الزمار وكنوزه ·

غمغم الأب :

ـ معقول ·· وزنتيها ·

ـ بالضبط ·

ـ مضى الأب يتأملها من جديد بعدسته المكبرة :

ـ صحيح يا كلوديا ·

وأخبره الطنساوى على بساطته الفطرية بأنه جاء بها من صديق قديم تاجر دقيق باهناسيا المدينة ، صرخ الأب :

ـ هيه فعلا ، ما تطلعشى الا من اهناسيا المدينة ·

ضاحكهم الطنساوى مخففا :

ـ هيه لا مدينة ولا حاجة ·· مجرد قرية بائسة ·

ضحكوا طويلا محيطين بالعملة الضنينية الكنز ، وكلوديا فى أقصى سعادتها ، واحتفلوا باحتساء النبيذ الأحمر الذى تبدى فى الأكواب ؛ مع دخول المساء واشعال الأنوار كمثل دم قان ·

وحكى لهما الطنساوى كيف ان الفلاحين والحفارين يعدمون كل شىء تكشف عنه أرضهم وآثاثات بيوتهم من عملات معدنية ـ فيما عدا الذهبية ـ لبرديات وتوابيت موشومة بالرسوم ، ونسجيات وأحجار حتى الكريمة منها والأخشاب والبرسلان والفخاريات ، طالما أنهـــا لا تبـــاع ولا تشترى ، بل هى مصدر أخطار مع الحكومة التى تطاردهم ليل نهار ، وتستولى على بيوتهم وحقولهم فى هذه النواحى المترامية ، اذا ما أعلن عن وجود مقبرة أو مساخيط ·

قال المعلم بسخيرون العجايبى :

ـ مصيبة تقيلة ·

وأضافت كلوديا :

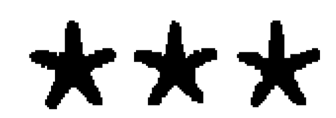
ـ معاهمحق الفلاحين الغلابة ·· يعملوا أيه ·

ثم اقترحت كلوديا ان يمضى الطنساوى الليل هنا يبيت فى غرفة المسافرين لحين تدبير ولو جزء بسيط من ثمن العملاية « الأرسينوى » غالية الثمن ·

وفى الصباح هب المعلم عجايبى فاتخذ طريقه الى الصاغة مدبرا بضعة آلاف للطنساوى قائلا :

ـ تحت الحساب يابى ·· بس لحد ما أسافر أبيعها · وخد اللى انت عايزه ·

ولم يصدق الطنساوى ما يسمع ويرى ، بل هو عاد فى اليوم التالى الى حيث عماله ومشاريعه مزهوا ذاهلا غير مصدق ·



كالعادة عرج على صديقه تاجر الدقيق باهناسيا المدينة ، مقررا ومحضرا نفسه وهو يقص عليه ما حدث مفضفضا عن حبه الجارف الطاغى لكلوديا ومدى صدقها وصفائها والقبلات التى غمرته به ، ودون اغفال لأطايب الطعام والشراب الذى حمل منه (سبت سلال) ليقدمه هدية لصديقه القديم .

وكما أن الكذب والمداهنة عدوى فى نقل الوباء ، فان الصدق بدوره سرعان ما يفرض طغيانه .

وهكذا فاجأ الطنساوى تاجر الدقيق ، بأن السبب فى كل هذا ، واحدة من عملاته الصغيرة الضائعة وسط أكداس العملات البرنزية الكبيرة والصغيرة :

ـ كيف ؟

ـ مالهاش مثيل .

ـ صحيح .

دفع الطنساوى يده الى سيالته وأخرج كومة كبيرة من الجنيهات ملقيا بها فى حجر صديقه :

ـ خد يا عبد النور .. عد .

ـ أعد كل دا ليه ؟ .. كيف ؟

ـ حقك يا عبد النور يا صاحبى .

ـ صحيح يا طنساوى يا بنى الحق حق .. بس كل دا .

التفت فجأة مزاوذا الطريق ، دافعا بصرة النقود الى جيب صديريه غير مصدق :

ـ كل دا عشان عملاية قد المليم .. واحنا هنا بنرمى أكوام زلع مليانة فلوس من دى خرده .. لحداد البلد المعتوه .. شعبان .

استوقفه الطنساوى :

ـ شعبان . شعبان مين ؟

ـ الحداد .. شعبان أبو أرينه .

ـ أرينه .

ـ أيوه .. ما هو عليه أرينه ، ماسكاه وراكباه وكل يوم والتانى تطلع عليه ، وترميه فى وسط الحارة زى القتيل .

هب الطنساوى طالبا من تاجر الدقيق اصطحابه الى حانوت الحداد بحثا عن العملات .

اغلقا دكان الدقيق ، ومضيا يضربان فى دروب اهناسيا المدينـة مع دخول المساء ، الى أن شارفا حانوت شعبان الحداد ، وهالهما ما رأيا .

حشد كبير من النساء والفتيات بلمباتهم نمرة خمسة وفوانيسهم متجمهرين أمام الحانوت ، والعيال والصبيان يصرخون ويهللون :

ـ شعبان مسكتوا الأرينه .. العفريته .. النداهة .

حتى اذا ما اخترقا بصعوبة حلقة النساء والأولاد ، وجدا شعبان ممددا على التراب يتلوى ضاربا الهواء برجليه وساعديه ، وقد تورم وجهه مكفهرا أصفر طاردا عن فمه رغاوى فمه معانيا لا ينطق :

ـ هاه .. آه . غيتونى .

صرخ تاجر الدقيق فى اللمة الساخرة من حوله من نساء وصبيان :

ـ ابعدوا يا رمم البلد دى وسع منك له .

مضى يدلك بيديه رأس شعبان قارئا تعويذة فى أذنه فترة الى أن استجاب شعبان وسكنت أطرافه ، فأسبل عينيه غائبا عن وعيه الى أن أفاق من اغماءته ، وهب جالسيا آخذا رأسه بين ساعديه :

ـ يا ساتر .

حتى اذا ما انفض الجمع عنه ، وتسللت النســـاء متندمات وهن يتندرن بمآثره :

ـ مسكين ماعمروش أذى حد • وعايش وحيد ونافع البلد كلهـا ؛ يعمل ويسن ويصلح كده من غير أجر •

قالت امرأة :

ـ دا ماعمروش طلب أجر • مايعرفش الفلوس شكلهـــا أيه • ولا يعرف يعدها ، ويبقى ميت من الجوع وناسى نفسه فى الشغل ليل ونهار يخدم فى الصغير والكبير ونافع كل البلد •

قالت امرأة أخرى وهى تخترق الجمع مقدمة له كوز ماء وملونة ، الى أن تقدمت منه ساندة رأسه على صدرها وهى تسقيه وتعصر له الملونة فى فمه المزبد :

ـ حرام عليكم كده ، كل يوم تزفوه وهو بيتلوى على التراب زى المسعور • حرام •• شعبان اللى عمره ما رد لحد طلب ، ومافتش حصاد ولا عامل تراحيل ماصلحلوش شراشره وطوره • مفيش جزار ماصلحلوش ســاطوره ، ولا نجار دا الحداد الوحيد فى البلـد دى يا عم واللى نافع العالم •• كل يوم تزفوه وتمهزءوه •• حـرام اشرب يا بنى ، ياللى خيرك على الجميع • اشرب •

وما ان استقر شمل ثلاثتهم داخل حانوت الحداد بعد ان تفرق الجمع ، وتأمل الطنساوى شعبان ، حتى أخرج بضعة جنيهات أعطاها لتاجر الدقيق قائلا :

ـ مافيش أرينه ولا حاجة عند شعبان ، شعبان بيشتغل كتير للبلد زى الطور ، ومابيكلش مابيتغذاش •• شعبان عنده أنيميا •• نقص فى الغذا ، راعيه وهت له رطلين كلبه كل أسبوع ، وهو يروق • ولا أرينه ولا هبل •• وخده المستشفى يبقى لك ثواب يا (أبو توبة) •

وفى الداخل تمدد شعبان على حصيرته وفراشه لا ينطق ، تاركا لهما الدكان بما فيه ، فمضيا يبحثان فى أكوام الحديد الخردة ، وكلما عثر عبد النور تاجر الدقيق على كمية ملقاة وسط الخردة من حديد أسنان المحاريث والنوارج والشراشر والســواطير ، دفع بهـا الى الطنســاوى آسفا متندما •

ـ خد يا سيدى ، وكل دا من الحكومة وقوانينها ‥ من الخوف والمصـــادرة والتهديد ليل نهار ، كل اللى يلقى شـــوية فلوس قديمة والا مساخيط يونانى رومانى عربى عثمنلى ، يرميهم لشـــعبان ويخلص نفسه ، وشعبان يرميهم فى النار يخلطهم بحديد الشراشر والطوز ، ويشد الكور يحرقهم بالنار ، وآدى اللى احنا عايشين فيه بسبب قوانين البهوات اللفندية المهيمنين على الآثار وهم بيحرقوها حرق النار ٠

تصعب الطنبساوى :

ـ صحيح حكومات اللفندية اللى مش دارين بحاجة وقال بيحافظوا على الآثار ‥ وهمه أعدى أعدائها ‥ تصور الظلم والافترى ٠

مضيا يتأملان بضع عملات توهج بريقها تحت المبرد وعبد النور يواصل تندمه :

ـ شايف ‥ كله دا فى النار ‥ منهم ومن ظلمهم وغشمهم ‥ أصلهـا سبوبة حلوة لهم بس ‥ ويحرموها علينـا ‥ طريقة خدوهم بالسوط ٠

قال الطنساوى :

ـ سبوبة لهم ‥ آهو دا الكلام يا بويا ٠ لهم بس ‥

كان شعبان الحداد قد غاب فى سبات نوم عميق وعلا شخيره مدويا فى جنبات حانوت الدار الذى لا باب له ، فتركاه على أمل أن يرعـــاه عبد النور بالأكل والمقويات ، حتى يشفى ٠

ـ ولا أرينه ولا حاجة ‥ دى الأنيميا ‥ الجوع ٠

وما أن انتهينا حتى أضر تاجر الدقيق على اصطحابه للعشاء والسهر واحتساء عرقى اهناسيا المدينة المتوارث منذ الفراعنـة والذى كانت تحتسيه قرى بأكملها مع دخول الليل الغطيس ‥ هربا من الوقوع فى براثن التفكير فى معضلة الموت والفناء وخرافات عذاب القبر ، والملكين ناكر ونكير ٠

وحين عاد الطنساوى الى بلدته المجاورة أبى صير الملأ ، تردد طويلا فى القيام بزيارة الى قرية هوارة المقطع ، وحيث يقيم أخوه الأكبر السيد ، ولو من مدخل الاستطلاع لما يحدث ويجرى شرق هرم اللاهون المدرج ،

فقد يكون على علم بالأمر وتمويله لعملية ـ بحث ـ مضنية ، لفتح المقبرة المرصودة ، كما قد يمهد له الطريق بعد أن يسحبه فى الكلام عن كيفية الوصول الى مدخلها ٠

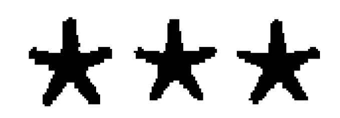
الا أنه تردد من الذهاب وطرق باب بيت أخيه الأكبر لمجرد التلصص عليه واستلاب أسراره وخصوصياته ، وعاودته حكاية ابنى بنـاء قصر الفرعون اللصين واضطرار الأكبر لقطع رأس شقيقه الأصغر نتيجة للخيانة والجشع ، فمن يدرى فى حالة الوصول الى سر المقبرة الكنز ، وتواتر الخبر الى أخيه الأكبر ما الذى سيحدث وتخبئه الأيام الخوالى ؟

ـ لهوه يا قدها يا حدها ٠ مصيبة ٠

عدل عن فكرته واتجه من فوره الى مقهى هاجر وأرسل فى طلب الرجال وأغـــدق عليهم من نقود العملاية النـادرة ، واتفقوا على اعادة مواصلة العمـل ـ البحث ـ بحثا عن المدخل المستعصى الذى يقود الى المقبرة ، والعودة يوما بكنوزها الى السيدة السمحة التى استحوذت على قلبه ومشاعره ٠٠ كلوديا ٠٠

وتذكر الطنساوى كلماتها ونصائحها المشجعة والتى كانت تفعل سحرها فى جسده ومخيلته على الســواء ، وهى تصب الكلام فى أذنيه اللى يبتدى عمل لازم يصل لنهايته ويكمله مهما كلفه من جهد وجلد ، واللى مايلقاش طريقه ممهد ، يشقه بنفسه له وللناس من بعده :

ـ أشق الطريق ان لم أجده ٠



- ٦ -

ما أن استفرد الطنساوى بسلال الآلاف المؤلفة من النقود ، التى دفع اليه بها المعلم وابنته كلوديا حتى هاله عددها ، وكيمية التصرف فيها ، رغم أنه ضاعف عدد الحفارين واستجلب عتاة الترابية ذوى الخبرة الواسعة فى البحث ، وأجزل لهم العطاء والطعام وأدوار الشاى التى لم تكن تنقطع بعد أن دبز لها مخبئا مستعصيا ، مما دفعه الى بناء بيت جديد من طابقين والتزين بفاخر الأصواف الكشمير ، واشترى مونوسيكلا ، وسيارتين أجرة يعملان فى ربط القرى المجاورة ، واستجلب أفضل المدرسين فى تعليمه وتثقيفه وفتح أبواب كل معرفة أمامه خاصة التاريخ وأحقابه .

الا أن مشكلة المشاكل هنا ظلت الاخفاق يلى الاخفاق فى الوصول الى مدخل المقبرة الكنز ، ودون أدنى بادرة أمل .

وزاد الطين بلة كما يقولون حين حلت أيام ما قبل التحضير لحرب ٦٧ ، وترك معظم الشباب لأعمالهم وترحيلهم للحرب ، مما انعكس مداه على العمل ومواصلة الحفر السرى الليلى ، بسبب التعبئة العامة للشباب عشية اندلاع حرب ٦٧ .

صحيح أن الطنساوى انتهزها فرصة فى الاكثار من زيارة المدينة والتمتع بمباهجها ، لدرجة أنه استأجر مسكنا فاخرا فى أحد أحيائها الراقية ، وأغرق كلوديا بالهدايا الميسرة ما بين عسل النحل ـ أول قطفة ـ والزبد والمانجو ، والكثير من غالى الأحجار الكريمة وقلائد الزينة الذهبية الأثرية ، مما تصل اليه يده ويعثر عليه الفلاحون والحفارون فى تخوم وخرابات أبى صير الملأ وكنوزها الدفينة الخبيئة من كل العصور منذ الدولة القديمة وبخاصة الوسطى والحديثة مرورا بالبطالمة والرومان ومصر القبطية والاسلامية بالذات ، من كنوز الأمويين وملوك وتباعنة الجنوب الجزيرة فى اليمنيين .

ذلك أن آخر خلفاء بنى أمية وهو مروان بن محمد ، كان قد هرب بجيشه وحاشيته وأهل بيته من عاصمته دمشق الى مصر الفسطاط ، عقب سلسلة هزائمــه أمــام الجيش العبــاسى الجرار بقياده أبي مسلم الخراسانى ، وعقب اخراجه للامامين المنصور والسفاح من مطموراتهما فى دمشق وبهرتيهما الى العراق وانتقال الخــلافة اليها • الا أن القائد الفارسى ـ الشيعى ـ الخراسانى واصل مطاردته وأرسل فى أعقابهما الخليفة الأموى الملقب بالحمار مروان بن محمد الى مصر ، وجرد لهما •

فعبرا النيل الى أبى صير والهوارات ، الا أنه جد فى طلبهما الى أن وصل أبى صير وأطبق حصاره •

الى أن تمكن منه وقتله ودفن بكنوزه •



- ٧ -

بدأ الطنساوى يكثر من التردد على المدينة ، وكما لو أن شيئا طاغيا لا فكاك من أسره ، يجـــذبه اليها ، تمشيا مع مقولة أن الرجـل تدب مطرح ما تحب .

.. وكانت كلوديا قد تملكت كل حواسه ، كانت القوة الدافعة التى تلهب حماسه فى التعرف على المقبرة المستعصية التى أضناه العمل بها ، فكان يحلم باليوم الذى يلقى فيه بكنوزها تحت قدميها الباهرتين .

يا لها من لحظة .. يا له من حلم .

كانت المدينة قد تغير حالها ، فانقلبت رأسا على عقب ، أناشيد الحرب تدوى فى كل مكان من راديوهات المقاهى ، وميكروفونات الشوارع التى تغطت جدرانها هى الأخرى بالاعلانات العملاقة للمصرى المتمرد الذى يدهس الاسرائيلى تحت قدميه ، والجموع المقتحمة لأورشليم والمسجد الأقصى ، وصور الزعيم الهائج تعلو هامات الجموع ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة .

أما الطنساوى فلم يكن يلقى لكل ذلك بالا ، كان همه الأكبر فى الاتصال بقدامى الحفارين ولصوص المقابر ، فلعله يتصيد معلومة جديدة أو خبرة تائهة ، تضىء له طريقه الى تلك المقبرة اللغز .

زار تاجر أنتيكات ناحل عجوز وفاتحه فى الأمر منصتا اليه دون جدوى ، الى أن قاده الحديث معه الى سؤاله عن كيفية امتهانه لهذه المهنة وهى المتاجرة فى الآثار فأجابه :

ـ أقولك يا سيدى ، أنا كنت باعمل مزين فى نفس الدكان دا .. لحد ما دخل عليه راجل شيخ عرب زى حالاتك كده ، وطلب منى انى أحلق له دقنه .. المهم قعدت أجلخ فى الموس وكان جديدا وأمشيه على دقنه انه لا مشى أبدا .

أجلخ تانى وتالت وعاشر ، والموس متلم • بعد كده بصيت فى أيدى الزبون ، لقيته لابس خاتم فيه حجر أخضر مجرب ، فطلبت منه أن يقلع الخاتم ويبعده ، الموس مشى ومافيش حاجة •

استدار تاجر الأنتيكات مؤكدا :

ـ من يومها اعتقدت فى الاحجار •• ومشيت فى الكار دا •

ولما كان الطنساوى لا يجاريه الاعتقاد لا فى الأحجار ولا فى لعنة الفراعنة ذاتها ، ولذا أعاد سؤاله عن ذوى الخبرة فى هذا المجال ، فذكر له اسم صاحب مقهى يدعى أنور المراكبى وكان على معرفة به وسبق أن باعه بضعة تماثيل ورسوم زيتية ، هنا تذكره وتذكر مشروبه القاتل ـ المنزول ـ وجد فى زيارته •

وكان مقهى المراكبى بأبوابه الزجاجية الثلاثة يقع على بحر يوسف ، يؤمه الأعيـــان وعمد البلدان والكفور المجاورة ، يبيعونه ثمين الأحجار والخواتم ويشترون منه ، الفيروز والبخشن والزمرد وحجر ذا اليزل اللابس يزلى ، فى اطار الهواية التى تعن للأعيان والموسرين وحتى بسطاء الفلاحين وطبعا لا بأس من المتاجرة فى الآثار ، من توابيت ورسوم جدرانه وجعارين وتماثيل من كل الأنواع برسلان وجرانيت ومرمر وفخاريات وسيراميك ، ناهيك عن القبطيات والايقونات وغيرها من ابداعات الأسلاف الموتى •

ما أن دلف الى داخل المقهى حتى أصم الدوى الصاخب أذنيه راديو المقهى لعتيق عالى الصوت كالميكروفون يبث المارشات العسكرية ، ومقاطع من خطب الزعيم يتوعد فيها الاسرائيليين بالالقاء فى البحر ، ومناقشات الزبائن واقتراحاتهم حول الحرب وخططها لا تنتهى ، والحماس يتبدى طاغيا على سحنات الجميع من أعيان وصيع •• رواد المقهى •

طلب قهوة سادة ، وأدار عينيه بحثا عن صاحب المقهى ، فوجده الى بعيد جالسا الى بنكه ، عيناه كالعادة غائرتان من أثر ادمانه لمشروبه المفضل ـ القاتل ـ المنزول ، حتى اذا ما قاربه الطنساوى وهب أنور المراكبى مرحبا به مقدما اليه كوب من ذلك المنزول الســاخن ، تحرج الطنساوى فى تقبله ، متذكرا آخر مرة تناوله فيه معه ، وكيف انه ما ان عاد الى داره حتى مضى يرجع ويطرش لمدة أربعة أيام متصلة لا يعرف للنوم طعما من آلام معدته التى ألهبها ذلك المنزول القاتل •

اعتذر شاكرا وطلب نرجيلة وأجلسه المراكبى الى جانبه مرحبا ، وكان منشغلا مع أحد تجار الأنتيكات القدامى الذين دأبوا على زرع مصر طولا وعرضـــا بحثا عن الأصيل منها ، وكان كهلا مهندما يدعى الحاج عباس .

انشغل معه المراكبى فى المساومة ، وهو يقدم له القطعة أثر القطعة ، حتى اذا ما اتفقا على البيع والشراء على مضض انتقلت من مقطف البائع المراكبى الى حقيبة عباس الكبيرة الجلدية ، سواء أكانت تمثالا خشبيا أو ونيسة أو منسوجة أو حلية أو ايقونة أو آنية من الموزاييك اليونانى :

ــ الله يبارك لك .

ــ الله وكيلك .

أما فى حالة الاختلاف فى الثمن والقيمة ، فكان يستبد الضيق بأنور المراكبى ، فينادى أحد عماله طالبا منه القاء الأثر فى نار فرن المقهى :

ــ هه .. ياللا ولا وجع القلب بتاع الحكومة وعيونها وبصاصيها .. أرميها فى النار .

واستمر الحال على هذا النحو طويلا ، ما لا يتفق عليه يلقى به البائع فى الفرن لتلتهمه النيران ، تخوفا من قوانين الحكومة الجائرة فى تحريم وتجريم هذه التجارة .

ولكم تألم الطنساوى للقطع الأثرية الرائعة وحضورها الأخاذ وهى تأخذ طريقهـا للنار ، وهى التى صـمدت آلاف السنين فى مقابرهـا ومطمورتها ، لينتهى بها الأمر لأن تصبح وقودا لنيران الأفران والكوانين غمغم :

ــ أية قوانين جائرة تلك .

اندفع صارخا بصوت مدو ، مانعا قلادة من نفيس الأحجار قبل أن تستقر وسط النيران :

ــ حاسب .. وريني .

أشتراها من فوره دافعا القيمة النقدية التى طلبها البائع المراكبى مسرا لنفسه :

ـ دا كردان كلوديا ٠

دفع به فى حرص الى جيب سيالته ممتنا ، والمراكبى يتأمله غير مصدق :

ـ اللى اداك يدينا يا طنساوى ٠

داعبه المراكبى دون أن يتخلى عما يحمله جانب فمه من كآبة بسبب ادمانه للمنزول الأخضر المروع الذى دأب على ارتشافه مع مريديه من عتاة لصوص الموتي والمقابر وتجار العملات والأنتيكات ، يجيئونه ويؤمون مقهاه من كل صوب ، من الهوارات وأهناسيا المدينة واللاهون والغرق السلطانى وكيمان فارس ودمو وسيلا التى يذكر ان اسمها القديم كان سيالة الذهب ، وبيهمو التى اكتسبت اسمها بسبب تفريطهم فى كنز أثرى ، بيع لأحد الخواجات بتراب الفلوس ٠

كانوا يتحلقون حول منصته وبنكه العالى الذى يعتليه ويشرف منه على المقهى الممتد على يمينه ، وعلى المطعم الملحق به يسارا مطبخ فسيح ، لا يخفت لفرنه الملتهب دوما بنيران الجرجوب نارا ٠

تأمله المراكبى فى استغراب مداعبا :

ـ اللى اداك يدينا يا طنساوى ٠٠ أيه العز دا كله ٠٠ كشمير ٠

ضحك الطنساوى غير مصدق ان أنور المراكبى مثله مثل بقية البشر ، يمكن أن يتندر ويتخلى للحظة عن اكتئابه المزمن الدائم ، وفاتحه الطنساوى فى أخبار ما يصل الى أيدى الأهالى هذه الأيام ، خاصة والحرب المقبلة تدق الأبواب ، ولا صوت يعلوها ٠

وسرعان ما عاد المراكبى الى تذكره واكتئابه ، وهو يسوق اليه والى مشروعه غرب هرم اللاهون ، أسوأ الأخبار :

ـ حرب ٠٠ حرب أيه ٠٠ دى جت وحلت على أدمغة الجميع ، مافيش حاجة أبدا ٠

ـ ليـه ..

ـ يتقول له ، يعنى ما انتاش عارف يا طنساوى اللى بيجرى ويحصل ، واللا انت مش من البلد دى ٠

قاربه الطنساوى أكثر فى قمة اندهاشه :

ـ مش فاهم يا عم أنور .. عليه النعمة ما أنا فاهم ٠

أشار صاحب المقهى الى أفيشات الشوارع وأناشيد الحروب والقتال :

ـ كل دا ومش فاهم .. طيب ٠

انشغل مطولا مع عماله وزبائنه ، تاركا الطنساوى في ذهوله فترة الى أن أسر اليه :

ـ يا بنى دى أيام حرب وضلمة وطفى النور ، والبلد ممسوكة بالحديد والنار ، خصوصا الأماكن الأثرية ، وخصوصا بلادكم من اللاهون ، وملئة أبو صير ٠

ـ اشمعنى يعنى الأماكن الأثرية .. وأبو صير ٠

ـ علشان الجيش بيعسكر فيها أيام الحرب ٠

علا صوت الطنساوى :

ـ ليـه ؟

ـ ليه .. ؟ هوا كده .. علشان محرم ضربها دوليا بتصبح آمنة بالنسبة للجيش ، يعسكر فيها ٠

مال المراكبى مسرا فى أذنه :

ـ بيستغلوا الموقف .. فهمت يا لطخ ٠

وشدت نيران فرن المطبخ وهى تلتهم بقايا الآثار التى ألقى بها المراكبى ، أنظار الطنساوى ، ودصور أنها انما تلتهم أحشاءه هو ، مقبرته حلمه الجنوبى ، الأثير الذى اقتنصه غيلة من أخيه الأكبر معلمه ومربيه :

ـ بلوى وحلت ٠

وساد صمت ثقيل على رءوسهما ، لم يكن يقطعه سوى مارشات الحرب .. وشيش بيش ٠

بذل الطنساوى جهدا خارقا فى محاولة التماسك واخفاء الاكفهرار الذى أحال وجهه الى صفرة الكركم ، عن عينى المراكبى الثاقبتين ، وذلك الأسى الدفين المزمن الذى يغطى وجهه ، فمضى يتأمله وكأنه انما يقرأه

نافذا الى أعماقه فى جلاء :

ـ بلوه وحلت •

ـ مصيبة •

ـ خلاص وقفت •• نشفوها من فوق لتحت •

ـ الكبار

ـ هه •• دا ياما ناس اتخربت بيوتها ، واتهروكت من فوق لتحت •

ابتسم المراكبى فى شقاء :

ـ وناس عدت •

مالَ عليه مسرا :

ـ وسمعت عن العملاية الأرسينوزى اللى طلعت من أهناسيا المدينة ، واتباعت بزكيبة جنيهات •

أحس الطنســاوى وكمــا لو أن شللا محققا يسرى ويدق ركبتيه دقا :

ـ ومين الموعود دا ؟

ـ مين •• هو •

ـ مين •• ؟

ـ الخواجا عجايبى •• وكلوديا •

ـ كلوديا •

دفع حسابه واستأذن الطنساوى فى أقصى تخاذله مسلما خارجا :

ـ كلوديا •• حبى •



- ٨ -

تماسك الطنساوى خارجا من أقرب باب زجاجى لمقهى المراكبى ، فاستقل موتوسكله ، لا يعرف له مقصدا عقب تلك الأنباء المروعة التى حلت على رأسه ، فأبعدته عن حامه :

ـ المقبرة · كلوديا ·

بعد كل ذلك العناء والمخاطرة والجهد المضنى وأرق الليل والنهار ومخاوفه من أخيه ، وشبح ذلك الأخ ـ الأسطورى ـ الذى لم يجد بدا من أن يقطع بسكينه رأس أخيه الأصغر ، كل ذلك مجاله ادراج الرياح ·

وتبدت أناشـــيد الحرب المدوية على طول المدينة وعرضهـا ·· جنائزية :

ـ أروح فين ؟

اتجه من فوره الى حى الغوازى والفنانين الشعبيين ، فوجده هو الآخر يعج على صاجات الغوازى بأناشيد الحرب :

ـ راجعين بقوة السلاح ·

ـ راجعين نحرر الوطن ·

اتخذ طريقه الى خمارة شعبية بائســـة بالقرب من بيت الغوازى وأسلم نفسه للشرب وحمى الرقص مستخرجا الكردان الأثري البديع الذى ابتاعه لكلوديا من المراكبى المسلوب ، وسرعان ما هب مقررا البحث عنها أينما كانت ؟

ـ لوكاندة تودري ·

شد بصره وهو يعبر ميدان حى الغوازى والفنانين هيصة وطبل وزمر وصراخ لحلقة كبيرة من البشر ، ينتصب فى وسطها تمثال ورقى ملون هائل الحجم لسيدة ذات ثديين عاليين فاردة زراعيها عن آخرهما فى استرحام ، اشعلت فيها النيران رأسا لقدم ، تعرف على ضوء النيران والصواريخ الورقية المشعلة من حولها ، انها :

ـ جولدا مائير ٠

كانت ألسنة اللهب تندلع فى جسدها المكتنز الفارع من أسفل الى أعلى باتجاه عجيزتها وصدرها المنتفخ وعنقها ووجنتيها وشعرها اللوفى الهائج ، والهياج الغوغائى يزحم الميدان وما بعده :

ـ الحرب وبلاويها ٠

ترجل قليلا على رأس زقاقه ، يموج بالفتيات والغوازى ، محتميا بظلام الزقاق ٠ وقد لمعت عيناه الخرزيتان على عادة لصوص المقابر الذين يتقنون الرؤيا ليلا ، عنها نهارا ، وهو يشهد ألسنة اللهب تناطح البيوت ذات الطابقين والثلاثة ، محدثة أزيزها وهى تذيب ألوان التفتاة الزرقاء والحمراء النارية على وجه الجولدامايير المنتصبة تعانى الانهيار والتقوض الذى مجاله التلاشى والانهيار مستحيلة فى النهاية الى كومة رماد :

ـ عجايب ٠

وراعه للحظة الفتيات المروعات من هول ما يحدث :

ـ رئيسة اليهود ٠

وصاحت غازية أخرى مشيرة مصفقة متراقصة بسبابتيها فى انتشاء جمى حرب الأيام الستة التى تدق الأبواب حتى أبواب المدن الصغيرة والبنادر :

ـ ولسه أبو عين كريمه ٠

ـ الأعور ٠

ـ ديان ٠

ذلك ان جوق – جمـــع جوقة – المزيكات وخلابيصها التى تغطى المساحيق الملونة وجوههم ، كانوا قد نصبوا ، نصب ورق آخر لديان :

– لعور ٠٠ لعور ٠

وقبل وصوله الى اللوكاندة التى أصبحت تؤمها كلوديا وصديقاتها من نساء وفتيات أرستقراطية المدينة ، استوقفته حلقة هائجة أخرى بالقرب من مبنى المديرية ، أكثر ازدحاما وغوغائية ، فقاربها مترجلا ، ولدهشته المفزعة وجد بطلها هذه المرة ذلك الرجل الضامر العجوز الذى التقى به فى مقهى المراكبى ، حين كان يبيعه بضع قطع أثرية وأحجار كريمة وخواتم فيروزية الأحجار ، عم عباس منكفىء بحقيبته السوداء الكبيرة مفتوحة على مصراعيها ، وأيدى كثيرة لجنود تتنازع ما بها من تماثيل وايقونات ورسوم وأحجار ، وأخذ الجنود – الفرسان – يقتحم الحلقة الهائجة بحصانه ، ضاربا الجموع بكرباجه :

– فسح منك له ٠٠ ابعـــدوا ٠٠

وعباس باكيا يهيل التراب على رأسه ، محاولا الدفاع عن حقيبته :

– دى سبوبة العمر ٠ حرام عليكم ٠٠ أنا مش سارق ٠٠ حرام ، مش من البلد دى ٠٠ غريب يا عالم ودى مش سرقة ولا مخدرات ٠

وقبل أن تتخاطف الأيدى محتويات الحقيبة مدمرة ومتخاطفة ما بها ، اقتاده الجند زاحفا على ركبتيه الى مبنى المديرية المواجه :

– دهب ٠٠ آثار مسروقة ؟

تحسس الطنساوى كردان كلوديا – الأثرى – داخل جيب صدبريه وكاد أن يستخرجه ويلقى به فى مياه بحر يوسف الآسنة ، الا أنه تراجع مستجمعا سيطرته على نفسه ، مندفعـا بأقصى سرعته مبتعدا باتجـاه اللوكاندة ، وقد آلمه ذلك الوضع المزرى للرجل العجوز عباس وتحيبه :

– طالعين عليه بالعصى والكرابيج كده ٠٠ أنا مش حرامى لص ٠٠ حرام ٠٠ حرام ٠

وما ان وصل اللوكاندة المسورة بسيارات الأعيان الفارهة من كل جانب ، وقد أضيئت صالاتها ونافوراتها الفسيفسائية المضاءة أيضا بألوان

قوس قزح ، وهى تغطى بمريديها من نساء ورجال والموسيقى تصدح وكأنهم فى واد آخر وعالم سحرى مختلف ، حتى ارتاحت نفسه قليلا ، وهو يدلف منفعلا لاهثا من هول ما جرى تدور عيناه عبر المكان بحثا عن مرفأه الآمن ·· كلوديا ·

تخير ركنا هادئا وجلس متمددا فى استرخاء ، خالعا عنه حذاءه ـ الأجلسيه ـ طالبا شرابه المفضل ومذاته ، ولم يطل به المقام حتى جاء المعلم عجايبى مرحبا ، ومن فوره أخبره :

ـ دى كلوديا هنا ·

جيت ايمته ، كانت لسه بتسأل ·

ـ حالا ·

ـ شربت حاجة ·

ـ طلبت يا مقدس · اتفضل ·

ودار الحديث بينهما حول العمل غرب هرم اللاهون وكيف يسير ، وقبل أن يخبره الطنساوى بما سمعه من صاحب المقهى ، تفهم العجايبى الأمر فهز رأسه آسفا :

ـ مفهوم مفهوم ·· الحرب ·

هنا أقبلت كلوديا بصحبة احدى رفيقاتها باهرة كعادتها فى أقصى مرحها وزينتها صارخة :

ـ انت هنا · افتكرنا القط ·

والتفتت مستشهدة بصديقتها :

ـ مش كده يا منى ·

ـ فعلا فعلا ·· كنا لسه فى سيرتك ·

اشارت عابثة وهى تنطق اسمه متأملة فى تمعن :

ـ الـتـنـتـسوى ·· وى ·· وى ·

ضحكا فى مرح صاخب من حوله ، وكلوديا تقوده من يده فى أقصى جنانها الذى لم يعهده قبلا فى أنثى ، الى أن أصبحا فى مكان منعزل يموج وأريج زهور الليمون التى يفيض عطـرها فواحا طاغيا على طول المتنزه وأزيز حشراته ·

جلسا على أريكة عارية :

ــ انت الليــلة مش انت .. وحقك عندى النهــاردا وبكره وطول ما احنا عايشين .

ــ حق أيه ؟

فتحت حقيبة يدها القرمزية ، مخرجة رزمة كبيرة من النقود :

ــ خــد .

هب الطنساوى واقفا فى أقصى غضبه وتوتره ، كمن لحقته اهانة مفاجئـــة :

ــ أيه دا ياست كلوديا ؟

ــ حقك .

ــ أنا ماليش حق عندك . وخدت كفايتى ومش جى علشان الفلوس ..

هبت بدورها مشدوهة مهونة من وقع الاهانة :

ــ أبدا .. أبدا ..

تلفتت حولها كما لو كانت ستلقى بنفسها بين ذراعيه الا أنهـــا تراجعت متندمة :

ــ ما اقصدشى .

غالبتها دموعها شاهقة ، الا أن الطنساوى عاجلها :

ــ وكمان بتبكى منى ، وانا اللى حلمى كله ليل نهار فى اسعادك .

تناول رزمة النقود معيدها الى حقيبتها :

ــ سعادتك .. يا كلوديا .

ــ سعادتنا .

ضاحكته فى حب حقيقى مقلدة صديقتها المفتعلة :

ــ طيب يا تــنــثــ .. وى .. وى .

ضحكا طويلا ، مواصلين الابتعاد عن العيون وكلوديا تشجعه على احتضانها ، وتقبيل راحة كفتيه الخشنتين :

ـ ماتغبشى عنى ٠

ـ أبدا أبدا ٠

ـ طول العمر ٠

وكاد الطنساوى أن يطير فرحا ، محلقا على طول حديقة الليمون ٠

وحين انتهيا من حبهما ، وعاد الطنساوى يسر اليها بأخبار العمل والحفر غرب الهرم المدرج ، بادرته مكملة :

ـ عارفه ٠٠ الجيش وصل وعسكر هناك ٠

قاربته فى أقصى مخاوفها :

ـ وقف كل حاجة ، وابعد خالص ، تعال اقعد هنا ، وخلينا نشوف بعض ٠٠ ابعد لحد ماكل حاجة يبان لها آخر ٠ دى حرب صعبة ٠٠ مبيتة ٠

ـ ابعد عنك ٠٠

ـ من المقبرة ٠

ـ انت مقبرتى ٠

ومن فوره أخرج الطنساوى من جيب صـــديريه كردان الزمرد والبلخشن وتقدم منها ليلبسها اياه متحرجا :

ـ حاجة مش قد المقام ٠

بهرها الكردان الذى زاده القدم روعة ، فلم تتمالك نفسها ، باحثة عن والدها ـ شيخ الصياغ ـ ، تاركة حقيبة يدها جارية :

ـ دقيقة أشوف أبويا ٠

اشارت له بانتظارها :

ـ فوق فى المطعم ٠

ساعتها لم يصدق الطنساوى ما سمع ورأى هذه الليلة الليلاء من تعلق كلوديا به الى حد الحب والتفكير فى الهرب وقضاء العمر معه :

ـ أحقا ٠٠ ما يحدث وتشهده عيناى ٠٠

ـ وقف يا طنساوى كل شيء ·· ابعد عن المقبرة ·· اوعى تبعد عنى ·· اوعى ·

وحين عادت تبدت أكثر اشراقا وبهجة الى حد احتضانه والدوران به على طول جنبات حديقة اللوكاندة شاحبة الاضاءة التى يسودها الصمت ، سوى من أزيز حشرات الليل :

ـ زمرد يا طنساوى ·· جد زمرد ·

واجهته وهو يجلسها على ركبتيه :

ـ عارف أبويا فحصه وقال أيه ·

ـ أيه يا حياتى ؟

ـ حر من الدولة الوسطى ·· أربعتلاف سنة ·· تصور ··

ـ ولسه ·

ـ أيه ؟

ـ المقبرة الملكية ·

هبت فزعة منتصبة مهددة الى حد علو صوتها :

ـ اوعى ·· اوعدنى ·· ابعد ، مش وقت الملكية ·

وكما لو كانت تستحلفه :

ـ العمر قدامنا طويل · أنا أكبر منك وعارفه كويس اللى بيحصل · مش من الكدب اللى هنا ·· من الأخبار الأجنبية ·

تذكر الطنساوى أنها فعلا على معرفة بعدة لغات أجنبية ·

ـ والمقبرة ·

ـ فى داهيـــة ·· ستين داهيـــة ·

ـ دى خلاص الأرض طبلت تحت رجليه ·

هب بدوره منتصبا مؤكدا :

ـ ايدى حصلتها ·· تصورى ·· كنزنا ·

بدت أكثر منه تصميما على ايقاف العمل والابتعاد :

ـ قلت لك وقف كل حاجة الأيام دى ·· دى حرب جهنمية ، ومحدش حايراعى ويلتزم باتفاقيات دولية وكلام فارغ من دا ·

ـ بقولك دراعى دا ·· طالها من جوا · شميت ريحتها ·

ـ ولو ·

ـ وتعب السنين ·· حلم العمر ·· هدية حبى لك ·

ـ حبك ليه ·· إنك تعيش ·

ـ أعيش ·· دى تتنهب فى غمضة عين ·· بقولك خلاص · دراعى دا حصلها ·· عشانك ·

انقضت على ساعده متحمسة مقبلة :

ـ عشانى يبقى ·· تبعد ·

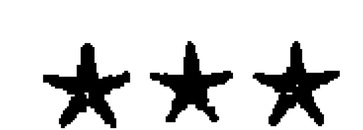
اندفعت تقبله فى وحشية وكما لو كانت تشهر حبها :

ـ حياتى عندك ·

ـ أبدا ·

ـ برضه ·· أبدا ·

أطل عليهما وجوه بضع سيدات وفتيات من ترسينات اللوكاندة ·



اندلعت حرب الأيام الستة مروعة دامية على طول مصر .
صديقاتها ، وكما لو كانوا يشهدون ما يحدث :

ـ كلوديا .. الحفلة بدأت .

الا أنها تغاضت عنهن ، متوسلة للطنساوى :

ـ اذا كنت بتحبنى .

ـ وكنز العمر .

جذبته من ذراعه ، باتجاه باب الخروج الى حيث سيارتها :

ـ اركب .

ـ فين .

ـ تعال .

انطلقت السيارة واقترح الطنساوى الذهاب الى الفيلا المنعزلة التى كان قد اشتراها لها ، والتى ما تزال عارية من كل أثاث ، وأمضيا الليلة

على بلاطها حتى اذا ما جاء ذكر المقبرة ، كتمت فمه :

ـ انس .. تعال .

ـ شايف .. الجيش .

استدارت كالمجنونة :

ـ اوع

وأقسمت وهما فى طريق عودتهما :

ـ يا أنا .. يا المقبرة يا طنساوى .

ضاحكها مهونا من مخاوفها ، وشيئا فشيئا تسلل من مصاحبتها التى أصبحت شبه علنية عائدا الى هوارة المقطع وحيث يقيم أخوه الأكبر الذى سرق سره عنه ، وجاءه محملا بالهدايا والنقود ، وفاتحه فى الأمر ،

وفى قصة حبه الجديدة لكلوديا ابنة شيخ الصياغ ، وكان الأخ الأكبر على معرفة به ، وسبق أن تعاملا فى هذا الكار ، فأردف :

ـ عارفه ·· بسخيرون العجايبى ·

وتنهد زافرا :

ـ وعارف كلوديا ·

وبعد جهد جهيد استطاع اصطحابه الى حيث المقبرة ليلا ، نازلا سلالمها المفضية الى السرداب الموصل لبابها :

ـ وصلنا ·· شايف ·

ـ شايف ·

حتى اذا ما عادا أدراجهما خارجين من السرداب الواطىء المفضى الى المدخل تصرف الأخ الأكبر كما سبق ان فعلت كلوديا ، دار حول المقبرة معتلا ربوتها العالية ، مخفيا عينيه بكل جلبابه عن بصيص أضواء كشافات سرايا الجنود المعسكرة الى بعيد :

ـ اوع !

ومضى يحذره من الاقتراب من المقبرة هذه الأيام الى حد التهديد والوعيد ·

ـ حاتندفن فيها ·· سامع ·

حاول الطنساوى الأصغر اغرائه بأنها ستكون ملكا له أولا بكل محتوياتها ، فهى اكتشافه الذى ظل يحلم به طيلة العمر ، مخفيا أسرارها عن جميع البعثات الطموحة التى عملت فى هذه المناحى بحثا عنها موفدة من كثير من جامعات العالم والمؤسسات المصريات :

ـ كلها لك ·· واللى تجود بيه ليه ·· نصيب كلوديا يا أبا فتوح ·

نهره الأخ الأكبر فى أقصى حنقه :

ـ قلت أبعد ·· واردم على الموضوع دا ·· ابعد ·· انساه خالص ، وآدى انت شفت وسمعت عن النابالم ·

واجهه وهما فى طريقهما الى السيارة التى ستقلهما عائدين :

ـ حط العقل فى دماغك ·· وآدى احنا عايشين ·· بلاش تعمل زى الحكاية القديمة اللى سمعناها كتير من أمك ·

ـ حكاية أيه •

ـ حكاية الولدين أولاد بنا الملك •

هنا ارتعدت فرائص الطنسـاوى وتصبب عرقا من خيانة الأخ الأصغر ، الذى لم يجد الأكبر بدا من قطع رأسه ، ليخلصه ويخلص نفسه من فخ الملك •• الفرعون •

دافع عن نفسه دون مبرر :

ـ أبدا •• أبدا ، أنا كنت ناوى أحط دهبها قبل ترابهـا تحت رجليك يا أبا فتوح •

غمغم الأكبر متجاوزا عدم اقتناعه :

ـ وحبيبة القلب •• الكلوديا •

ـ اللى تجود بيه •

ـ كده •

مرة أخرى انزوى الطنساوى متعثرا فى حرجه :

ـ صدقنى ياخويا •• وأنا برضه اللى جيت وقلت لك •

ـ يبقى نصبر •

ـ نصبر لحد ما أى سائل والا تربى ينهبها •

استدار الأخ الأكبر مشيرا الى الكشافات الدائرة بأضوائها :

ـ ودا تعمل فيه أيه •

ـ دى ليلة ونخلص •• ليلة •

صاح الأكبر غاضبا :

ـ يعنى مافيش فايدة ولا عايدة معاك •

وافترقا على غير اتفاق •

ذلك أن حرب الاستنزاف والاحباط الجاثم على طول مصر والشرق الأوسط استغرقت كليهما •

بل هو نفسه ما حدث بينه وبين كلوديا ، رغم تعمدها وتصميمها على ألا تفـارقه ، اعتقادا منهـا فى عدم اقتناعه ، وانسـلابه الكابوسى بمحتويات المقبرة •

وهو ما حدث ذلك ان الطنساوى بدأ يناور عبر طرق وأساليب للهرب منها ، والعودة وحدة ما بين ليلة وأخرى للعمل وحده فى توسيع مدخل المقبرة ، ليدلف يوما الى داخلها عائدا اليها والى أخيه الأكبر بما غلا ثمنه من محتوياتها ٠

حتى اذا ما تحقق له الدخول على ضوء الشموع لاختبار قدرة التنفس دخلها ٠

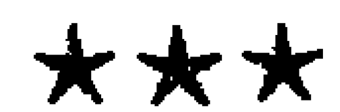
ووقف مبهورا بازاء التوابيت والونايس الذهبية ، وأقنعة ملوكها وآلهتها ، وصلة الأزيز المدوى للطائرات الاسرائيلية وفرقعاتها الأسرع من الصوت وكما لو كان على موعد :

ـ أيه د ؟

وانطلقت المدافع المصرية من كل الجهات فى محاولة لابعادها ، وسرعان ما أفرغت حمولتها ، وكما لو كانت لا تعنى شيئا سوى المقبرة التى انفتح سطحها ، كاشفا للحظة كالوميض محتوياتها باهرة فى عينى الطنساوى الذى خالط جسده مومياواتها وكنوزها التى استحالت الى شظايا متطايرة ٠

حتى اذا ما تواتر الخبر من قرية لما يجاورها ، هرع الأخ الأكبر ، وكان أول الداخلين والعائدين بأشلاء جسده مناديا :

ـ حتى العضم ٠٠ ولع ٠



الدباييج

- ١ -

لعلها المقولة الحقة التى تعلمها وعلقت بمخيلته « مسعد الضانى » اكتسبها من مهنته وكاره الذى توارثه أبا عن جد حتى أنها لصقت باسمه وباسم عائلته وذريته ، وهو كار الجزارة وذبح البهائم وتشفية لحومها ، ثم تعليقها فى مداخل دكانه :

ـ كل واحد فى الدنيا دى •• معلق من عرقوبه •

وماذا يمكن أن يهبه له هذا الكار ، الذى ولد معه سوى مثل هذه الحكمة السوداء القاسية قسوة حياته فى تعامله مع أعتى البهائم من جمال نجاتى عملاقة وجاموس أســود وثيران حتى الحمــلان الوديعة ، يراودها متشاهدا ، وقد يقفز منذ صغره على أعناقها لينحرها بسكينه ويشفيها بكزلكه ، ويقطعها اربا بساطوره ، ثم يمضى يعلقها من كعوبها وعراقيبها أمام زبائنه •

ـ ومن لا يشترى •• يتفرج •

قالها دون مداراة لزبائنه حين تضيق بهم أحــوالهم ويلجئون الى السلف والدين •• وعلى الحساب ، مشيرا للبهائم المعلقة ، وقالها لأمه حين أقعدها المرض حبيسة فرن قديم فى آخر البيت ، ترعاها فى عجزهــا ووحدتها ثلة من النساء والخادمات والقريبات ، متأوهة شاكية ليل نهار منه ومن اهماله لها :

ـ كده يا مسعد يا ابن بطنى •

وقالهــا لابنــه البكرى ـ مخلوف ـ مــرات ومرات ، وهو يعبث بموتوسكله على طول شوارع البلدة وحواريها ، بلا شغلة أو مشغلة ، يعاقر العرقى والحشيش ، ويتصيد النساء والبنات ، الى أن استحال الى خواحشى وليس غير ••

وحق لمسعد الضانى تمثل كلمة أو مثل متفرد الى حد كل وحشة أو توحش كهذا ، وهو الذى عانى الأمرين منذ طفولته ، ركضا على طول السلخانات والمذابح ، بحثا عن أى شيء فى جسد البهيمة ، يمكن أن يؤكل ٠٠ كالشغت أو يباع كالفرو ٠

ولكم عن له المتاجرة فى اللحم ـ الوقيع ـ والمعيوب ونصف الميت ، وتعرض للضرب والاهانة والحبس من مباحث التسعيرة والتموين فيما بعد ٠

وماذا فى يده أو مقدوره أن يفعل ، فأما الجنوح الى منـل هذه المسالك الوعرة المتأججة بالخطر الداهم والفضائح التى تلوكها الألسن والحلوق المتشفية واما غرق الأسرة بأكملها فى حالق الجوع والفاقة ٠٠٠ وصحيح :

ـ يا ويل من تمسك له الناس علىذلة ٠

ـ يموت بعلة ٠٠ ولو كان الطبيب ع الباب ٠

ماذا يفعل بازاء الطحن اليومى على طول الشارع الكبير طلبا لمجرد القوت والستر ٠

من هنا جاءته هذه الحكمة الهادية ، التى لابد وأن يكون قائلها ٠٠ جزارا ، بازاء ذبائح ٠٠ أيا ما كانت ، بشرا كانت أم دواب ، فكلاهما :

ـ معلق من عرقوبه ٠

كلاهما مصيره ومثواه الذبح ٠

ـ أليس كذلك ؟ ٠

وهو ما لم يصل يوما مسامع بكريه العاق ـ مخلوف ـ الذى كان دائم الخلاف معه ، الى حد الصدام بالعراك ورفع السكاكين والسواطير وجها لوجه ، ثم تدخل أهل الخير فى درب الجزارين الذى يقع بيتهما الكبير فى آخره ببواباته المفضية الى حيشان علف البهائم تمهيدا لذبحها ، حتى اذا ما عادت المياه الآسنة جارية فيما بينه وبين ابنه الأكبر ، تجدد الخلاف وتفاقم العراك ووصل ذروته الدامية من جديد دون صـفح أو مهادنة ٠

وأحبط الأب فى ايصـــال مأثوره الأثير الى أذنى الابن الجـامح المتطاول ، والذى وصل به الأمر الى حد المتاجرة فى الحشيش وخلافه ،

حتى اذا ما أتيحت له فرصة السفر الى احدى الدول الخليجية البترولية الكبرى للعمل كما تعمل الملايين هناك ، ضبط بصفيحة حشيش ، ولم يبرح المطار سوى الى السجن الموحش داخل مطمورة ٠

وما أن وصل الأمر الى مسعد حتى تنفس الصعداء :

ـ كل حى معلق من عرقوبه ٠

تساءل :

ـ مش كده والا أيه ٠

ودارت الأيام السوداء دورتها ، حتى نشب خلاف ضار بينه وبين أحد شركائه وهو « السيد السنهورى » تاجر بهائم من بلدة متاخمة ، دأب على المتاجرة معه ، باستجلاب بهائم العلف والذبيح من الأسواق المجاورة ، سوق ثلاثاء المدينة ، وسوق خميس الزربى ، وسوق اتنين الروضة وأم القتل واستمر الوضع لسنوات ، الى أن تعمقت صداقتهما وأصبحت مضرب الأمثال ٠

الى أن جاء اليوم المشئوم الذى فاض فيه الكيل وعلا ، بينه وبين عميله السيد السنهورى ، فما كان من الضانى ، سوى التهديد والوعيد الذى دفع بالسنهورى ـ هلعا ـ الى أن ينتصب فى مواجهة دكانه المطل على الميدان المزدحم دوما بالناس والغرباء والصراخ بأعلى صوته ، وهو يخلع عنه ملابسه قطعة قطعة الى أن أضحى عاريا بلبوصا كما ولدته أمه صارخا :

ـ أنا قتيل عيلة الضانى ٠

وحين فشلت وأحبطت كل الجهود المبذولة لاسترضائه ورد عقله الذى غاب عنه فى تلك المغربية الدامية ، وتبدى للجميع ـ وهو الغريب ـ الذى لا حول له ولا عزوة بازاء شريكه ، انه كما لو كان يسعى حثيثا لقدره ومقتله ٠ حتى ان الناس من رجال ونساء وباعة ، مضوا يطرقون كفا بكف فى تعبيرات أقرب الى الندم واستبصار الكارثة وهم يشهدون السيد السنهورى على هذا النحو الجامح المنفلت :

ـ يا خسارة ٠٠ يا ميت خسارة ٠

ذلك أن مسعد قام انيه محتضنا أمام الجميع وطيب خاطره وألبسه ملابسه ورد اليه اعتباره ، ثم اقتاده الى حانوته وطلب شايا ومعسلا من

العيون الراصدة من هنا ومن هناك :
المقهى الغطيس الغائر فى الأرض المجاورة ، وعادا يضحكان فى صفاء أمام

ـ حبايب ·

ـ صافى ··· يا لبن ·

ولم ينته الأمر ·· أمر الخلاف عند هذا الحد ، ذلك أن الجزار حلف على تاجر البهائم الغريب بقضاء الليلة عنده وعقب العشاء وشرب الشاى والمعسل ، تصاعد الخلاف من جديد · وأقدم السيد السنهورى مرة أخرى على تمزيق ملابسه اربا اربا والعواء :

ـ أنا عارف انى قتيل البيت دا ·· والبلد دى ·

ـ كـده ·

ـ عارف ·

قام اليه مسعد ساحبا سكينه قافزا محتويا ظهره بكامله ، وجز رأسه على عادة ما يفعل مع البهائم والذبائح :

ـ تخلص ·

سحبه مانعا حتى خواره وتأجج روحـه بالنبض وملاطمة جسـده لجدران الحيشان ، بينما ماءت جميع ذبائـح المعلف بالعواء من حول ما يحدث لجالبها ·

ولم يجـد بدا من تقطيـع الأطـراف والأوصال والدفع بهـا داخل جوال قديم من تلك التى عادة ما يحتفظ بها لحفظ وحمل الذبائح ، ونطر ذراعيه المشمرتين بدم الضحية البشرية ، واستغرق لبرهة فى تأمل لون دم صديقه القانى المخالف للون دم الذبائح بأنواعها ·

اندفع كالتائه على طول الحيشان وعرضها متجنبا مقاربة بئر سقى البهائم وحتى لا تنزلق قدمه فيسقط سـهوا وهو على هذه الحالة من التشتت ، خاصة وأن ضوء الفوانيس الملونة الخابى ، قد بدأ يخبو أكثر فأكثر لدرجة دفعت به الى مسح عينيه بكمى جبته السوداء :

ـ عنيه ·

أذنيه ، مستديرا فى هوس لم يشهده قبلا ، الى أن تحقق الأصوات ، كانت بكاء أقرب الى العويل واللطم والنهنهة ، صادرة عن أهل بيته ، أمه زوجته بنتيه بالاضافة لثلاث خادمات يرعين أمه :

ـ يا لهوى يا لهوى · يادى الخراب الليلة ·

وتصور للحظة أنه انما يسمع ضحكات صديق عمره ·· سـيد السنهورى المجلجلة ، حين كان يقبل عليه مترجلا عن ركوبته مطالبا بحق من حقوقه على استحياء ·

ـ الله يقطع الفلـوس ·· النقدية وأيامهـا والـلى اخترعوهـا يا أبا مخلوف ·· اللى بتبعد الصاحب عن الصاحب ·· هاه ·· هاه ·· هاه ·

ويردف قائلا بصوته العالى المتميز :

ـ أظن أنا الوقت زى ما بتقول : أتقل التقيل ، الضيف الداين ·

قد يبالغ من علو صوته ومرحه الملازم :

ـ دى كلامك يا أبا مخلوف ·· كده والا ايه ·

ينزل عن ركوبته :

ـ وأنا وحق دا النهار ماجابنى الا الشديد القوى ·· الضنك اللى أنا فيه ·· اللى كلنا مغروزين فيه ·· هاه ·· هاه ·· هاه ·

مرة أخرى استطلع الدم المتجلط على يديه وساعديه وجرى من فوره ليغتسل فى جردل البير ·

وجاءته قهقهات سـيد السنهورى هذه المرة من أعماق قاع البئر الغطيس المظلم :

ـ هاه ·· هاه ·· هاه · يا أبا مخلوف ·· مخلوف ·

ترك جردل الماء ، الذى انفك حبل بكرته فاندفع محدثا دويا هائلا الى أن استقر داخل البئر ، ومرة أخرى علا نعير البهائم صاخبا ، وكما لو كانت تجأر من أعماقها صارخة مما يحدث ، هنا لم يتمالك نفسه ،

فسحب هراوة ثقيلة وانهـــال بها ضربا على أعناق الجمال والعجول والجاموس والأبقار والغنم ، مما ضاعف من عوائها وخوارها وكما لو كانت تعلن احتجاجها على ما يجرى ٠

انسحب مقـــاربا جوال كومة اللحم التى كانت يوما ــ السـيد السنهورى ــ وانكب عليها بجذعه الفارع ، فألقى بها على ظهره ، وخطا حافيا الى داخل الدار ، ودون أن يحفل بولولة النساء :

ــ أحى أحى ٠

تعثر فى عتبة البوابة وفتح مزلاجها الحديدى الكبير ، وأطل على حارة الجزارين الغاصة بالكلاب المسعورة النابحة على غير العادة وهو يردد لنفسه حين غاص فى دياجير الليل الغطيس :

ــ دبيحه ، وقيعة ٠

ــ تصور أن أحدا سيبادره بالسؤال :

ــ تور ٠٠ وقيع ٠

ظل يمشى من حارة لحارة الى أن وصل دورة مياه البلدة بالقرب من السلخانة ، واستدار طويلا عبر الجهات الأربع المحيطة ، وحين لم يسمع أو يرى أثرا لمخلوق ، سوى الكلاب التى هدها النباح والسعار ، أنزل جواله الى جوار دغل ، وتصور نفسه يسبح فى بحار الدم المتجلط رأسا لقدم :

ــ الميه ٠٠ استحم ٠

دفع بشنيلته وغاص وراءها فى أمواج الماء الجارى مستريحا ٠

★★★

- ٢ -

غاص وراء الجثة سابحا فى ضوء القمر الفضى الضنين ، الى أن طوى الهدار العاتى الجثة مخفيا ٠

انتبه الى مطلع النهار وبصيص ضوء انبلاج الصباح فخرج مهرولا غائصا فى طين ورغام الشاطئ ٠ تلفت طويلا واتخذ طريقه عبر الحوارى الموحشة ، وكلاب البلدة التى استكانت حتى انه لم يعرف لماذا ؟

ــ الميه ٠٠ الدم ٠

دفع بوابة بيته الحديدية ، واستقبله عواء النساء ونحيبهن الذاتى ونهنهاتهن المكتومة ٠٠ ولم يسأل ٠

اتجه من فوره الى كنبته الأثيرة المفروشة بفراء الخرفان واستلقى مسلما بدنه بكامله للنوم والكوابيس ٠

رأى أول ما رأى نفسه يسبح دافعا بكلتا يديه جثة صديقه السيد السنهورى مبعدا الى ما لا نهاية ، وانتبه على قهقهاته العالية المدوية التى جاءت من كل مكان حوله ، جاءته من شاطئ بحر سنورس ، ويوسف البعيد، ومداخل بحيرة قارون ، والطواحين المحيطة ، وشواشى النخيل العالية :

ــ هاه ٠٠ يا أبا مخلوف ٠

وللحظة ثقلت الجثة ، وكأنها تأبى العوم والتقدم ، بل هى اندفعت بشكل معاكس ، غائصة نحو القاع وهو فى أثرهـــا ٠ حاول الصراخ والاستنجاد ، ولم يجد صدى لصوته :

ــ الحقونى ٠

هنا لم يجئه ويطغى على أذنيه ، سوى صوت بهائم حيشانه وزرائبه حين طاح فيها ضربا على أعناقها بهراوته الجمال والجاموس وأبقار الذبيح والضأن ٠

وجاءته قهقهات السنهورى هذه المرة من أعماق بئر بيته :

ـ يا أبا مخلوف .

ظل يصرخ وينزف عرقا ثقيلا ، الى أن ذهب فاتحا عينيه على وجوه كل أهل داره وهن يبكين ويجاهدن فى ايقاظه :

ـ يا أبا مخلوف .

دعك عينيه الناريتين بشدة واستجمع نفسه قائما على قدميه :

ـ الحمارة .

جرى من فوره الى حيث داخل حيشانه منكبا بساعديه على حمارة السيد السنهورى ، نازعا عنها بردعتها الحمراء ملقيا بها الى بعيد .

اغتسل بجردل ماء البئر ، وساعدته بناته فى ارتداء خلع وارتداء ملابس خروجـه ، وقبل أن يتأهب للخروج دون تنـاول افطاره ، كسر ـ بلكميته ـ مرآة دولاب ملابسه :

ـ مش عايز أشوف حاجة .. بعد النهاردة .

غمغمة الأم القعيدة :

ـ كان ليه .. كان ليه .. خسارة .

تلقفته الحوارى المفضية الى حوارى ووسعايات ، كما هو يخطو مرتفع الرأس ملقيا السلام على الجميع ، الا أنه رفض الوقوف والانصات لأى مخلوق ، حتى صبيانه..عرج على حانوته مشيرا الى بعض الباعة الجائلين بالابتعاد :

ـ غوروا .

واصل مشيه وسط زحام سوق الشارع ، متجنبا العيون المقتحمة وكان قد قرر أمرا :

ـ المصبغة .

مرددا فى حزن كثيف لموال كان يحلو له ولصديقه السيد السنهورى التغنى به فى لحظات الصفاء :

ـ الله يأتيك يا صباغ التياب بنايبه .

اللى صبغت الشين والزين ٠

فى دن واحد ٠

علشان كتر الدراهم ٠

كانت المصبغة تغص بالعمل على قدم وساق فاشتعلت أفرانها ، وعلا بخار آذاناتها وقام عمالها بنشر ما جهز من ملابس ملونة ٠

وكان صاحبها قبطيا عجوزا يدعى المعلم معوض ، بادره بالسلام :

ــ سعيدة مبارك ٠

فقام الرجل عن دكته مسلما مستفسرا حين لم يجد ملابس صباغة بحوزته ، أجلسه الى جانبه :

ــ خير ٠

ارتبك قليلا ثم أردف هامسا مأخوذا :

ــ عندى بهيمة عايز أصبغها ٠

ابتسم القبطى متفهما :

ــ أول طلب أسمه ٠٠ دا احنا هدوم يا أبا مخلوف ٠

ــ دا طلبى يامعلم معوض ٠

تساءل صاحب المصبغة :

ــ طب والغلية ؟

ــ مش مهم ٠

ــ مش مهم مش مهم ٠٠ أى لون ؟

ــ البهيم اللى عندى أجهر ٠

ــ طب مانبعت نجيبه هنا المصبغة ٠

ــ لأ ٠٠ أصله معيوب شوية ٠

قام صاحب المصبغة فمزج الألوان المطلوبة بنفسه ، وما أن أخبره بكيفية تحضير الصباغة ، هرول فجرى الى حيث حيشانه فطلب ماء مغليا ومقشة وخلع عنه ملابسه وانكب فى صباغة حمارة المغتال التى علا نهيقها ــ غير المنكر ــ تحت ثقل آلام الماء المغلى ، وجاوبها بضع من بهائم الحيشان ٠

ومن فوره رفع يده بخيزرانته ضاربا الحمارة ، فى محاولة لكتم صوت نهيقها المتقطع :

ـ هش يا بنت الرفضى • هش •

ابتعد قليلا متأملا لون صبغتها معيدا الطلاء فترة ، وحين استراحت لها عيناه انكب من فوره مزيلا آثار الدماء وكل ما ينم عن صديقه وشريكه السنهورى الذى كان ، وحين غلبه النعاس والاجهاد ، ألقى بنفسه آخر الحظيرة العملاقة وأسلم جفونه للنوم والسهاد •

قام مرات مجاهدا من كوابيسه طاردا عنه فلول بهائم ـ المخول ـ التى كانت تتجمع عليه فى محاولة لافتراسه تحت أقدامها الثقيلة ، وفى كل مرة يتحقق فيها من كوابيسه وما آل اليه ، يواصل النوم الثقيل ، طاردا عنه أيضا قهقهات السنهورى :

ـ يا أبا مخلوف •

فى المساء اغتسل وغير ملابسه ، ولم ينطق بكلمة لزوجته وبناته وكل أهل بيته خارجا لا يعرف له مسلكا •

طاف شوارع البلدة مشرقا ومغربا ، وذهب الى محطة السكة الحديدية وركب القطار ، ونزل المدينة ، وقفز فى أول عربة حنطور صادفها ، وحين سأله السائق بصلف :

ـ على فين ؟

قال :

ـ سوق •

تذكر أنه كثيرا ما كان يقوم بهذه الجولة داخل الحنطور برفقة صديقه السيد السنهورى ، يضحكان طول الليل ، ثم يعودان أدراجهما فى آخر قطار الى البلدة :

ـ وماذا جرى ؟

عرج على بيت منعزل به بنتان شقيقتان ، اسم كبراهما ـ كلوديا ـ والصغرى بسمة ، وما أن صرف الحوذى ، ودق الباب ، وفتحت له بسماء ، حتى بادرته السؤال :

ـ أمال فين السنهورى ؟

اعتراه غثيان مفاجىء لم يقاومه ، بل هو تجنب الأخت الصغرى مستديرا مرجعا ، وقد غمت نفسه لدرجة أنه قاوم الدخول الى المنزل ، ولم تطل جلسته ، فشرب شايا بالنعناع ، وهب من فوره واعدا بالعودة القريبة برفقة السنهورى ليستعيد الجميع الأيام الخوالى :

– كيف ؟

استقل قطار آخر الليل – القشاش – وعاد الى البلدة ، وتجنب شوارعها الرئيسية ومضى يتخبط فى الحوارى الخلفية الى أن وجد نفسه على باب خمارة « لبيبة » وزوجها الأعمى ، تردد طويلا وهو الذى لم يعتب هذه الخمارة منذ زمن والتى يؤمها حثالة البلدة ، من شيالين وعرباجية وتجار قطاعى وفرارجية وصيع ومدرسين الزامى وكمسارية .

ولم تطاوعه نفسه فدلف على استحياء قاطعا الغناء الجمعى الخليع ، بينما تبادل كل من فى الخمارة النظرات المستطلعة :

– أبو مخلوف .

طلب نصف عرقى – أول قطفة – وعبه منزويا ، وطلب لبعضهم أكثر من طلب ودفع الحساب السخى وهب منفلتا منكسا :

– ليـه ؟

ومرة أخرى واصل زحفه اللاارادى الى أن واجه رفيقه عمر صديقه السيد السنهورى ، وكانت أرملة فاتنة تدعى « كوكب » طرق الباب على استحياء ، الى أن أطلت من ترسينتها فى الدور الثانى ولمحته :

– خطوة عزيزة .. والسيد .

– أنا جى أسأل عن السنهورى .

وما أن دخل وصعد سلالم بيتها ، ونفذت اليه ألفة المكان ، حتى غالـب نفســه فى ألا يحكى لكوكب ما جـرى وحصـل بتفاصيله وحكى حـكايات مطولة يخالط فيها الصـدق التلفيق ، لدرجة دفعت بالغانية المتمرسة الذكية الى عزل هذا عن ذاك ، نادبة وهى تقدم له شايه :

– ليه . .ليه ؟!

صرخ فى ألم دفين :

ــ اللى حصل ، واديه آهى يا كوكب .. دا لحمى الحى .. عشرة عمرى .

انتصب واقفا مهتزا كمن يرقص رقصة جنائزية على ضوء الفانوس الخابى ، لدرجة دفعت بها الى جذب ستائر شرفتها ومواجهته مهدئة :

ــ دى نكبة .

قال دون وعى :

ــ مش أنا .

قالت :

ــ كلنا بنعمل كده .. ومش احنا أبدا مش احنا .. احنا غير كده . احنا بنحب . مغروسين فيه . مولودين بيه . وحتى من قبل ما نتولد . نطفه . احنا غير كده .

واجه مرآة دولابها البنور البلجيكى محطما بقبضته :

ــ أبدا مش أنا .

مضت تجمع زجاج المرآة المهشمة دون أن تنبس بكلمة فترة :

ــ زى ماقلتى .. احنا غير كده .

قالت :

ــ عارفة عارفة .. أمال ان ماكنشى أنا اللى حا أعـــرف مين اللى حايعرف .. دا عمر .

أحبها فى اشتهاء حقيقى ، كما لم يشتهيها أبد ا من قبل ، قاربها محتضنا وهو يخفت ضوء الفانوس .

القت بالزجاج جانبا ، وأعطته نفسها فى حب :

ــ ننسى .

ــ نتغسل .

غاب طويلا منتشيا بعطورها ، وجسدها الفارع الموشوم فى وحدات خضراء قاتمة بلون التوتياء وفى كل مرة يترنم مرددا :

ـ مش أنا ٠

ـ أبدا يا مسعد ٠٠ موش احنا ٠

وفى الفراش الوتير المغطى بفراء الخرفان وجلود الماعز اللينة نادرة الألوان ، بادرته :

ـ خلاص ٠٠ ماعدناش نشوف السنهورى ٠

انتفض مبتعدا :

ـ حانشوفه ٠

مضت تندب وهى تغالب نشيجها الذى غزاها فجأة ، ناشبة أظافرها فى جسده :

ـ فين ٠٠ فين ٠٠ ؟

استعذب دمه السائل فى خطوط مستقيمة على طول جسده العارى ، بينما مضت هى تلعق دمه النازف فى شره غجرى شيق :

ـ كنا حلوين مع بعض ٠ ليه كده بنتغير ونتبدل ونصفر ونمرض ٠ ونرجع نندب وناكل فى بعضنا ليل نهار ونهار وليل ٠٠ ليه ؟

بكت وهى تترنم بمأثور النبى موسى :

ـ آه ٠٠ بس ٠٠ لو صبر القاتل على المقتول ٠

دافع عن نفسه فى مواجهة اتهامها الصادم المفاجىء :

ـ أنا ٠٠ السنهورى ٠٠ صديقى رفيق عمرى يا كوكب ٠ دا عمر يا ناس يا عالم ، وحقه وحق أولاده فى رقبتى ٠٠ دا حق ٠٠ وكان الواجب انه هو اللى يصبر ، والبادى أظلم ٠

وكمن وضعت أصبعها على أصل الداء ، قاربها من جديد محتويا وهى مستلقية على صدره مستكينة مغرورقة بدموعها ، تنزع عنه شعيرات صدره البيضاء متذكرة :

ـ كان يحب أشيله الشعر الأبيض من صدره ، بكت :

ـ ابنى ٠

مسح عنها دموعها مخفتا أكثر من ضوء الفانوس ، وتعمد أن يؤلمها وهى تصرخ منتشية فى أحضانه ، تبكى فى ألم وتضحك فى تهتك مسيلة دمه بأظافرها فى رغبة دفينة لايلامه ٠

واستعادا معا ذكرياتهم الثلاثية العذبة ، فى أيام الأعياد والمواسم شم النسيم والأربعينيات وعاشوراء ، أيام الموالد ، واحتفالات فديمين والسيلين والعجمين وأديرة العزب وقارون ونزهات بحر يوسف الليلية ومواسم البلح والمانجو والقصب والبرتقال والفول الأخضر وأعياد اللحم ٠٠ أيام الطرب ، حين كانت تغنى لهما كوكب وهى بين أحضانهما :

ـ أسهر فى دجى الليل أنظر فى الكواكب دى
على الغزال الوحيد الفريد دا اللى كوى كبدى
وأبات أشاشى على المحبوب ٠٠ ما جاشى
ويالوعتى شوفته ماشى مع خصمى ٠٠ كوى كبدى ٠

وتغنـــى :

ـ مســـــيكى بالخـــير يا عود الأنا يا روحى
ياللى تيـــــابك على الجســـم ترد الروحى
بكره آخـــد اســـمى واكتبـــه فى اللوحى
وأعلقه فى الهوا الطاير لاجل البكا والنوحى

غمغمت :

ـ كونتوا أمى وأبويا ٠٠ أولادى ٠

واجهته :

ـ فين السيد ؟

هب مرتاعا مبتعدا ساترا جسده بملاءة السرير :

ـ مش أنا ٠

دلفا الى داخل الحمام الطينى واغتسلا طويلا ، وكلا منهما يليف للآخر ظهره ، وجاءهما صوت السيد السنهورى على حين بغتة :

ـ دورى يا أبا مخلوف ٠٠ هاه ٠٠ هاه ٠

اعتراهما الصمت الثقيل لىحظة ، واندفعت هى عارية تبحث فى جنبات البيت الرطب ، وحين عادت خاوية تلقفها من جديد ليكمل تلييف ظهرها البرنزى المتناسق فى صمت ٠

وحين انتهيا قالت كوكب ى انتشاء وكأنها انما تحادث المغتال :

ــ محضرا لك طاجن السمك ٠

جلسا يأكلان السمك والفلفل الأخضر الحامى وشربا شـــايا ثلاثة أدوار ، وكانت لا تزال تلح بالسؤال :

ــ فين السيد ٠٠ فين ٠٠ فين ؟



- ٣ -

في ضحى اليوم التالى ، قـام مسعد عن فراشه ملتاعـا على أصوات خلاخيل وغوايش زوجة السنهورى وكانت بدوية فطنة عالية الصوت جاءت تسأل عن زوجها :

ـ هو أبو رضا حلالو العيش عندكم هنا ‥ دا سافر مجاش من يوم الخميس ، وقبل ما يركب حمارته قاللى أنا مش حاغيب ـ يا صديقة ـ

ضحكت بصوت مجلجل ، وهى تتخفف من زيارتها التى أحضرتها معها ، من تين شوكى ورمان :

ـ هو فين ؟ ‥ وفين أبو مخلوف ؟

اعتراه الدوار الملازم ، وهو يبحث عن مداسه ، ويرتدى جبته تأهبا للخروج من حجرة نومه ومواجهة تلك المرأة بعينيها الفاحصتين :

ـ أروح فين ؟

ـ أهلا يا صديقة ٠

ـ امال السيد فين ؟

ـ اهدى بس وخلينا نفطر سوا ونشرب الشاى ٠

تناول الجميع افطارهم ، وتغير الحديث ، فتكلموا فى كل ماعن لهم، من غلاء ووقف حال والحرب الطاحنة على الحدود وسطو البدو على الفلاحين واستشراء الكوليرا والحصـد الجماعى وسمك بحيرة قارون وأكل لحم البجعات الطيب الذى أصبح موضة هذه الأيام بعد أن شح السمك وتسمم مياه البحيرة ٠

وفى كل مرة تقطع المرأة الضيفة استرسال الكلام سائلة :

ـ والسيد يا أولاد اللى خرج ومارجعشى وسايبلى حفنة عيال ‥فين ؟

التفت مسعد مسلطا عينيه التاريتين على زوجته مقاطعا مغيرا الحديث :

ـ شفيلنا بطيخة باردة ·· قومى ·

وتكلم كثيرا فى غياب زوجته عن وقف الحال الملازم وما أصبح يسببه من كوارث فحتى الجزارة وكارها وقف حالها،حتى انه كره الذبح والذبائح وسلخها ، سوى أن هذا كاره الذى توارثه عن أبيه وأجداده ، ولا يعرف سواه ، والسيد يعرف هذا بتمامه وكثيرا ما أفاض معه فى الحديث عن كرهه الجارف للذبح والسلخ ، وتساءل ـ بلا مبرر ـ عن كيف أنه لا يقدر على ذبح حمامة مهيضة ولا فرخة ولا أرنب ، وكل أهل بيته يعرفون هذا عنه ، فهو يفر بجلده خارج البيت والحارة ، حين ذبـــح ديك أو أرنب ، فكيف له بذبح البهائم الجمال العالية السودانية ـ النجاتى ـ ، سوى أن كاره وما طبع عليه كارها ·

قال :

ـ وهيه كده يادابـح يا مدبوح · دى دنيـا ·· يا أم رفـاعى ·· وراثينها كده ·· وكلها شقا فى شقا ·· مغروزين فيه من صغرنا ·· دى فخاخ ·· ورا فخاخ ، ومفيش مهرب ·

ختم مونولوجه الحبيس مع مقدم زوجته :

ـ الناس تعمل ايه؟ ·· تاكل ايه ··؟ تاكل بعضها من هنا ورايح· فى لحمها الحى يا أم رفاعى ·

أشار الى من حوله من دروب وبشر :

ـ الناس معذورة ·

قالت البدوية :

ـ ما هو دا ذاته كلام السيد ·· الضيقة اللى خنقانا ·· بس فين ؟

أطرقت :

ـ بس مش لازم نخنق بعض يا أبا مخلوف ·

قال :

ـ دا احنا أهل ·· لحم بعض الحى ·· والسيد أخويا ·

أمسك بيدها ضاغطا موقنا من استجابتها ·

عادت زوجته تحمل « أنجر » البطيخ قانى الاحمرار ·

وحدث ما لم يكن فى الحسبان ، ذلك أن حمارة البدوية انفكت من عقالها جارية الى داخل البيت وحيشانه ، حين سمعت بنهيق الحمارة المصبوغة ، وكانت ابنتها ٠

تركت البدوية بطيخها وخطت حافية فى أثر حمارتها فى محاولة لارجاعها ، الا أن الحمارة ــ الابنة ــ كانت قد قاربت أمها متمسحة ٠

توقفت الزوجة البدوية مذهولة مما يحدث مقاربة الحمارة المصبوغة مملسة على جسدها ، كمن تعرفتها ناشجة :

ــ ايه اللى عمل كده فى حمارة السنهورى ؟

قاربها مسعد ممسكا مهدئا :

ــ دى مش حمارتكم ٠٠ أبدا مش هيه ٠٠ وموش أنا ٠

دفعته نافرة :

ــ هيه ٠

ــ حمارتكم جهره يا أم رفاعى ٠

وغمغمت الزوجة :

ــ سلامة عينك يا صديقة ٠

ولومضة تماسكت البدوية مستديرة محكمة سيطرتها على نفسها :

ــ يخلق من الشبه أربعين ياعالم ٠

أرجعت حمارتها التى استبد بها العناد ، الا أن مسعد انهال عليها ضربا بخيزرانته مبعدا الأم عن ابنتها فى عنف :

ــ برا ٠٠ هش يا نجسة ٠

عادت المرأة فأكلت بطيخها ، ولملمت حاجياتها وأولادها ، وودعت الجميع ، متخذة من فورها طريقها الى مبنى مركز البلدة ٠

حتى اذا ما استقبلها الضابط النوبتشى ، حكت له من فورها واقعة تغيب زوجها ثلاثة أيام بلياليها ولم تغفل شيئا حتى حكاية الحمارة ٠٠ صرخت :

ــ جوزى قتيل البلد دى ٠٠ يا لهوى ٠

قام اليها الضابط مطمئنا ، مجرداً حملة ، وأسرع الجميع الخطى الى حيث حارة الجزارين الى حيث دار مسعد ٠

وكان هو ساعتها قد تنفس الصعداء ، طاردا عنه كوابيسه النهارية المحاوطة :

ـ حتى الصبح فى وضح النهار ٠٠ أروح فين ؟

اتخذ طريقه الى داخل حمامه ، مشيرا لابنته الصغيرة الأثيرة التى اندفعت من خلفه غائبة عن وعيها الى داخل الحمام ٠

خلع عنه ملابسه وتكوم جالسا القرفصاء أمام الطفلة مستفسلما للماء والصابون ، مطالبا الفتاة الصغيرة بأن تضغط بكلتا قبضتيها فى غسل جسده الفارع الملىء بالبثور الحمراء :

ـ قوى ٠٠ قوى ٠

حتى اذا ما وصل ركب الضابط ومخبريه ، هب واقفا مطلا من كوته على الحارة ، وتبدى عاريا كالمشدوه وهو يرقب الضابط مترجلا عن حصانه الأبيض وزوجة السنهورى فى أثره مولولة ، واندفعوا كالعادة الى داخل البيت ، فى كبسة هائلة بحثا عنه ، الى أن واجهوه عاريا :

ـ ليه ؟

أحاط به الخفراء والمخبرين ، واندفعوا جميعا الى داخل حيشان البهائم والمرأة تصرخ ٠

ـ وآدى الحمارة يا بيه ٠

ـ هيه ٠

ـ هيه ٠٠ وحتى كمان مطرمة ، وغايب عنها ضرسين شمال ٠٠ تحت ٠٠ أهو ٠

اندفعت الى الحمارة وفتحت عنها فكها مشيرة للضابط :

ـ آهى ٠

ـ صحيح ٠

اندفع مسعد عاريا هائجا فى وجه المرأة والضابط والجميع ، جاذبا الحمارة باتجاه البئر ليوقعها بكل عنف :

ـ دى مش حمارتكم ٠

تلفتت المرأة حتى وقعت عيناها على صرة الصبغة فى كوة بجدار الحيشان :

ـ وآدى الصبغة ٠

ونشبت معركة بين مسعد وأهل بيته من جانب ، والضابط ورجاله والمرأة وأولادها من الجانب المقابل ٠

وتجمع سكان الحارة والحوارى المجاورة فى جموع هائلة وكأنهم على موعد مع ما يحدث :

ـ صبغوا حمارة القتيل ٠

ـ الغريب ٠

ـ السنهورى ٠

ـ صديق العمر ٠

ـ يادى الخراب ٠

ولم يجد الضابط منفذا بازاء عنف وهستيريا مسعد سوى تقييده وصبغ جسده بنفس صبغة الحمار واركابه اياها ، واتخذ الموكب طريقه على هذا النحو عبر حوارى البلدة ودروبها وشارعها الرئيسى لتتجمع الوفود من هنا ومن كل صوب ، وهم يضحكون ويترحمون على ما يحدث ، الى أن وصل الركب مبنى المركز ، وأودع القاتل الحجز ٠

وتندرت البلد كما لم تتندر من قبل ، على ما يقع ويحدث فى أيام الضنك تلك ٠

ولم تطل محاكمة مسعد ، نظرا لتوافر الأدلة وأولها اكتشاف جثة القتيل في أحد المصارف المفضية الى بحيرة قارون بالقرب من جسر « تنهله » .

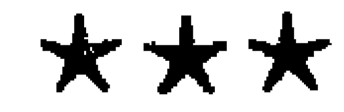
ومنها استقدام النيابة لصاحب المصبغة الوحيدة فى البلدة ، المعلم معوض ، واعترافه بزيارة مسعد له بالمصبغة .. وصبغ الحمارة التى أصبحت حديث البلدة وما جاورها من بلاد وقرى ونجوع .

ـ قتلوا القتيل .. وصبغوا حمارته .

الا أن بارقة الأمل الضنينة فى حياة القاتل مسعد ، فلم تكن سوى عشيقة القتيل السابقة « كوكب » التى طالها التحقيق ، الا أنها أصرت على انكار ما حدث قائلة فى تندم :

ـ مش احنـــا .. أبدا .. مش مسعد .

وظلت دائبة الزيارة لمسعد فى حجزه لأسابيع حاملة اليه كل ما طابت اليه نفسه الكسيرة من مأكل وملبس ولفائف ، الى أن صدر حكم ادانته بالحبس تأبيدة مع الأشغال الشاقة ، ورحل ذات صباح من سجن الى ما يعقبه الى أن استقر به المقام فى سجن ـ المحاريف ـ بالواحات الخارجية، بعنبر ٣ المقابل لعنبر السياسيين داخل أسوار ذلك السجن المعتقل العتيد.



- ٤ -

رغم مضى بضع سنوات على حدث سجن « مسعد الضانى » الا أنه لم يتخل لومضة عن التأكيد بكل حواسه لنفسه أولا ، ولأى من صادفه ، بأنه ليس هو :

ـ أبدا •

فى البداية يأس من ايصال مثل هذا التصور لزملاء عنبره من قتلة وأرباب سوابق ومذنبين ، فى كل مرة يحكى فيها حكايته وما جاء به الى هذا السجن فى ساعات الليل الطويلة الشاقة عقب تمام آخر النهار ، حين يستلقى على برشه الى جوار محدثه ، يدخن ويحكى بداية معرفته بصديق العمر وشريكه « سيد السنهورى » ، وكيف اختلفا الى حد تشهيره به أمام حانوته وسط الشارع الرئيسى على مرأى من الملأ :

ـ أنا قتيل مسعد الضانى •

لحين اقدامه على جز رأسه وتقطيع أشلائه بساطور الجزارة ومتاواته فى جوال قديم ، وحمل الجثمان الثقيل عبر الليل الغطيس والقائه فى البحر والسباحة خلفه فى ضوء القمر ، مختتما حديثه الشقى ب :

ـ أبدا •• مش أنا •

ـ مش أنت ها ها ها •

وتنهال عليه السخرية التى لا تخلو من شفقة أو استخفاف :

ـ لازم أنا •• احنـــا •

ـ يا راجل احنا واحد •• اختشى •

عندئذ يتضاعف شقاؤه مرتين وثلاث ، وهو في حبسه وعلنه :

ـ كيـف ؟

الى أن وجد ضـالته خارج نطاق ذلك العنبر القـذر للقتلة وعتاة الاجرام ٠

٭

وحدث ذلك بطريق الصدفة وليس غير ، حين شاركت مجموعتـه ـ برنجي ـ المنطقة التى يعمل بها المحابيس والمعتقلون السياسيون ، خلال تطبيق عقوبة الأشغال الشاقة بجبل مزرعة السجن ـ الأردى ـ لاستصلاح قطعة أرض وزراعتها ، سهلية تمتد متعرجة فيما بز جبلين قاحلين ، يموجان بالحشرات الزاحفة ما بين ثعابين وطراشات وسحالى تقتات تراب الأرض بالاضافة الى الزنابير والحشرات النطاطة ٠

كان يشهد أولئك السياسيين بملابسهم الأكثر نظافة من المساجين العاديين ، ونظاراتهم وقلنسواتهم ، وترابطهم البادى كرجل واحد ، يتسمع أحاديثهم ، ونقاشهم وتعبيراتهم المألوفة حول : الشقاء الانسانى ، وبؤس الناس ، تحت خط الفقر ، غياب العدالة ، الظلم السائد لنمت واقفين ، التغيير ، اقتسام الشقاء الموت على عادة الأشجار المنتصبة ما نحن سوى ملح الأرض ٠ عوامل مساعدة لاتمام العملية ٠ مجرد الانتقال ٠٠ الحركة باتجاه الوعى ٠ التغيير ٠

كيف كانوا يقتسمون اللقمة والسيجارة وكوبة الشاى ، يضحكون رغم ما هم فيه من قهر :

ـ ولا يهمك ٠

ـ احنا ولاد بكره ٠

ظل لأكثر من عام ، لا يجرؤ على محادثتهم والفضفضة معهم فيما هم فيه ، كيف أنه انقسم ذات يوم قائظ ، فأصبح شخصين ، أحدهما قاتل مروع لصديق العمر :

ـ أجل شخصين ٠٠ وأكثر ٠

ذلك على الرغم من معرفته الجليـة بهيئاتهم وسـحنهم ، التى يغلب عليها الاكفهرار والنحافة،وكذلك سماتهم وربما مهنهم وكارهم وأسمائهم٠

ـ نبيل الهلالى ، شهدى عطية ، زكى مراد ، فخرى لبيب ، محمد سيد أحمد ، داود عزيز ، عبد العظيم أنيس ، العالم ، فيليب ، فوزى حبشى، معين بسيسو ، فتحى عبد الفتاح ، نبيل زكى ، بدوى محمود ٠

من هنا أصبح عزاؤه الأول والأخير ، هو مقاربة خطوطهم والانصات بكل حواسه لهؤلاء الناس الذين يطلق عليهم مرة سياسيين وأخرى ديمقراطيين وشيوعيين خوارج ، ليصله ما تناثر من أحاديثهم وكيف أنهم ـ كما يتصفون ـ ملح الأرض ٠

متعجبا مترنما بمأثور صديقه ـ ضحيته ـ السيد السنهورى :

ـ يا عيش بلا ملح ٠

ـ ياليته كان بخ فيه تعبان ٠

ليت السنهورى معى الآن ، منصتا شاهدا لأولئك الناس وسماحة وجوههم ، هو يعرفه لم يكن ليقف منهم موقفه المرهوب ، بل لكان قد خالطهم وأخذ معهم وأعطى وضحك طويلا من أعماق قلبه :

ـ دول زينا مصريين يا أبا مخلوف ٠٠ وكلنا هنا معيوبون ٠

بل هو أصبح فى سنواته الأخيرة دائم الاستحضار له يحادثه ويناجيه ويطلب مشورته ، ويتخفف معه من بلواه وشقاء روحه ، فكيف له أن يقتله مزهقا روحه عن جسده ، بل يقتل كل نبض فيه ٠٠ محال ٠

الى أن كان يوم زامله فيه السنهورى كظله ولم يفارقه فى غدوه ورواحه وتكسيره للأحجار ، وهنا رفع صوته محدثا بشكل لفت أنظار زملائه وبعض الحراس ، بل وبقية المساجين من السياسيين الذين قاربوه فى رثاء متفهم :

ـ مسكين ضحية بيكلم نفسه ٠

هنا قاربه أحدهم فى همس ملائكى لم يشهده قبلا ، وكان على معرفة به :

ـ نبيل الهلالى ٠

ـ مالك يا زميل ٠٠ بتكلم مين ؟

ـ هه ٠٠ صاحبى الروح بالروح ٠٠ السنهورى ٠

ـ فين ؟

ـ هنا معايا ٠٠ أنام وأقوم معاه ٠٠ من صغرنا ٠

هون عليه معدلا من منظاره ، وأجلسه الى جواره وتعارفا بعد أن أنس اليه ، وحكى له حكايته مختتما كالعادة أنه ليس هو أبدا ٠٠ فكيف له أن يقطع رأس أخيه ٠

قال الهلالى وهو يهدىء من روعه عازما بكوبة شاى :

ـ أكيد مش أنت ٠

قال :

ـ وهو عارف كده (التف مشيرا) السيد ، وهو اللى شجعنى على الكلام معاكم ٠٠ بيحبكم بيحبكم ، وقاللى أمال يا أبا مخلوف ، دول لحمنا ٠ وناس طيبين ٠٠ ومصر ولادة ٠

وتصادقا ، أصبح لا يستمتع بالحديث وشرب الشاى وتبادل كسرات الخبز والغموز الضنين ، الا معهم ٠ بل انه ود لو شاركهم عنبرهم ، واستمع بكل حواسه الى مناقشاتهم واحساسهم الدفين بآلام بسطاء الناس ، من فقراء ومهانين وواجفين ومن لا سند لهم وهم أغلبية الأغلبية على طول مصر وعرضها ، هم فلاحون وتجار قطاعى وحدادون ورعاة مواشى وجزارون وخبازون ، لكم تمنى هذا من كل قلبه ٠ لكم فتح عيونهم أكثر فأكثر على آلام الناس فى بلدهم الواقعة فى مصر الوسطى ٠

ليته كان قد التقى بهم أو بأحدهم منذ البداية ، ساعتها كان قد أعمل عقله وليس حواسه البهيمية ولما كان ما وقع وقع ، فى حالة حضور العقل واعماله ، ولكان أيضا قد تقبل الظلم الجماعى ويمكن القول الاجتماعى الجائر ، وفى هذه الحالة لتقبل واقعه ، مثله مثلهم وهم يضحكون الآن رغم القهر والتعدى ٠

كانوا يلغطون من حوله وهم يعملون ، يحملون أحجار الجبل ورمل الصحراء فى صفاء لا يخلو من انسلاب ؛ وهم يحملون محلقين عبر ضباب مستقبل غير منظور ، الا أنه مقطع الأوصال بالماضى وارثة العفن الثقيل ، فالماضى بأسلافه وأقوالهم ٠٠ هم الموتى ، أو أن الموتى هم الأسلاف ٠

وليكن تصور أولئك الزملاء مجرد حلم قرمزى ، قابل هو بدوره للعطب والافساد ·· الا أنه فى كل الحالات ، مجاله المستقبل ، بكره ·· ذلك الذى فى كل حالاته أكثر اشراقا من اليوم والآن ·

لكم أصبح يكره ذلك الماضى الآسن وارثه اللامجدى الذى دفع به ذات يوم قائظ الى بحار الغدر والانتقام · فمن ··· أقرب الناس اليه ، السيد السنهورى ، الذى هو من أحد الوجوه مثلهم وكثير ما سمعه يردد أقوالهم ، عن الغابة التى أصبحنا نحياهـا ، والتى مجالها الوحيـد هو الافتراس والاهانة · وهو ما لا يرتضونه تلك الزمرة من السـياسيين ، الذين هدفهم الأخير هو الانسان ، وكيف يحق له الحياة والأثمار بلا قهر وتسلط ؟

وهكذا تتوالى الأيام والسنين ، التأم روح مسعد ، وهو يشهد بلاوى أولئك ــ الزمـــلاء ــ ، ودون أدنى ذنب ، سوى استهداف ما يصـغونه بالعـدل الاجتماعى · وتسييد العقل ، فى مجتمع غارق من شوشته الى أخمص قدميه فى الخرافة وسعارها ، مجتمع الأرث والتوارث والميراث وجنون الصعود مجتمع دود المش الذى يلتهم كبيره صغيره بلا هوادة ·

ــ اللى حصـــل ·

هكذا تقبل الضبانى وضعه الجديد ، كمختال بكامل ارادته :

وبدأ يشاركهم حياتهم وطعامهم ، ويقتسم معهم لفـائفهم وشايهم وجلدهم اليومى فى تقبل أكداس الظلم والتعنت ، والجريمة ، فهم دعاة تغيير باتجاه تسييد الحكمة مرادفة العقل ·

ولقد انعكس هذا التغير الذى طرأ على القاتل الضبانى من فوره على الانسانة الوحيدة التى ظلت على ودها معه ، بعـد أن تخلى عنه الجميع أبناؤه وبناته وزوجته وكل أهل بيته وأصدقائه ، لم يصمد حافظا الود سواهـا :

ــ كوكب ·

كانت تجيئه متكبدة مشقة السفر ، حاملة له شايه وبنه ولفائفه وأدويته ومسـكناته وملابسـه الداخلية الجديدة بانتظام حسـده عليه الكثيرون ·

فيتلقى وجهها الصبوح المشع براءة كمثل عذراء من بين القضبان العازلة فى عنبر الزيارة ، ماسحا عنها دموعها الجاهزة :

ـ كده تتعبى نفسك يا ست الستات ·· يا حافظة الود والمعروف طول عمرك ·· يا كوكب ·

أجابت وهى تتطلع اليه فى انبهار من ذلك التغير الذى طرأ عليه ، تراها العادة والتعود ، أم أحد الراحتين · ·اليأس · قالت :

ـ كله من خيرك يا أبا مخلوف ·

ـ قدمت له أكلته المفضلة ، مضت تطعمه بأناملها :

ـ كل اللى طلبته وبتحبه ·· جبته ·

تسلم أيدك يا كوكب ·

سألها :

ـ وازى البلد واللى فيها ·

ـ الكل بيسأل عنك ·

يعنى مافيش حاجـة اتغيرت ، تتغير ازاى وليه ؟ واللى كان ممكن يغيروا ويحرضوا ، اعتقلوهم وجمعوهم هنا بالنفر ·· زى قتالين القتلة والحرامية ، وهمه لاقتالين ولا حرامية ·

توقف عن طعامه زافرا :

ـ ما شفتش كده أبدا يا كوكب ·

ـ مين ؟

ـ دول ·

أشار الى حيث عنبرهم :

ـ السياسيين ·

تساءلت دون ادراك :

ـ بتوع السياسة ؟

قال :

ـ دول يشفوا العليل ·· رجاله بحق ·

واجهها متأملا طويلا فى أقصى حضوره وصحوته :

ــ العليـــل •

شاركته كوكب صبره المفاجىء دون فهم لمقصده وما اعتراه :

ــ صحيح يا أبو مخلوف •• صحيت وشفيت •

ــ ما عمريش كنت أحسن من كده •

ــ ازاى •• فهمنى •

ــ ناس محبوسة هنا معانا ، وبيطحنوا فيهم ليل نهار أكثر منــا أحنا المجرمين من حرامية وقتالين قتله •• عشان أيه ؟

ــ أيه ؟

قال :

ــ عشانكم يا كوكب الناس المطحونة فى كل حتة••وبس على كده••

آدى ياست جريمتهم •

قالت مستنكرة :

ــ ودا معقول يا مسعد •

ــ معقول •• وأهم آلاف

كده م الباب للطاق •• يسجنوهم •

ــ يطلعوا عليهم ببنـــادقهم وســيوفهم زى ما عملوا مع المســيح لما علقوه من ايديه ورجليه •• زى الدبيحة وسط اللصين •

ــ ودا اللى غيرنى •• ورد لى عافيتى يا كوكب زى ما أنت شايفة بنفســك •

ضاحكته :

ــ دا صحيح عينى عليك باردة ، رديت زى زمان يا أبو مخلوف •• وأحسن •

قال :

ــ صحونى •• ولازم الناس كلها تصحى وتفوق وتوعى لمصالحها ، وللى رجليها مغروسة فيه •• وساعتها ما حدش حايقتبل أخوه •

عاودها تندمها قائلة :

ــ والا بنته ·· بنتى بنت بطنى ·

بكت وحاول الضانى مسح دموعها من بين القضبان العازلة :

ــ مش وقته يا كوكب ·· اردمى ع اللى فات أحنا ولاد النهاردا ·

ــ اردم أنا أقدر أنسى ·· بنتى · ·وحيدتى ·· وساعة القضـــا اللى عميت فيها ·

ــ لازم ننسى ·· ونواصل ·

ــ ننسى · ·ودا برضه يتنسى ·· الذنب ·· السجن المؤبد اللى أنا فيه ، وهوا دا اللى خلانى أحس بك يا مسعد ·· اللى انت فيه ·

بدا مسعد كالمشدود وهو يتأملهـا فى لهوجة غير عابى بحرس السجن الذى بدأ رنينه النحاسى عالى الصوت ، ايذانا بانتهاء الزيارة ·

غمغم مسعد :

ــ برضه اللى فات مات ·

قالت وهى تتحسس لحيته :

ــ واللى مات ·

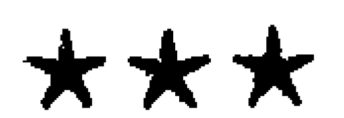
ــ كلنا حانموت ·

أغرقتها دموعها وهى تجاهد فى البقاء ، وأكثر من سجان يجذبها جذبـا :

ــ انتهت الزيارة ·

قالت متخلصة فى عنف من سجانيها :

ــ يا ريتنى استنى معاك هنا · ويحصلى اللى حصلك ·· الوعى اللى حصلك ·· ياريت ·



عبدة الأصنام

عبـد الآصـنام

ذات مغرب دخل على حجرتى « كداب الزفة » أو خلبوص المزيكة الذى أسكننى هذا البيت بيت الغوازى ، محمود الصوفى ، وكان يرتدى زيه الرسمى ، كفرفور أو خلبوص ، ممسكا بطربوشه الكهنة فى يده ، محييا على طريقة الخواجات :

ـ قوم معانـا ٠

ـ فين ؟ ٠

ـ سهرة صباحى حاتعجبك فى بلد قريبة ، حاتشوف فيها مفاجأة عجب ٠

تململت كثيرا رافضا ، الا أن الصوفى بقدرته الشرحة التى تضحك الطوب ، لم يفصح لى أبدا عن تلك المفـاجأة ومغزاهـا ، مما دفعنى الى الذهاب معه الى فرح أحد الأعيان فى بلدة صغيرة أبرز ما فيها بساتينها وثلاث بناءات هائلة فى حجـم أهرامات ومعابد الفراعنة وبضعة تماثيل عملاقة أكل عليها الزمن وشرب ، ما أن سألت عنها ، حتى قيل لى :

ـ أصنام من بتوع زمان ، ومعابد عبدة الأصنام وكل سكان البلد دى أبا عن جد ، حاولوا هدمهـا بالنوارج والطور سـنين ورا سنين أبا عن جد ٠٠ فلم يقدروا ٠

وكالعادة وجدتها فرصة سانحة لمواصلة هوايتى فى جمع وتدوين مأثورات وممارسات هذه البلدة البهيجة وخرافاتهم حول الأصنام العملاقة التى تتصدر بلدتهم ، ولم يسمع بها أحد ، لدرجة اننى نسيت أو تناسيت عن مفاجأة الخلبوص العجوز طويل القامة ٠٠ كعود القصب ذى الزعزوعة ٠٠ الصوفى ٠

خرافات من تلك التى سمعت منها آلافا مؤلفة ، تدور حول تلك الأصنام وعبدتها القدماء ، وحلم سكان تلك البلدة العائشين ، وتصوراتهم

عما تحويه من كنوز ، خاصة وان المسافة بينها وبين بلدة أخرى تدعى « سيلا » المنحدر اسمها مختصرا عن اسمها القديم الغابر ، وهو « سيالة الذهب » أو الذهب السيال .

وكيف أن سيلا المجاورة كان بها مناجم أو مصانع ومسابك لصياغة الذهب ، وعليه فان الأصنام تقوم على أشلاء مدن قديمة غنية بذهبها وأحجارها الكريمة من ياقوت وزمرد وفيروز وعقيق، بما يذكرنا بمحتويات كنوز ما تحت الأرض ، التى تفتحها التعاويذ ، والنصوص السحرية المفتقدة ، وكلام كثير عن حراس كل مقبرة أو كنز من ديوك مؤذنة ، وفى مأثورات أخرى قرود وثعابين عدوانية وعبيد محجبين وهكذا .

ورغم أن الأمر برمته تبدى لى فى تلك السنن سحريا ، الا أن حزنا ضارب الجذور اعترانى ، وأنا أشهد التشويه المتعمد الذى أصاب تماثيل الملوك والملكات والآلهة الفرعونية ، من اصرار السكان شديدى البؤس مرضى الأحلام حول تلك الأصنام وعبدتها ، وتبدى هذا من مجموعة الحكايات والخرافات وأشلاء الأساطير التى سمعتها ، كانوا أشبه بالعطشى والجوعى وهم يشهدون ما تحويه تلك الأصنام من ثروات وأصفر رنان ، لا سبيل الى الحصول عليه سوى بالتعويذة ، أو حل الطلسم الذى امتد الحلم به عسيرا ربما .. آلاف السنين .

الأحجار هائلة الأحجام .. صلدة كمثل جلمود تتكسر على سطوحها أعتى النوارج والفئوس ، فكيف العمل وها هو ذهب ومناجم « سيلا » المتاخمة من جهة يخلب كل ألباب ، ومن ناحية الشرق تتواتر الحكايات والنوادر عن آثار ومخزونات « كيمان فارس » القريبة ، التى كانوا يحملونها بالمقاطف ، وأغبطة ــ جمع غبيط ــ الجمال والحمير ، ما بين تماثيل أو مساخيط اناس كانوا الملوك وملكات وآلهات ونايس تؤنس الموتى فى قبورهم ، ناهيك عن كنوز أدوات الزينة من عقود وكرادين وخلاخيل وحلقان وخواتم ذات أحجار كريمة ، من يحوزها يحوز الخير كله، فلو أنه ذهب ليصطاد تجمع السمك عليها من كل صوب ، وأحجار محجبة من يحوزها تكسرت على جسده العارى النواصل ، وأحجار تجلب الحبل للمرأة العاقر ، وتفك ضنك وأزمات المربوطين وأحجار للسعد ، وأخرى للموعودين بالرزق والثراء .

كل هذا من خرائب كيمان فارس التى على مرمى البصر من تلك البلدة ــ بيهمو ــ وكلام كثير حول علاقة الاسم بيهمو بالبهائم ، حين

نزلها الخواجات أيام الاستعماريين الفرنسي والانجليزي ، وحازوا كنوزها التي لا تقدر بمال قارون ذاته ، حتى ولو كانت أحجارا . كيف العمل .. والبؤس المستشري في البلدة يعجز عن الوصف ، ما بين الحفاء والقبح والجوع الجماعي والبطالة ، كل هذا وفي حوزتهم هذه الثروة الهائلة من الأصنام وعبدتها قساة القلوب ـ المساخيط ـ الذين لزموا كل صمت أحقابا أثر أحقاب .. لا يفصحون عن مكنـون مخزون مدنهم المطمورة ومقابرهم المطلسمة لأحفادهم من الأحياء .. أية قسوة وغل .

استقدموا مشاهير المغاربة القادرين على التعزيم وفك الطلسم ... دون جدوى .

شددوا هجومهم بحفر القبور المحيطة بالأصنام مستشدين بأغنى تربيتهم ، في شكل عمال تراحيل جماعية تخرج ليلا يفئوسها ، كل ذلك اللغز المستعصى على البلدة ، دون الغرباء من الخواجات كيف العمل ؟ .

صحيح أن الدنيا ضحكت لقلة القلة من سكان البلدة مجرد خمسة أو سبعة أفراد ، عثروا ـ فيما مضى ـ على أنصبتهم من كنـوز الأصنام ، فبنوا قصورهم على أطراف البلدة ومداخلها ، اشتروا أرضـا وضيعات وأبعديات ولم ينبس الواحد منهم بسر ضنين عن حل اللغز ، بل هم كالعادة انفصلوا عن البلدة وعن أقرب أقربائهم ، وعاشوا حياتهم كالعادة داخل أسوار دواويرهم وسراياتهم في صمت ، بل ان بعضهم هجر البلدة ومن فيها ، وفلت بجلده وما حازه من كنوز الى المدينة القريبة أو العاصمة .

كيف العمل ... ؟ وقد أريقت دماء الضحايا ما بين حيوانية وقيل بشرية ، وصولا الى الكنز الدفين ، والأحجار الشاهقة العملاقة لا تفصح عن شيء . وكأن في الأمر سرا دفينا ، كارثة أقرب الى العقاب واللعنة من جانب القدماء من الجدود ، تسقط رحاهـا على أدمغة الأحفاد ، وأحفاد الأحفاد من فلاحي هذه البلدة ونميليتها المعدمين ، الذين استحال أغلبهم الى لصوص وحرامية يزرعون الأسواق بلا عمل لا بيع ولا شراء ، يحلون المواشي من سـوق المواشي من أربطتها ويسحبونها عائدين الى بلدتهم ، ويركبون حميرا ليجربوها .. ويذهبون بها دون رجعة .

والنساء تسرق الطحين والملابس المنشورة والدجاج والأوز من حول الترع والمساقي ، لاطعام أبنائهن الى أن شاعت أخبار عمايلهم وحنكتهم

فى سرقة الكحل ذاته من العين •• وحاسبوا من حرمية بيهمو، واحذروهم اينما كانوا •

وهكذا عميت فضائحهم وفضائحهن وشاعت من فم الى فم :

ــ النورية •

كل هذا وفى حوزتهم وتحت اقدامهم واقدام أصنامهم تلك الكنوز •• مدينة بكاملها مسخوطة ، لا تعطى الا بالكاد وشق الأنفس ، ما بين أحجار كريمة فى شكل خرزات تبرق خاصة عقب مواسم مطر الشتاء ، وعملات ذهبية قيل ان واحدة بيعت فى عز الرخص ببضعة آلاف من الجنيهات ، والصائغ القبطى الذى اشتراها من المدينة عرض على بائعها خمسة أضعاف الثمن لعملة ثانية فى حجم المليم •

ناهيك عن زلعة مليئة عثرت عليها سائلة ، قتلت على أثرها بأيدى أبنائها الثلاثة الذين اقتتلوا بدورهم ، وكأن لعنة أصابت ذلك البيت •

وهى لابد لعنة كبرى تلحقها الأصنام بالبلدة ولا فكاك من أسرها •

حكايات لا تنتهى سمعتها ، حتى أننى نسيت مفاجأة الخلبوص ــ الصوفى ــ الذى جرجرنى بها الى هذه البلدة •

حتى اذا ما انتهت فرقة المزيكة يتقدمها الصوفى من الطواف بالعريس المحاط بالكلوبات والشموع حوارى وشقوق البلدة ، ونصب السامر وصدحت الموسيقى وارتفعت أصوات الصينية من رجال وغواز بالغناء ، وحان أوان الافصال ، أرسل الى الصوفى من يطالبنى بالعودة العاجلة دون تأخير •

وحين عدت كانت المفاجأة ، فراز بطلعتها الطاغية فى أقصى هالات جمالها وتألقها بفستان من التل الارجوانى تحت الأضواء ، على رأسها تاج ملكى ورقى مذهب تنتصب وسط السامر الهائج وهى تمثل وتغنى وسط شلة من النساء فى السواد ينادونها مغنيات ، لتكشف لهن عن جمالها وهن يزين لها طريق المشى معهن الى حيث وعدها التى ولدت به •

وهى من جانبها تجاهد شبه منومة على دقات الدفوف النيران المخدرة ، فى ألا تستجيب لهن ، متحججة مرة بخوفها منهن ، ومرة بأبيها ومرة بمن تحب والمداراة على البلاوى ، فى صراع ، على ايقاعاته تواصل اهتزازات جسدها الفائر الذى يدفع بالصرخات الجنسية الفزعة من أعماق الرجال :

ــ فراز ••

حكاية قبطية

حكايــة قبطيــة

مقدمة لمسرحية « الكلام »

كان من المتوقع أن أعد نفسي لأكون رساما مصورا ، نظرا لأن أبي كان يحرص على أن يحيطني بين وقت وآخر منذ الطفولة بأكداس الألوان الطباشيرية والشمعية والمائية لذا انكببت على الرسم وتحقيق الخلوات التي تتيح لي ممارسة هذه الهواية التي حققت لي دخلا يسمح بشراء اللفائف — الفرط — والتدخين خلسة ، حتى أنني قررت ذات مغرب الحصول على حامل خشبي من ذلك الذي يستخدمه المحترفون من الرسامين ، وظللت أطوف مغالق الأخشاب المحاوطة للكنيسة الرئيسية في البلدة والمدرسة الملحق بها « مدرسة النهضة القبطية » ، الى أن استهواني مغلقــا عميق الغور ، رحب بي صاحبــه وكان يدعى ســامي جرجس ، حين أعلمته أني أريد شراء خشب لصــنع حامل للرسم ، هب عن دكتــه وفرائه ســائلا باندهاش وهو يتأملني غير مصدق :

— تعرف ترسم ؟

— هوايــة .

— وبترسم ايه ؟

— أي حاجة .. مناظر طبيعية .. أشخاص .. مواضيع .

— وبتحب مين من المصورين ؟

وتزايدت دهشته حين ذكرت له أسماء فحول عصر النهضة أمثال : مايكل أنجلو ، ورفائيل وتيتيان .

— غريب .

ووعدني سامي بالمساعدة بعد أن يشاهد رسوماتي ، وظللنا معا نتحدث عن الرسم وعوالمه ، الى أن سألني ان كنت قد شاهدت رسوما لفنان شعبي كبير يدعى محمد سعيد ، يرسم لافتــات وواجهات دكاكين

ومداخل بيوت كبيرة وقصور للأعيان والموسرين كلها هكذا بلا مقابل نقدي ، سوى ما يحتاجه من خمر العراقي وأكل ضنين لحين الانتهاء من رسم صحن دار أو مدخل قصر أو صورة تشخيصية « بورترية » وهو ما قد يستغرق شهورا ·

ولم يعجب سامي رأيي في محمد سعيد ، ووعدني أن يطلعني على أعماله التي يحبها ويقتنيها في منزله الكائن في شرق البلدة ، وغير بعيد عن منزلي ·

ومع دخول الليل واشعال فوانيس الشوارع ، أغلق سامي مخزنه ، واصطحب حمارته أو بغلته المطهمة المزينة رأسا لقدم ، كعروس بأكثر منها بغلة ·· ومررنا بسوق البرسيم فاشترى لها علفها ، واخترقنا شارع الكنيسة المظلم فاشترى خمرته ، وعرجنا على سويقة اللبن ومنها الى حيث حططنا الرحال في بيته ذى الطابقين الذى يتصدر حارة الأقباط بشبابيكها وتراسيناتها المغطاة بالزرع المتسلق من لبلاب وعوسج وخروع ·

ربط حمارته ، واستقبلته أمه القعيدة على فراشها الواطىء في جانب من صحن الدار ، بشكوى ومشاحنات وسباب لم أعرف له سببا ، سوى أنه كان مهتما باستضافتي رغم فارق السن بيننا فهو بلا شك يخطو الى الخمسين بينما كنت في حوالى الخامسة عشرة ·

ـ أدخل ·· أدخل دا بيتك ·

ومن فوره فتح زجاجة الخمر وعزم على ملحا الى أن شربت على مضض :

ـ ننسى ·

ونهق الحمار بشدة فضحك وهو بجانبه :

ـ طيب طيب ، أشرب ·

ومضى يسقى الحمار من الزجاجة في شغف ويشرب بدوره سعيدا مرحا من تعبيرات الركوبة السكرانة على مشهد من تمتمات الأم القعيدة ، التى أشارت له على « مزته » وعشائه ، حتى اذا ما انتهينا تقدمنى صاعدا السلالم الرخامية الى الدور الثانى ، وعلى ضوء الفانوس ، بهرتنى مجموعة

من الأيقونات القبطية بألوانها التركوازيه والذهبيـه ، ثم أطلعنى على رسومات ذلك الفنان الشعبى الشمام ·· سعيد ، لوجوه ومواضيع ظلت كامنة فى ذاكرتى بخطوطها السوداء وسحناتها الصفراء وقدرتها التعبيرية التى شاهدتها فيما بعد فى بورتريهات جورج رووه :

ـ شايف التعبير ·· القـدرة الهائلة على التلخيص شوف كويس وجه العدرة « العذراء » ·· والست دميانة · ومارى جرجس الرومانى ·

وكان أن فتح سامى عينى على عالم من الألوان والتعابير لم أشهده قبلا ، رغم أنى لم استوعب تماما حديثه المخمور ، حول بورتريهات الفيوم القبطية الشهيرة ، وكيف أنها علامة طريق فى مجرى تاريخ الفن الحديث بأكمله :

ـ دا وريث الفن القبطى الوحيد فى البلد دى ··· موهوب ··· مش عشان فنان تايه يائس محدش دارى بيه ·

أطلعنى على بلاليص فخارية وزهريات موشومة بألوانه ، وقطـع قماش ولوحات خشبية وزخارف وجداريات من أعماله ·

وحين افترقنا وتلقفتنى الحوارى والدروب المفضية الى حيث ميدان ـ الست عيشة ـ الفسيح المترامى بأشجار كافوره وجميزاته العتيقـة الهائلة وقفت مخمورا أشهد ذلك المتنزه الغابة بمنخفضاته ومرتفاعته ، تغطيه بقع أضواء الفوانيس على حوافه المترامية التى يحدها سور القبور وأضرحة الأولياء المضاءة ، وطيور الليل المشئومة تصدح عبر فراغ الميدان وبستانه من خفافيش وحدآت وصقور وطيور وأبى قردان وكروانات ، تعيبن أعلى هامات الأشجار ·

وتملكتنى حيرة محبطة ، فكيف لى أن أريه وأشهده على رسوماتى بعد ما شهدت من أعمال محمد سعيد وغيره من مقتنياته :

ـ تراها ستعجبه ·

ودفعنى التحدى الى مراجعـة رسوماتى وتأملها مطولا للوقوف على عيوبها · أتراه اللا خيال ·· أم اللا حضور ، أم الزوائد والترهل اللونى الى حد الشوشرة واللاتجانس ·

وأفضت بى المعاناة الى حد انقطاعى شهورا عن مواصلة جمع الشفاهيات من أشعار وحكايات وأحاجى ، والاستغراق فى عالم الالوان الذى تفتحت عليه عقب لقائى بسامى فى كل ما حولى من ازياء ، ورسوم حائطية للحج وغيره من المناسبات وزخارف منزلية والزخارف التى تعلو الطواقى وأغطية الرأس ، وألوان ـ التفتـــاة ـ المستخدمة فى تلوين الحصر والبردى والمشغولات المصنوعة من الجريد وسعف النخيل والمقاطف ، وما تزخر به الحوانيت والسوق ويعلو رءوس البهائم من حمير وجمال وبغال وحيوانات الأضاحى ، وما تزخر به أيضا احتفالات الأعياد ومناسبات « الرؤيا » فى اليوم السابق لرمضان ، حين ينشط الفنانون الشعبيون من رسامين وخطاطين فى تزيين عربات كارو الرؤيا وأناسها ومهنها ، فيرسمون كل شىء ، العربات والحيوانات وتكوينات المهن من نجارين وحدادين وخبازين ومزينين وعاملين فى معاصر الزيوت وبنائين وفلاحين ، يمضون يطوفون البلدة وشوارعها تتقدمهم فرق الموسيقى ورقص الغوازى والغجر والحوش فى موكب طويل وهم يغنون ويعلنون عن مهنهم عبر ذلك الموكب الصاخب الغارق فى ألوان التفتاة ، التى لم تخل منها الوجوه والأجساد نصف العارية والبهائم والعربات يغدون ويمثلون ويتراقصون بأجسادهم فى زفة عادة ما تنتهى فى ساحة المركز مع دخول الليل (١) •

من هنا جاء اهتمامى بالفنون الشعبية المصرية ورصدها مع بقية الممارسات •

بدأت أتفتح على عالم الألوان والزخارف الشعبية ، سواء فى رسوم الجداريات التى تتصدر المقاهى وساحات الدور ، للامام على وابنيه الحسن والحسين ، وللامام على وصراعه مع الملك الهضام ، ولمشاهد تضحية ابراهيم بابنه اسماعيل ، بينما حلق فى سماء اللوحة الملاك جبرائيل وبيده الخروف الفداء ، ورسوم البراق المجنح ، والمارى جرجس يصرع الشر ، والعذراء ، النداية تهيل التراب ، ومريم المجدلية تغسل قدمى المصلوب ، والزناتى خليفة ينازل الزغبى دياب بن غانم ، والجازية ، والعالية بنت جابر المحاربة ، ورسوم الوشم للحمام والثعابين والبوم ، ووردة وادريس وحسن ونعيمة ، وعزيزة ويونس ويوسف وزليخة ، وعرائس المولد وفوانيس رمضان ومشغولات جد السعفة ، وطيور الملك سليمان البهيجة المحيطة بعرشه وصولجانه •

---

(١) وهو ما شاهدته فيما بعد بمهرجانات صيف لندن السنوية لفنون وثقافات العالم الثالث ، المعروفة بمهرجانات نتيج هل جيت الشهيرة ••• ويشارك فيها سنويا بضعة ملايين من آسيا وافريقيا وامريكا الوسطى •

وحين جروت ذات مغرب فحملت رسوماتى الى سامى لم يبد اهتماما يذكره وانتقدنى قليلا ، الا أنه ساعدنى فى الحصول على الحامل الخشبى ، وسهرنا ليلتها مع بغلته السوداء السكيرة وملاعيبها ، التى لم تكن تعجب القعيدة أمه ، الا أنها تضحكنا كثيرا .

وتبادلنا على ضوء القمر أحاديث الحب واللواعج ، هو مع زليخة وعشيقته ، امرأة بيضاء عايقة بلون القشطة وليونتها وأنوثتها الطاغية المتبدية على طول الدرب ، بصدرها الجامح وأردافها مكتملة الاستدارة ، وكانت قد زارته — فيما بعد — مرات فى وجودى واختلى بها طويلا بغرفة نومه على مقربة منا أنا وأمه ، الى حد سماعى لصوتها المنكسر الذى يقطر أنوثة الى حد فاضح .

وحدثته أنا بدورى عن حبى العذرى الجامح ، لنوال جرجس فأردف :

— عارفها .

— عارفها ... أين ؟

ضحك طويلا وهو يخبط بسلامته الأبنوسية ، وأطرافه الدقيقة الناحلة المتوترة دوما :

— تعال بكره المغلق .. أوريهالك .

ولم أنم تلك الليلة :

— أحقا نوال جرجس .. أراها غدا .. كيف ؟

كنت قد اعتدت رؤيتها فى تراسينة بيتهم فى الطابق الثالث . أصعد اليها سلالم صهريج البلدة المواجه لبيتهم شاهق الارتفاع وأتوقف بمحاذاة الدور الثالث لأراها عن قرب وسط زهورها وطيورها تسقيها ، ولم تتعد علاقتنا تبادل النظرات ، وبضع اشارات يغلب عليها الجبن واللهوجة ، نتيجة للارث المريض حول علاقة فتى بفتاة من فسق وادانة فما بالك ونحن مختلفان فى الموروث الدينى :

— نوال جرجس !

ما ان دلفت الى مغلق سامى ، حتى وجدته كعادته بجسده النحيل الضامر ممددا على فراء دكته نصف نائم وفنجان قهوته السادة بارد لم يمس ٠

أشار الى من فوره الى حيث غايتى ، الشباك المغلق فى آخر المكان ٠ والذى ربما لم يفتح منذ سنوات ، حتى اذا ما عالجته فى لهوجة الى أن انفتح ، طالعنى وجه المحبوبة على الفور مكبرا كما لم أشهده من قبل ، مع حركة استدارتها على صوت انفتاح ضلفتى الشباك :

ـ نوال ٠

كانت تلعب مع أقرانها من بنات وصبيان على طول فناء الكنيسة المغطى بالزهور والرياض ونبات الفل وفم السبع وعباد الشمس ، فى مرح سرى فى أعصابى سريان النار فى الحطب ، حيتنى وهى تجرى غير مصدقـة :

عندئذ انحبس صوتى واكفهر لونى ، وجريت من فورى الى سامى :

ـ صحيح صحيح ٠٠٠ تلميذة فى مدرسة النهضة القبطية ٠

واعتدل سامى فى اغفاءته وغمغم الى مشجعا :

ـ كلمها ، خايف من ايه ؟ (ضحك) هو حتى الحب يخوف فى البلد دى ٠٠ ممنوع ٠٠ خطية ٠

الا أننى لم أجرؤ سوى التطلع اليها خلسة ، عبر عدوها ولعبها ، وفى كل مرة تتطلع فيها الى الشباك تحيينى خلسة، مواصلة لعبها وعدوها بجسدهـا الفائر شديد التنسيق ووجهها البرىء الى حـد تبـدو لى فيه كالعذراء ذاتها فى لوحات مصورى عصر النهضة ٠

وتزايد حبى وصداقتى لسامى معوض ، لكم هو انسان متحضر خير فى مستنقع البلدة ذاك ٠

وداومت على زيارته فى مغلقه وفتح الشباك لأملى عينى بحبى الجارف لنوال ٠

ومع دخول المساء ، واشـعال فوانيس الشوارع أعود مع سامى وبغلته لنسهر سويا فى بيته ومشاركته بين وقت وآخر شرابه، والاستماع

الى شكواه التى لا تنقطع ، كان شديد الانتقاد حتى لجماليات التراث الشفاهى الخادعة التى كنت أجمعها وكيف أنها قبطية متهافتة عديمة ٠

ــ جرحى القديم الأولانى أنا كنت راضى به ٠

ــ ولما نز القديم ع الجديد ٠٠ زادت لهاليبه ٠

كان يفتح عينى على مدى السلب والقهر الذى يزخر به هذا التراث المرور ، بشقيه الدنيوى والجنائزى :

ــ ما ظهرت الآه الا من عليل الحب ٠

وماقالهاش آه الا لما مالتقلوش طب ٠

وكانت مثل هذه النصوص والمأثورات تثير حنقه ورفضه فيمضى يشرب ويبصق ، نافيا عن نفسه حتى قبطيته وخنوعه حتى فى وجه الاقطاعى العثمانلى سيد البلدة وعمدتها الذى نهب أرضه وفدادينه ٠٠ قال :

ــ البلوه التقيلة ان الأربعتاشر فدان اللى ورثتهم عن أبويا وجدودى فى حوض الزهيرى ملاصقين لأرض البيه الدخيل ٠٠ الجسر فى الجسر ٠

وكل ما أغفل تلات أربع سنين ، وأقيسهم ألقاه ناقل الجسر، وناهب الأرض ٠٠٠ قيراط ورا قيراط وفدان ورا فدان ٠

يشرب ويسقى بغلته ٠ بل هو خلال الحديث كثيرا ما يركبها مختطفا عصا طويلة أو باشكور خبيز أشبه بحربة المارى جرجس :

ــ وأنا وحياتك ما سكتش ، رحت له داخل بواباته ودواوينه السبعة ، وواجهته جوا سرايته وقلت له يتلم ، الظلم حرام ٠

يعدل من هيئته وهو على صهوة بغلته كفارس قديم ٠٠٠ مثل الرومانى صارع التنين ٠٠ الشر :

ــ قلت له ٠٠ رجع الأرض يا باشا ٠

ــ ورجعها ؟

ــ أبدا ٠٠ دا فجر خالص، وبدل ما كان بيسرقه قيراط ورا قيراط، صبح بيسرق وينهب فدان ورا أخوه ، وعينى عينك ٠

قلت آسفا :

ــ والحكومة ؟

« الكــلام »

مسرحية : ش . ع .

المسرح عار ... وفسيح .

الى الخلف تأثير كنيسة قديمة .. الى اليمين توجد صــورة كبيرة جدا عبارة عن « بورتريه » لسامى أفندى ، حين كان فى منتصف العمر . البورتريه مرسوم بالفحم . والصورة « مركونة » على صورة أكبر منها .. هى الصورة التقليدية « للرومانى » القديس مارى جرجس ، وهو يقتل الوحش .

الاضاءة عبارة عن أضواء شموع قديمة متناثرة بشكل محكم على طـول المكان .. الجـدران متسـاقطة .. ومن الممكن أن يكون المسرح بلا جدران .

فى مقدمة المسرح كلب « ماريونت » يقطع المكان فى ضياع .. وفى منتصف المسرح بالضبط وعلى مكان عال الى حد كبير .. تتربع امرأة عجوز ضامرة ، فى صمت .

(حين يفتح السـتار يدخـل سامى ، يتجه ناحيـة الصورة .. يتحسسها .. يمسح ترابها .. ينفخه ..

سامى نحيف وجسده ضئيل جدا . وحركاته عصبية .. غريبة .. مهزوزة) .

سامى : أنت سمعانى ... ؟

الأم : هــه ...

(صمت) ...

سامى : اللى جى عشان أقوله ٠٠

الأم : هـــاه ٠٠٠

سامى : ودنك معايـا ٠٠٠ ؟

الأم : (صوتها رفيع ومسرسع) قول ٠٠٠ ؟

سامى : (يتوقف) أقول ٠٠٠ (ويسأل) قلت لحد فين ٠٠٠ ؟

الأم : قول ٠٠

سامى : الحكاية أصلها زادت ٠٠٠ (يتأمل نفسه) ٠٠

وأنا معملتش حاجة ٠٠ (يتوقف) ٠٠٠ م الأول (محتدا) هيه دى الحكاية ٠٠٠

الأم : من غير زعــل ٠٠٠

سامى : (بسرعة) أنا مش زعلان ٠٠٠

الأم : عايزة أسمعها ٠٠ وأشوفك وانت بتشتمهم ٠٠ وتتهمهم واحـد ورا واحد ٠٠ (ترفع صوتها) ومحدش منهم قدر ٠٠٠

سامى : (تأخذه نوبة انكسار فجائى ٠٠٠) معدتش قادر يا

ــ حكومتهم ٠

ــ والمحاكم ؟

ــ يابنى دى أرض الظلم ، انت لسه صغير لا رحت وولا جيت ، بكره تشوف وتقول سامى قال ٠ دا ظلم معتق ، ظلم فراعنة ٠٠٠ جبر مش بس ظلم ٠٠ طغيان قديم ضارب فى أرض البلد دى ٠

يسكر ويعاود الجهر بآلامه الدفينة :

ــ أنا ماسكتش ٠ أسكت على الظلم ؟

أنا مش منهم ٠٠ كله بيسكت ويخرس الا آنى ، واجهت الظلم فى عقر داره ، وكل حتة ، فى نادى الأعيان ولوكاندة « تودرى » ، ولاعبته قمار وسكرته وخسرته الجلد والسقط قدام الكبير قبل الصغير :

يتنبه لبغلته فيسقيها :

ــ أبدا ماسكتش · على جثتى · دى أرضى وأرض جــــدودى ·· أسكت ؟!

وبدا الأمر آمن عبر تلك الحارة السد ليلتها ووصله زعيق سامى وعصبيته أنه انما يخانق أمه أو يخانقنى :

ــ أسكت · دا من رابع المستحيلات ·

ويعرج على حكايات وذكريات جانبية متداخلة ·· ذات دلالات لم أكن لأعرفها ، كأنه يقول وهو يقفز من على دكتــه ليمتطى ظهر البغــلة المترنحــة :

ــ مرة كنت باجمع قطنى ·· ووصلت الغيط كده ·· وعلى غير موعد لقيتنى فى وشه ·· وأنا راكب زى ما أنا راكب كدة ·· رميت السلام ماردش ، قلت آه ·· اد عايزنى أركب كدة ·

يعدل من ركوبته ليركب على جنب وهو يشرح لى دون أن أفهم ، ثم يعاود الركوب عاديا كفارس مرفوع الرأس :

ــ بصيت ورايا ·· لقيت الدنيا قامت ، ورجالته ورايا يترجونى ويهدونى :

ــ عيب الباشا زعلان ·

ــ دا قلع طربوشه ورماه فى الخليج ·

ــ نستحمل أحنــا ·

ــ دا اللى يبات مغلوب أحسن من اللى يبات غالب ·

ــ أعقل يا سامى واركب ركوبتك حسب الشرع ·· العرف

وكمن يجيبهم :

ــ أعقــل · أعقــل ازاى ·· هو أنا مجنون ·· بآكل فى هدومى يا عالم ·· دا كلنا ولاد تسعة ·

هنا تضحك أمه القعيدة فى تؤدة مغمغمة :

هئ هئ هئ • يا مجنون يابن المجنونة •

ويصرخ سامى فى وجهى ، وهو يهز عصاه الطويلة كفارس قديم :

ــ مش يقولك •• طرامش الخنوع •• اللى فتح بوابات البلد دى لكل من هب ودب •• حتى العثمنلى •• اسكت •

لم أفهم كثيرا :

ــ عايزنى أركب كدة •

يعاود الجلوس على ظهر بغلته المفتونة بما يحدث ، كمن يجلس على دكة •• أى جنابى •

ومن جديد لم أفهم أو أعى شيئا :

ــ كده كده •• ليه هو أنا عبد ولا أسير ، صرخ فى وجهى محتدا :

ــ فاهـــم ؟

ــ لأ •

أعاد الصراخ بصوت أكثر ارتفاعا أكثر حدة وهو يشوح فى وجهى غاضبا عدوانيــا :

ــ زى زمان • زمان قوى • زمان قوى قوى •• قوى •

وتضحك أمه بشدة فى أقصى نشوتها وهى تصفق بيديها العظميتين:

ــ هئ هئ هئ •• يا مخلول يابن المخلولة •

الا أنه لا يعيرها التفاتا ، صابا كل غضبه وسطوته على رأسى تلك الليلة ، ذلك أننى لا أعى :

ــ أنام على الجنب اللى يريحنى ، وركوبتى أركبها زى ما أنا عايز ، أنا موش يسير (٢) فى بلدى وأرض جدودى اللى تهبها الدخيل البلطجى •

ظل يلهد ببغلته رافع الرأس ممسكا بحربته على نحو لم أشهده ، ولم أعرف له دلالة ، والأم القعيدة تمعن فى الضحك والتمتمة فى أقصى حالات نشوتها ، الى أن جاءت صرخته التى تجمعت عليها بضع نسوة من الجيران ، بينهن معشوقته زليخة :

ــ ليه • دا احنا فرسان أبا عن جد •

---

(٢) أى : أسير •

وحين أطللت على بوابة الدار ، هالنى الجمع الغفير الذى تزايد على هيئة متفرجين وهم يضحكون ، الى أن تصدت لهم زليخة مانعة تجمعهم وتخطيهم لعتبة الدار :

ـ برا يا خويا منك لها • البيوت لها حرمه واحنا بعد العشا ••• يللا من غير مطرود •

رفعت عقيرتها الى أن سمعها سامى الغارق لشوشته فى اضطهاداته وذكرياته المريرة :

ـ البيوت مش فرجة ، بيتك منك لها •

وحين انفض الجمع وهم يضحكون ويتغامزون •

اندفعت داخلة الى سامى مداهمة وهى تحتضنه مستسلما فى حضنها الرحب ، كمن تنهره :

ـ بلاش كده • الحيطان لها ودان يا حبيبى ومحدش بيتستر على بلاوى جاره •

انتصب واقفا فى محاولة لمساعدتها فى انزاله :

ـ انزل ما تعيطش وتشهق بالدموع •

انزل يا سامى ياسيد الرجالة •• تعال يا حبيبى •

انسحبت مروحا ، أعانى اختناق الاضطهاد الذى اعترانى منذ تلك الليلة ••• وهزاله •

هوامش

الأم : شيفاهم بس •• فيهم ناس بتشر دم والأرض بتشرب (صمت) •••

سامى : أبدا •• أبدا •• لا •• (صمت) الأول مش كده •• دا الآخر ••• (يتوقف) لا ••• الآخر مش كده • دا قبل الآخر بشوية ••• مكنوش لسه دخلوا كلهم •• التجمع •• حتى الخدامين ••• اللى جت تجزى •• وأنا وقفت فى وشهم ••• وقفلت عليهم •• ساعة ما كنت بتضحكى •• وتأكلى فى طرحتك السودة ••• وعمالة تصفقى بايدك ••• ومكنشى فيه سنان فى حنكك ••• أنا شفت ساعتها ••• ورحت فى الضحك •• أما شفت حنكك •• وكل اللى كان فيه ••• ووقع •••

الأم : (تضحك وتخفى فمها بكفة يدها) ... كنت أنت بتجرجر فيهم ... (تشير الى الأرض) تحت ... عند رجليه .. والدم ملو الأرض ...

سامى : (لنفسه) أنا أصلى قلت لهم كتير .. ورحت بيوتهم وحفيت .. أنا عملت اللى عليه ...

الأم : (تضحك) الدم ... الدم .

سامى : (يذعر قليلا) حفيت ....

الأم : (تضحك) الدم ... الدم .

الأم : زى الرومانى ...

سامى : الرومانى زمان ... الرومانى كان عند التعبان .. (يتضح صوته شيئا .. فشيئا) مكنش فيه ميه فى البلد .. التعبان سادد السكة .. ومفيش حد يروح ولا ياجى ... مفيش تجارة ... والناس عطشانة ... الناس كانت بتشرب فى عرقها ... تعمل ايه ... ؟؟ الوحش شرب كل البحر ... ومفيش بلد تعيش من غير ميه ... (يصرخ) الوحش كان بسبع روس ...

الأم : كنت زيه ... الرومانى ...

سامى : (يتساءل) زيه ... ؟ (يواصل) الرومانى زمان .. الحرية كانت فى ايده .. (يصرخ) أصل دا وحش .. وحش مفرود ع البحر .. شرب البحر فى تلات شفطات .. الناس كانت بتنام عطشانة .. (يصرخ) تعمل ايه .. ؟ (بصوت عال)

متشربش ....

الأم : أنا عايزة بس أشوفك ... وأنت واقف زيه وفى ايدك الحبل .

سامى : زى مين ... ؟؟

الأم : الرومانى ...

سامى : (بحدة) اسمعى الكلام .. مش عايز أقولها تانى .. هيه كلمة واحدة اللى يقولها سامى .. ابنك (بحرارة) اللى شبتيه عشان خاطر الراجل ...

الأم : الرومانى ... ؟

سامى : الرومانى زمان ... لازم تعرفى دا تمام .. أقوله مرة واحدة أنا باقول ع القسيس .. القسيس اللى مشيتى وراه . دا اللى باقوله ...

الأم : (بتوسل) عايزة أسمع ·· م الأل ·· وأشوفهم فى الحبل ·· م الأول ···

سامى : (مغمغما) ·· م الأول ·

الأم : من ساعة ما دخلوا ···

سامى : همه ما دخلوش مرة واحدة ·· كانوا بيدخلوا واحد ورا واحد ·· مفيش ناس تدخل مرة واحدة ·· هيه كده الدنيا ·· احنا جيناها كده ·· انت جيتى الأول وبعد كده بشوية أنا جيت ··· (يسألها محتدا) ·· أنت نسيتى ·· ؟ (يتحسر) وقع منك ··· ؟ زى سنانك ساعة ما فتحتى حنكك قوى ··· قوى ··· وأنا قعدت أضحك ··

سامى : مكنشى فيه الا واحدة ·· كله وقع ·· حتى الأول ·· راح ؟ ؟ فى روحهم ·· ويشدوا شعرهم ·· وانت عند الباب ··· وفى ايدك الحبل وبتصرخ فيهم ···

سامى : كنت باصرخ قوى ··· بعلو صوتى ·· ؟

الأم : وأنا ضحكت ···

الأم : (منفعلة) ووهمه وشهم ع الأرض ·· وعمالين يعضوا ·· وياكلوا (بهياج) أول فين ·· ؟ الأول راح فين ··· ؟؟ (صمت)

(يتجه ناحية الصورة ، ويروح يمسح ترابها ويتأملها) ··

الأم : (بطفولة غريبة) عايزة أسمع ·· هه ·· قول ياللا ·· هه ···

سامى : (يستدير ناحيتها) أقول منين ··· ؟؟ (لنفسه) هوا احنا نقدر نقول حاجة من غير الأول ··· ؟

الأم : قول ··· م الأول ···

سامى : مش لاقى يامرتا ·· مش لاقى يا أمى ··· (مندهشا) مرتا ، وقلت كتير ··

(يسأل) انت يظهر بتنسى ··· (يمثل بجسده كله ···) واللى أقوله من هنا ·· يقع من هنا ·· زى الزير المكسور ·· (يتقوس ظهره وتغلف الأحزان صوته) وهو احنا كده ·· تيجى أيام وتروح ·· وتفتح البيبان وتتقفل ·· واحنا نيجى ··

ونروح .. أصلنا ما بنعدش بنمشي .. واللى نسمعه من هنا .. ننساه من هنا .

(يستدير لها) أنت سمعانى ... ؟

الأم : (تأكل بلحا) قول .

سامى : اللى قولتو امبارح ...

الأم : قول ... قول ...

سامى : مفيش حاجة تفضل ...

الأم : عايزة أسمع ... وأشوفهم واحد واحد ... وهمه بيعضو الأرض ...وأنت واقف على راسهم من فوق (تصفق بيدها) زى الرومانى ...

سامى : (يفرح) شفتى ... ؟ سمعتى عياطهم ... ؟ آهى هيه دى الحكاية يا مرتا ... اسمعيها .. عايزك تسمعيها قوى (بحدة) من أولها ... أصل همه كده ... وهوا دا اللى ينفع معاهم .. (يغزوه الحزن) دول ، عدمونى العافية يا أمى ... وانت شفتى بنفسك . وكنت دايما وياهم .

الأم : (تأكل) كانوا بيعيطوا ...

سامى : (متلهفا) كلهم ... ؟

الأم : ويعضوا الأرض ...

سامى : كلهم ... ؟؟

الأم : ويقطعوا فى شعورهم (تأكل وتضحك) زى المجانين ...

سامى : مين ... ؟

الأم : هانم ...

سامى : هانم ... ؟؟

الأم : ومفتاح بيه .. والخدامين ... والـ .. والقسيس .. والقسيس ...

(تتوقف) القسيس لأ .. حرام .. حرام .. حرام ..

سامى : (يصرخ) أسكتى ..

الأم : (بهمس) حرام ...

سامى : قلت أسكتى .. سدى حنكك .. واقفليه ...

(يصرخ فجأة) قلت اسكتى ...

الأم : (بضعف) أنا بس باقول ...

سامى : (مقاطعا) ابنك ... تسيبيه ... ؟ فى الطريق وحده ... ؟
واقف مش شـايف ... ؟ واللى وراه كتير ملو الطريق ...
(يستدير) وهمه واقفين ... واحد ورا أخوه .

الأم : (بتخاذل) أنا قلت حرام ...

سامى : عشان القسيس .. عشان تبقى معاه .. وتمديلو ايدك الصغيرة
من بعيد .. وهو مش شيافك .. وأنت واقفة .. وأنت ماشية
.. وقبل ما تحطى جسدك فى الأرض .. (يتوقف مرة واحدة)
.. (بحدة) .. خلينى أكمل كلامى .. مش عايز أسمع منك

الأم : ... أنا سكت ...

سامى : أنت بتقوليها ...

الأم : خلاص سكت ..

سامى : أنت بتقولى ...

الأم : (تشير الى فمها المغلق) هـــه .

سامى : (غاضبا) دا أنا سامعها ... مالية ودانى ...

الأم : هـــه .. (تشير الى فمها) .

سامى : طول عمرك معاه ... واقفه وراه ...

الأم : عايزة أضحك ... وهمه يعيطوا ...

سامى : (يرتبك) مش عارف ... (يسأل نفسه) كنت دايما .

الأم : أقولها كويس .. وكنت عارف مكان الحبال .. والفرقلة والكلام
اللى حاقوله لهم .. واحد واحد .. قول وأنت تعرف .

سامى : مش لاقى .. (يبحث) أول كلمة ..
(صمت) ثـــم

(بحدة) مش فاكرها (يتقوس) وقعت..واحنا دايما كده ..
قبل ما نمشى .. مفيش حاجة تستنى .. حتى الكلام .

الأم : قول م الأول ...

سامى : مش لاقى الأول ...

الأم : ساعة مادخلوا على بطنهم ...

سامى : (يسأل) من عند الرومانى ... ؟

الأم : قبليه بشويه ...

سامى : (بحدة) نسيتى ... ؟

سامى : (يتأمل الصورة قليلا ويطوف حولها) زمان كنت بتشتمنى ..

الأم : لا .. لا .. عايزة أشوفهم مع بعض .. الجميع ...

سامى : (بغضب) .. مفيش مرة واحدة .. وأنا قلت لازم . لازم حاجة الأول ..

الأم : قول ...

سامى : (لنفسه) .. مش عارف .. مش لاقى .. (بأسى) . دايما كنت أقول كويس .. وييجوا .. هنا تحت رجليك .

الأم : هييجوا .. ؟؟

سامى : دول عدمونى العافية .. هيه وهوه .. والعيال (بحماس) ، ولازم ييجوا .

الأم : (بحذر) القسيس لا ...

سامى : عشان خوافة ...

الأم : لا ...

سامى : عشان هتموتى ...

الأم : هييجوا ... ؟؟

سامى : (يبحث منكسا) .. (ثم يعثر على حبـل عند البـاب ...) الحبل ...

الأم : الجميع .

سامى : اللى افتكره منهم ... (يتأمل الحبل) ...

الأم : (تناديه) ... سامى ...

سامى : (مشغولا) ... هاه ...

الأم : تعالى قدامى ...

سامى : يفك الحبل ...

الأم : هييجوا ... ؟

سامى : معقود ...

الأم : ومعاهم « هوه » ٠

سامى : خوافة وميتة ٠٠

الأم : الأول ٠٠ والا الآخر ٠٠٠ ؟

سامى : (مشغولا) ٠٠٠ شايفة ابنك ٠٠ واللى فيه ٠٠ ؟

الأم : اضربهم ٠٠

سامى : خايفة منه ٠٠ ومخبية وشك ٠٠ ؟

الأم : زى مارى جرجس ٠٠

سامى : (يسحب الحبـل منفعلا ومتجهـا الى الأمام) ٠٠ الناس كلت بعضها ٠٠٠

الأم : بالحبـــل ٠

سامى : الحربة كانت فى ايده ٠

الأم : قدامى ٠

سامى : الشر صاب البلد ٠٠ الناس كانت بتنـام م المغرب ٠٠٠ تعمل ايه ٠٠٠ ؟ خايفـــة ٠٠ الوحش سادد السـكة ٠٠ نايم بطول البحر ٠٠ و ٠٠ ح ٠٠ ش ٠٠

الأم : عايزة أشوف الدم ٠

سامى : بقى ملو البحر ٠٠ البحر بقى أحمر ٠٠ زى الطماطم ٠

الأم : الحبل كان فى ايدك ٠

سامى : جه م الجبل ٠٠ بالحصان ٠٠ جه يجرى بالشوط ٠

الأم : عايزه أشوف ٠٠ أشوف ٠٠ (فترة صمت متوسطة) ٠

سامى : (يروح يقطع المكان شاردا متحدثا الى نفسه ٠ وفى صوته رنة عتب) ٠

وكنت أرحلها فى دخلة الليل ٠٠ أمشى لحد البيت ٠٠ واحد واحد كنت أرحله ٠٠ واحد واحد ٠٠ (يلتفت الى أمه فجأة) وأنت ها تقعدى كده ٠٠ ؟؟

الأم : عايزة أشوفهم فى الجبل ٠

سامى : (بحدة) تفضلى كده ٠٠ ؟

الأم : وأنت ماشى ٠٠ خليهم ييجوا ٠

سامى : احنا لازم نمشى ٠

الأم : عشان ييجوا ... ؟

سامى : همه بييجوا ويمشوا .

الأم : وأنت حاتفضل ماشى ... ؟

سامى : كلنا ماشيين .

الأم : وهمه ... ؟

سامى : (يبحث) .. مش لاقى .. مش لاقى .. أصلى معملتش حاجة .. وكان لازم أعمل .. أنا كنت نجار .. وعندى مغلق خشب .

الأم : وكنت بتقابلهم .. طول عمرك .. ؟ مش كده .. ؟

سامى : احنا اتقابلنا .. الناس بتشوف بعض فى الدنيا -

الأم : أنا كنت قاعدة أيامها .. زمان .. ؟

سامى : كنت بتمشى .

الأم : أمشى .

سامى : قبل ما يقع .. واحنا كده .. يقع منا كتير .. قبل المشى .. أنت نسيتى ... ؟

الأم : مش فاكرة .

وكنت دايما أقول ... كل ليلة كنت أقول .. وحتى لما كان يتوه منى .. وأنا بقول .. وهمه هنا ... (يضرب الأرض بقدمه) تحت رجليك .. والحبل فى ايدى .. وهانم وشها فى الأرض .. وشعرها منقوش .. فى البيت .. وعينها مكسورة .. وفى مرة عيطت .. فى مرة كانت حتموت .. سبنت لها الحبل .. وعشان متموتشى .. عشان تفضل كده .. زى ما أنا عايز ..

الأم : (تسأل) وليه مموتهاش ... ؟

سامى : ما أقدرشى ...

الأم : ليـه ... ؟؟

سامى : أموتها ... ؟؟

الأم : ليـه ... ؟؟

سامى : ما أقدرشى ...

الأم : تموت ...

سامى : متموتشى ...

الأم : ليـه ... ؟؟

سامى : مش بايدى ...

الأم : عشان متجيش ...

سامى : لازم تيجى ... ؟

الأم : ليـه ... ؟؟

سامى : (صارخا) .. متموتشى .. (صمت) .. (يتحرك فى هياج، شـأن النـاس حين تتوتر) .. (يحكى) .. وفى مرة ماتت هنا .. الحبل تقيل .. وأنا كنت زعلان .. وقلت لها ترجع .. ويومها ماتت .. وأنت صرخت .. والبلح وقع منك على رأسها .. (منزعجا قليلا) والدم كان مالى الأرض .. زى يوم الرومانى عند البحر ...

الأم : ماتت ...

سامى : رجعت تانى ... (يشرح لها بيديه) الكلام دا كان زمان ...

الأم : أيام الرومانى ... ؟؟

سامى : (غاضـــبا) الرومانى زمان ... وأنا قلت .. الرومانى كان عند الوحش .. وحش شرب البحر فى سبع شفطات . وحش بسبع روس . وهانم مكنتش عند الرومانى .. هانم النهاردة ..

الأم : وماتت ... ؟

سامى : رجعت تانى .. وانت شفتيها .. بعد حكاية الدم .. لما ماتت .. بعد كده بقت تيجى زى ما أنا عايز كل ليلة . الوقت اللى أعوزها فيه.. لما افتكر لما أزعل.. ساعة ما افتكر.. وأزعل..

الأم : وتيجى ليه ... ؟

سامى : ما أقدرشى أستغنى عنها .. (صمت) هيه مش كانت معايا .. جنبى .. بشوفها .. دى بقت زيى .. دى بقت أنا .

الأم : زمان ...

سامى : زمان .. لما كانت معايا .. (بغضب) يبقى لازم تيجى ضرورى .. أنا أجيبها .. (يتوقف) وحتى لو مجبتهاشى لازم تيجى .. تبقى معايا .. وحتى لو ماتت .. أقدر أجيبها .

الأم : (بزهو) زى الرومانى ...

سامى : (مستمرا) زى الرومانى .. الرومانى بييجى .. بس مش كتير .. الرومانى ...

الأم : الرومانى بنشوفه .

سامى : إحنا لازم نسوفه .. دا كان زمان .. وعمل حاجات . (فترة) الدنيا كانت صغيرة .. ومكنشى فيه غير بحر واحد البلد بتشرب منه .. بلد بحالها على بحر .. (يتضخم صوته) بلد .. ناس .. رجالة .. وستات .. وعيال وبنات .. ونخل .. بلد عايشة على بحر وجالها الوحش .

الأم : الأول ... ؟

سامى : الأول . (فترة) الوحش بيجى الأول .. وبعـــد كده بيجى هوه ... ع الحصان ...

الأم : كان أبيض .

سامى : (ضائقا) أبيض ولا أحمر .. المهم انه بيجى .. لازم بيجى .

الأم : الأول ... ؟

سامى : لا .. الأول بيجى الوحش .. وبعـــد كده الرومانى علشـــان يخلص .. (بشكل عادى) أصل مفيش حاجة تيجى مع أختها .. لازم يبقى فيه الأول ...

الأم : أيام الرومانى ...

سامى : أيام الرومانى .. وأيام هانم .. النهاردة ! .

(صمت طويل)

الأم : احنا كبرنا .. (تضحك) .. أنا عديت المية ...

المرأة : وشعرك شاب .

سامى : (منتحيا) .. تسيبينى فى نص الطريق .. فى نصه ..

المرأة : ما أقدرشى .

سامى : وحدى ... مزروع .. شايب وخده .

الأم : الحبل ... الحبل .

سامى : (هائجا) .. تهربى وتسيبينى .. ؟ عشان قربت .. رجلى صبحت هناك .

المرأة : ما أقدرشي ·· ما أقدرشي ·

سامي : وكان ليه م الأول ··· ؟

المرأة : مكنتش عارفة ·

سامي : احنا أصلنا مبنعرفش كويس ··· (يتحــرك فى حماسة) · (يتوقف) ·· وأنا حتى مش عارف أبتدى منين ·· كل اللى أنا عارفه انك مكنتيش لازم تجرى · تسيبينى فى نص السكة ·· واقف زى التايه ·· وتجرى ، وكل الحكاية انك معرفتيش م الأول ·

الأم : (صارخة) ·· لا ·· مش كده ·

سامي : (غاضبا) ·· وحدى ·· وتجرى

المرأة : معرفتش م الاول ·

سامي : (يخطو ناحية الباب ·· ثم يعود الى مقدمة المسرح منتفضا ·· هائجا ·· (لنفســـه) ·· ما أنا زيك ·· فاتنى الأول ·· ما عرفتوش ·· راح ·· اختفى ·· وطول العمر وأنا أفتش عنه ·· طول العمر واقف لى فى وشى ·· زى العمل الردى ·· زى الماضى · زى كل الوحش اللى عملناه فى الدنيا ·· احنا أصلنا بنيجى نلبســه ·· ويكبر معـــانا ·· زى الجلد ·· زى ادينا ورجلينا ·· زى الشعر ·

(يتوقف)

واحد يبقى موهوب ·· وواحد يبقى عبيط ·· (يتنبه لوجودها منكسة · مأخوذة ·· تحبو خلفه) · وواحد تسيبيه وتجرى ·· عشان خلاص ·· ماشى ·· معزل ·· مسافر مش حايرجع ·· رايح على هناك على طول · واللى وراه ملو الطريق ··وكله وحش نصه مدفون تحت التراب ·· ونصه طالع م الأرض ·· زى النخيل ···

(ينتحب)

وتيجى الناس تدوس ع النجيل وتمشى · وتزرع نجيل تانى ·· وتمشى ·· وتيجى الناس تدوس ع النجيل وتمشى ·· وتزرع نجيل تانى وتمشى ··· ؟

(يروح يصرخ فيها عند رأسها)

تسيبينى فى نص السكة ·· وتجرى ·· ؟

الأم : (مصفقة) •• عايزة أشوفهم فى الحبل •

سامى : (للمرأة) عشان تشوفى واحد تانى •

(المرأة تعبر بجسدها كله عن خجلها •• تستدير الى الخلف •• وتنزوى أكثر فأكثر •• وهو يصرخ فيها ويطاردها •• والمرأة تنزوى) •

عشان تقابليه •• عند راس حارة •• تقابليه • فى الشارع •• تقابليه • فى حتة مقطوعة •• تقابليه •• ووراك الشايب وحده •• واقف مكسور •

المرأة : ما أقدرشى •• أنت كبرت •• والناس ملو الشارع •• (بصوت مهزوز) •• وأنت بتقع ••

الأم : اضرب •• ابنى •• اضرب •

سامى : النــاس ••• ؟

المرأة : وقالوالى •

سامى : ملو الشارع •• ؟ قالوا لك •• وأنا بقع •• ؟

(يتساءل) •• همه اللى قالوا •• الجميع • •؟

المرأة : ناس منهم •• قالوا ••

الأم : اوع تقع • اوع تمشى بضهرك •• اوع تخاف ؟

سامى : (مبتعدا عنها الى الداخل) •• عشان راجل بيقع •• بيبقى قرب الأرض •• (يصرخ) •• يدوسوه •• يسيبوه واقف •• وحــده ••

(يطوف حول القاعدة التى تتربع عليها أمه •• والمرأة من خلفه زاحفة •• ويروح يتحدث بصوت هادىء حزين) •

وتيجى أيام •• وتروح وناس تيجى •• وناس تقف وحدها •• وتروح •

(يتوقف فى مواجهة المرأة معاتبا)

قالوا لك تسيبينى ؟

المرأة : (بصوت مكسور) ••• أيوه •

الأم : أمشى لقدام ·· والحبل فى ايدك ·

سامى : (محتدا) وكان ليه م الاول ··· ؟

سامى : هوا كده ·· بس مفيش حاجة بتروح ·· كله بيفضل ·· لازق فينا ·· يبقى بتاعنا ·· اللى عملناه ·

الأم : زى الرومانى ·

سامى : موجود ·· طول العمر ·· فى كل حتة ·

الأم : كنت زيه ·

سامى : (يبحث عن الحبل) ··· الحبل ···

(فترة صمت ·· هو مشغول بفك الحبل ··)

سامى : (دون أن يلتفت اليها) ·· فى يوم م الأيام بعد ما تفضلى قاعدة كده ·· هاتقعى ·· وساعتها مش هيبقى فيه حاجه ·· حتى الرومانى ·

(صمت)

الأم : ليـه ·· ؟

سامى : هيروح ·

الأم : يروح فين ··· ؟

سامى : يروح هنا ·· (يشير الى الجمهور) ·

الأم : أنت بتصبح زيه ·· وف ايدك الحبل ·

سامى : الرومانى ··· ؟

الأم : عند الوحش ·

سامى : الدنيا كانت صغيرة ·· أيام الوحش ·· والناس غلابة · كل واحد من بيته لدكانه·· ومكنشى فيه قهاوى ·· ولا حنفيات ·· وكان ليـل ·

الأم : مكنشى فيه شمس ·· ؟

سامى : كان ·

الأم : شمس ··· ؟؟

سامى : بس كانت كتزه ·· زى الدنيا ·· والليل فيها كان كتير ·

الأم : أيام مارى جرجس ·

سامى : ساب شغله وكل اللى وراه ·· اللى مربوط بيه ··· ونزل جرى من ع الجبل ·· وجرى ع البحر ·· بره البلد ·· فى الخلا ·· والحربة كانت فى ايده ·

الأم : زى الحبل ·· اللى فى ايدك ·

سامى : (يبحث عن الحبل منزعجا ·· حتى يعثر عليه ·· ثم يسحبه خلفه ·· ويتحرك الى الأمام غاضبا ··) كان جبلاوى عايش على الشوك ·· راجل من الرجالة اللى بتقضى حياتها فى القلايات ·· محدش منهم قدر يقف فى وشه ·· الوحش صرخ بعلو صوته لما شافه ·

الأم : (صارخة) ·· بالحربة ···

سامى : البحر بقى أحمر ·

الأم : دم ··· دم ···

سامى : م الوحش اللى مص البحر ·· العالم ·

الأم : بالحبـــل ·

(سامى يمسك الحبل فى يده ·· ويروح يسحبه أكثر فأكثر) ·

(وعند الباب تظهر امرأة تحبو ·· شعرها يغطى كل وجهها) ·

سامى : (يصرخ فيها) ·· ادخلى ادخلى ·

الأم : (تستدير مصفقة فرحانة) ·· جت ·· جت ·· (تدخل المرأة تتلفت حولها وكأنها تبـغى التعرف على المكان ·· يبـدو عليها الانزعاج ·· سامى فى تلك الأثناء ·· يروح يتحرك فى عصبية وجدية أكثر ·· ومن آن لآخر يتوقف فى مواجهة أمه) ·

الأم : ما تقفش ساكت

سامى : مش قلت لك ·· لازم تيجى

المرأة : أنا معملتش حاجة ·

سامى : (غاضبا) ·· أنت !!

(يروح يطوف حولها ، دون أن يلتفت اليها)

·· أنت ·· أنت معملتيش ·· بعد دا كله ·· ؟؟

الأم : أمسك الحبل فى ايدك ·

(ينتبه لوجود الحبل) ·

سامى : (للمرأة) ··· بعد كل ده ·· ؟

المرأة : معملتش ·

سامى : (شامخا عند رأسها) ·· دا أنا معدشى فى حاجة منك ومن اللى عملتيـــه ···

الأم : (شاهقة) ··· ابنى ···

سامى : معدشى فيه ·· وانت السبب ·

المرأة : ما أنت كبرت ·

سامى : أترمى فى الشارع ·· تأكلنى الكلاب ·· أحرق روحى بالجاز · (بحدة) معدش ليه وجود ··· ؟

(صمت)

كله ·· ويعبر بيـديه ·· ويضحك ·· يضحك ·· ويضرب فخذه بكف يده ·· بلا صوت للضحك ··) ·

الأم : زى امبارح ·· اوع تسكت ·· وتنسى ·

المرأة : (مغمغمة) ·· أمشى لولادى ·

سامى : (صارخا) ·· مش عايز أسمع صوتك ·

الأم : (بزهو) ·· هو دا ابنى ·· الحبل فى ايده ·

سامى : سمعته قبـل كده ·· يوم ما قبلتـك ·· زمان ·· والنهارده بتغيرى سكنك ·· عشان ابتليت ·· وكله راح معدشى عندى ·

المرأة : (بنفس الصوت الخافت ·· الخالى من التعبير) · هيه كده العيشـة ·

الأم : اوع تنسى اللى شفته طول الطريق ·
(بحماس) ·· لما كنت تحط رجلك وتعتر ·· وف مرة وقعت ·· وف مرة قمت ·· وف مرة مشيت على رجل واحدة ·· وف مرة مرضت ·· وف مرة قلنا دا مات ·

المرأة : أنا السبب ·· أنا ؟

سامى : أنت وهمه ·· الجميع ·

الأم : عايزة أشوف ·· الجميع ·

سامى : (تتضاعف حركته ·· فترة) ·

الأم : وهمه واقفين واحد ورا أخوه ·

سامى : (ينشغل بالحبل • وسحب المرأة خلفه •• وتحرك الى الداخل •• تأخذ المرأة مكانها زاحفة •• الى الداخل •• الى جانب الجدار منكسة صامتة •

سامى يسحب الحبل •• ويجذبه فى معاناة فترة •• وفى النهاية يدخل رجل ممتلىء ، وجهه أبيض وعيناه واسعتان مفتوحتان •• يدخل الى المسرح يحبو على ركبتيه يمضى يتعرف جنبات المكان •• ثم يتجه الى الأم والابن) •

مفتاح بيه : كنت هنا امبارح •

سامى : ادخل على ركبك •

الأم : (منتشية) •• الحبل فى ايدك اليمين •

مفتاح : أنا معملتش حاجة •

سامى : بعد دا كله •

الأم : اوع تنسى •

مفتاح : مليش ذنب •

سامى : أنت مسبتش حاجة •

الأم : احنا عطاشى من يومها •• من زمان •

سامى : كل حاجة حتى العضم •• والأرض •

مفتاح : الدنيا كده •

سامى : ترمينى فى الشارع •• شايف اللى أنا فيه ؟
(يشير الى نفسه وبيته) ••

مفتاح : (منكسا) مش أنا بس •

الأم : (صاخبة) •• أبدا •• أبدا •• مش كده •

سامى : (بحدة) •
مسبتش حاجة •

مفتاح : مش أنا بس •••

سامى : و ••• ؟؟

مفتاح : مش أنت بس •••

الأم : اسمع •••

سامى : (محتدا) ليه •• عشان ايه ؟ •

مفتاح : عشان صغير ·
سامى : وأنت ··· ؟
مفتاح : (لا يجيب فترة) ·· احنا كده ·
سامى : تعدمنى العافية ·· حتى العضم ·

(يروح يتحرك من حوله ·· ومفتاح فى وقفته ·· مضطربا ·· صـامتا ··) ·

ويياما رحتلك البوابة ·· وقلتلك ارجع ·

الأم : دا كان زمان ·· وراح ·· (بحدة) الحبل فى ايدك ·· وهوا مش موجود ·

(سامى يتوقف قليلا ·· فترة ·· للأم) ·

سامى : دا تحت ايدى ·· أنا مارى جرجس ·
الأم : فى القلب ·
سامى : (للرجل) ·· عشان ايه ؟
مفتاح : هيه كده ·· من فوق ·· م الأول ؟
سامى : وأنا ؟
مفتاح : أنت زيهم ·· وأنا معملتش حاجة ·

(الصمت) ·· وأنا زيهم ··

سامى : (منحيا) ·· تدوسونى ؟
الأم : عايزة أشوف ·· مش كده ·
مفتاح : هيه كده ·
سامى : كبير يأكل صغير ·· سمك فى بحر !
مفتاح : ولازم تفضـل ·
المرأة : ما عرفتنى ·
سامى : تسيبينى عشان معرفتيش ·· ؟

(عند رأسها) ··· أنا أشيل ترابك ·· ؟ عملك الوحش ·· عشان معرفتيش ·· ؟ عشان غلطتى ·· مشيتى فى سكة غلط م الأول ·· وقعتى وأنت ماشية ·· على كتافى ·· على كتافى ··

المرأة : غلطة ·
سامى : (عند أول المسرح)

اللى يحصل فى أول السكة يجينى ·· يفضل واقف مركون ·· وبعد كده يجينى ··· ؟

الأم : زى الشر .. عند البحر .. زمان .

سامى : تراب الطريق يجينى ...

الأم : الشر ! .

سامى : (مؤكدا للمرأة) .. تراب الطريق .

الأم : اوع تنسى اللى فات .

سامى : تعترى الأول .. وأعتر أنا بعد كده ...

الأم : خلص .. خلص .

سامى : (يتذكر الحبل . يروح يسحب المرأة خلفه فى حركات قاسية قليلا .. والمرأة تئن .. وتتوجع .. والأم تضحك وتصفق .. وتميل فى حركات عنيفة منتشية .. صاخبة) .

الأم : خلص .. خلص ...
(فترة) .. تراب الطريق .

سامى : (وهو يلكزها أكثر)
على كتافى .. على كتافى .

المرأة : عايزة أمشى .. ورايا شغل .

سامى : عشان واحد تانى .

المرأة : أنا جيت .. امبارح ! .

سامى : العمر بطوله حاتيجى .
(يتذكر فى أسى)
معدش فيه عمر .. وقع فى السكة ..
(بحدة) .. وقعتوه ؟

(صمت)

(يروح يخطو مضطربا داخل المكان .. تستوقفه سلسلة قديمة لها صليل بجانب الجدار فى المؤخرة .. يتفرسها . يلتفت الى المرأة .. يخطو .. تستوقفه صورة مارى جرجس .. يستمر فى مواجهتها .. يخطو مقتربا منها .. يتوقف مبهورا .. يداه مرفوعتان .. يتقدم ويعدل من وضع الصورة .. حتى تصبح فى مواجهة الجمهور .. يبتعد عنها بظهره .. والمرأة مربوطة به .. بذعر .. وكما لو كان مارى جرجس .. يتحرك بحصانه أمام عينيه .. يصرخ فجأة ويخفى عينيه) .. الحصان .. الحصان ..

الأم : (مندفعة) •• زمان •

المرأة : (باستعطاف) •• ماليش ذنب •

سامى : (يجرى الى الصورة ويبعدها الى الخلف) •

المرأة : ورايا شغل •• والعيال بترضع •

سامى : (للمرأة) ولاد الراجل ••• ؟

المرأة : (بصوت خافت) ولاده •

سامى : (يرفع صوته) اللى قابلتيه ، بعد ما قبلتينى • بعد ما مشيت • (بصوت عادى) •• ورحت الدكانة شريت عصابة عشان عينيه •• وقعدت فى الأرض •• وشعرى أبيض •

المرأة : (بصوت هادىء) • العيال بترضع •

(يمضى يتحرك صاخبا كأنه يبحث عن شىء •• والأم تطل عليه من مجلسها •• وكأنها تحاول الامساك به) •

الأم : اضرب فى القلب •

(سامى يتوقف فى مكانه متمطيا •• يستدير بحركة أقرب منها الى حركات الدمى) •

الأم : فى القلب •• عشان الناس تشوف ، وتسمع وتبكى •

(سامى يتنبه لوجود المرأة الزاحفة •• فترة) •

الأم : وياما ناس حاتبكى •• ياما •

(سامى يتحرك حول المرأة فى عصبية أكثر •• فترة) •

الأم : وياما بكينا •• ياما

المرأة : (ترفع رأسها وتغمغم) •

أنا ببكى •

سامى : (يضحك •• والأم تغيب فى الضحك والتصفيق •• واحداث الضجة)

(المرأة تنكمش •• وتتداخل فى بعضها •• وتمسح دموعها بكف يدها)

(سامى يروح يتأمل دموع المرأة •• ويميل بجسده

(سامى يتحرك أكثر •• وهما يذعران •• ويعانيان) •

سامي : (للأم بصوت من يحكى حكاية مؤلمة) ··

في مرة رحت بوابة مفتاح بيه ·· (فترة) ·· الخدامين كانوا مالبين الدنيا · والكلوبات ع البوابة والبوابة مفتوحة بطول الشارع ·

(يتوقف ·· يستدير الى الرجل غاضبا) ··

كل دا حصل ·

(بحدة) ·

اياك أسمع صوتك ·· اياك ·

(الرجل يطرق مذعورا ·· والأم تنتشى) ·

الأم : بيرجع تانى ·· هوا بحصانه ·

سامي : (للأم ·· يحكى) · في مرة خبطت على بيتها (يشير الى المرأة) كانت السكة مقطوعة ·· والعتبة بطول الحارة ·· والباب مقفول ·· لقيتها راقدة جوه ·· في آخر البيت ·· معاه ·

(يتوقف) ·· (يستدير للمرأة) ·

اياك ·· اياك ·

(المرأة تخجل ·· وتنزوى ·· وتتداخل في نفسها)

الأم : اوع تسيب الحبل ·· اضرب ·

سامي : (يحكى وبيده الحبل) ·

في مرة كنت ماشي في السكة رايح الغيط ·· غيطى جنب غيطه ·

(يشير الى مفتاح بامتعاض) ·

والليل كان دخل ·· والناس ملو السكة ·· ومكنشى فيه سكه تانيه ·

(يتوقف ويستدير اليه محتدا) ·

ابعدوا عن بعض ·· انت وهيه ·· والجميع

(بغضب أكبر) ·· متقفوش صف واحد ·

الأم : اوع ترجع ·

سامى : (عند أول المسرح ·· بصوت حزين) ·· أنا كنت وحدى وهمه جنب بعض ·· الجميع ·

الأم : أنا معاك ·

سامى : كنت معـاهم ·

الأم : جنبـك ·

سامى : زمان كنت معاهم ·· وياهـم ·· وأنا كنت واقف هنـاك ·· وحدى ·· أنا لسه ·· موقعش منى كتير ·

الأم : أنا الوقت معاك ·· (بتوسل) معاك ·

(يتبـادل كل من الرجل والمرأة النظر · ويزحفـان الى الوراء شيئا ·· فشيئا) ·

(يسقط طرف الحبل من يد سامى ·· فيزحفان أكثر الى الخلف فى بطء وتلمس) ··

سامى : (يستند على القاعدة) ·

نفضل نحبى واحنا جنب الأرض ·· (فترة) وفى يو م الأيام
نقف على رجلينا زى النخل ·· ونمشى ·· وخطوة ورا خطوة
نكبر ونروح السوق ·

(فترة) ·

(يتسللان أكثر الى الخلف) ·
وطول ما احنا ماشيين نصرخ ونملا الدنيا ·

(يبتعد عن القاعدة ·· ويصرخ فى أمه ·· التى تخفى عينيها بكفة يدها منزعجة) ··

وفى يوم من الأيام نقعد القعدة بتاعتك دى ·· زى الذئب عنينا مفتوحة على ما فيش ·· وكل اللى معانا واقع فى الأرض وتايه ·
(يدور حولها باحثا عن شىء) ·

فى يوم م الأيام نغمض عنينا وننام · وساعتها مش هنقوم ·· عشان نزعق ونروح السوق ·· وكل اللى ورانا حانسيبه ·
وساعتها مش هيكون فيه حاجة ورانا ·· غير الزعيق اللى مالى الدنيـــا ·

(محتدا) ·

فى يوم م الأيام كنت بتشتمينى وواقفة معاهم فى الصف ٠
(الأم تشوح بيدها رافضة) ٠
وفى يوم م الأيام قعدنا فى وش بعض ٠٠ الواحد فى وش التانى
زى العمل الردى ٠٠ ومفيش ٠
(يتوقف ٠٠ يتبادل الرجل والمرأة الى الخلف النظرات المتلصصة
٠٠ ويزحفان أكثر الى خلف ٠٠ يختفيان) ٠٠
وفى يوم م الأيام واحد منا هيشيلوه ٠ ٠ويرجعوا من غيره ٠٠
وبعد كده بشويه يشيلوا التـانى ٠٠ ويرجعوا وتبقى خلصت
الحكاية ٠٠ حكاية كل ليـلة ٠٠

(صمت)

الأم : الشر مات ٠

سامى : (لمفتاح بيه) حتى العضم ٠٠ ؟

مفتاح : وليـه لأ ؟ ٠

الأم : (لنفسها) زى زمان ٠

سامى : شايف اللى أنا فيه ؟

مفتاح : هوا دا اللى لازم يحصل ٠

الأم : الدم ٠٠ الدم ٠

(سامى يتحرك حول القاعدة ٠٠ وبيده الحبل ، وهما فى طرفيه
واحد ٠٠ وراء الآخر) ٠

سامى : دا أنا بموت ٠

الأم : وأنا ٠

مفتاح : (يستدير هامسا للمرأة) واحنا ٠٠٠

(المرأة تتحرك خلسة الى جانب مفتاح ٠٠ وتقف فى صمت) ـ
(سامى يتنبه لحركة المرأة) ٠

سامى : بتقفوا جنب بعض ؟!

مفتاح : احنا منعرفشى بعض ٠٠ (فترة) ٠

المرأة : بنيجى هنا بس ٠٠ مع بعض ٠٠ (تطرق) وأنا مبشوفوش ٠٠
تشير بيدها الى الخلف) ٠
هناك ٠٠ فى الدنيـا ٠

سامى : انتو هنا جنب بعض ..

مفتاح : (منكسا) هنــا .

سامى : وأنا وحدى .

الأم : اوع تخاف .

سامى : (محتدا) .. انتو لتننين كسرتونى .

(يجلس تحت القاعدة) ...

قبلتكم مرة .. مع ناس كتير .. مع كل الناس .. واحنا أصلنا لازم نتقابل .

(بغضب) .. نشوف بعض .

مفتاح : كل الناس .. طول عمرها كده .

سامى : (بتخاذل) . أنت وهيه .. والغايب .

مفتاح : فى السكك .. بنشوف بعض .

سامى : تعملوا فيه كده .

المرأة : أنا مليش ذنب .. (تضحك لمفتاح) .

مفتاح : وأنت اللى جيت فى سكتى .

(بصوت عادى)

وأنا الكبير .

سامى : مليش وجود .. ؟

مفتاح : لك .

المرأة : أيوه .

سامى : مليش .

مفتاح : لك .

المرأة : زينــا .

(صمت)

الأم : اطحن .

سامى : (متوترا) .. تعدمونى .. كلكم ... الجميع ؟

مفتاح : أنا معملتش حاجة .. أنا زى الجميع .

المرأة : وأنا مشيت عشان قالوا . ناس منهم قالت ..

سامى : ليه كده ·· ندوس بعض ؟

مفتاح : احنا كده ·

المرأة : أنا مليش ذنب ·

الأم : (تميل بجسدها على ابنها وتتعقبه ·· وتسأل) بتقول كان فيه شمس ؟

سامى : (يتوقف متذكرا) ·· كان ·

الأم : والنهارده فيـه ؟

سامى : فيـــه ··

الأم : لكن هوه موقفشى ساكت أبدا ·· أبدا ميكيش ·
(تسأل بحدة)
مش كده ؟

سامى : الحربة كانت فى ايده ·

الأم : قدام الوحش ·

سامى : كان راجل ·

الأم : هوا دا اللى بقولو ·· (فترة)

(مفتاح والمرأة يتبادلان النظرات الوجلة ·· شيئا فشيئا ·· يضطربان ·· يتولاهما الذعر ·· يروحان يلتصقان الواحد الى جانب الآخر ·· ويتبـادلان النظرات المنكسة مع سـامى ·· ويمضى سامى يعقد طرف الحبل ويجذبهما خلفه غاضبا ·· والأم تصفق ·· وتلوك شيئا فى فمها ·· وتصرخ) ·

الأم : كل ليلة ييجوا ·

سامى : لازم ييجوا ·

الأم : ونتفرج عليهم ·· والحبل فى ايدك ·

سامى : اخلص اللى عملوه ·· عمل العمر · (يزفر) ·

الأم : خلص ·

الأم : عايزة ··

سامى : (يقاطعها فى غضب) ·
مش عايز أسمع منك ·

الأم : (تشهق ·· وتخفى وجهها كله ··)

سامى : فى يوم م الأيام كنا أم وابنها .. وبنمشى .

الأم : (ضارعة) حرام عليك .

سامى : صوتك بيعذبنى .

الأم : حرام .

سامى : (بحدة .. مبتعدا عنها) .

كنا بنمشى .. ونعمل حاجات .. والنهارده .

(يتأمل نفسه وكل ما حوله) .

الأم : عايزة أشوفهم .. عايزة .

سامى : (يصحو) مين .. ؟

الأم : اللى وقعوك .. زمان .. زى الوحش .

سامى : كانوا هنا امبارح .. جنب بعض .

الأم : الحبل كان فى ايدك .

(سامى يتذكر الحبل . يروح يبحث عنه .. يعثر عليه الى الخلف .. يرتبك قليلا .. فيسقط منه الحبل سهوا) .

سامى : انت زيهم .. انت واحد م الصف .

الأم : (ضارعة) فين همه .. ؟

سامى : أنا مش ناسى .. مفيش وحش يتنسى حتى الحنش .

الأم : والرومانى .

سامى : كله بيفضل .. ويطلع تانى .. احنا بس اللى بنروح .. العضم .

سامى : قلها لى .. الليلة .

(يسأل) .. الحكاية ؟

الأم : بتاع كل ليلة .

سامى : (بصوت الرجل المجروح .. حين يحكى) .

فى مرة كان فيه راجل كبير . لابس جلبية مخططة .. وقاعد ع البوابة .. وأنا كنت ماشى .. (فجأة) قام يجرى عليه .. وقطع لى هدومى . ورمانى فى السكة وأنا ماشى ، ومن يومها ماقمتش .

(يجلس) .

ركنت ضهرى للحيط .. وحطيت وشى فى الحيط .. وقعدت .

الأم : (تصرخ) قوم .

سامي : (يهب غاضبا) .. بلاش اقول .. اسكت خالص .. بلاش أتكلم .. فيه فى الدنيا حد ساكت .. ؟

فيه فى الدنيا ناس ما بتعيطش .. ؟ مفيش حد زعلان .. ؟ (بصوت عال) .. مفيش هم .. ؟

الأم : امسك الحبل .

سامي : (يبحث قليلا عن الحبل .. يفشل فى العثور عليه .. يستدير للأم .. يخطو خطوة نحو القاعدة)

الأم : ابعد عني .. وقول ..

سامي : عشان كنت معاهـم .

الأم : اللى وقعوك .

سامي : (يحكى) .. رمانى فى السكة .. وفضلت نايم ومفتح عنيه .. والناس رايحة جاية تخطى من عليه .. ومفيش حد غطانى .. الدنيا كانت صيف .. الدنيا كانت برد .. والعياط مالى ودانى .. والراجل قاعد ع البوابة .. وقدامه الخدامين .. ومبيتكلمش كتير .

الأم : ليـــه .. ؟

سامي : (ضائقا) .. انت مش معانا .

الأم : ليـــه .. ؟

سامي : يتكلم ليه .. ؟ اذا كان ما رحشى منه حاجة .

الأم : حاجة ايه .. ؟

سامي : (بضيق أكثر) .. حاجة .. حاجة .. شيء .. (يتوقف) .. دم .. وقع من ع السلم .. إنكسرت رجله .. زلت .. اتزحلق .. وقع فى الأرض .. اتبلى .. داسوا عليه .. جريت تاه .. كل حاجة راحت منه .

(صمت)

الأم : (لنفسها) وقعوك ٠

سامى : (يضطرب قليلا ٠٠ يخطو الى الخلف ٠٠ يتوقف مرة واحدة يبحث ٠٠ يعثر على الحبل ٠٠ يمسك به يجذبه ٠٠ تتمطى الأم قليلا ٠٠ تغير من جلستها ٠٠ تتثاءب ٠٠ تهمهم ٠٠)

الأم : أنام

(تستدير ٠٠ تنزل القاعدة ببطء شديد ٠٠ وهو منشغل بالحبل ٠٠ تغمغم وهى تتمدد أمام القاعدة فى تكاسل ٠ سامى يروح يسحب الحبل ٠٠ تدخل المرأة وفى أثرها الرجل ٠٠)
(يدخلان متعثرين ويمضى هو يسحب الحبل وظهره للجمهور ، تنشغل المرأة والرجل بالتطلع الى المكان وكأنهما يدخلان لأول مرة ٠٠ يتبادلان النظرات ٠٠ سامى يتنبه لوجودهما) ٠

سامى : ادخلوا ٠

(ينكسان)

آدى أخرتها

(بحدة) ٠٠ شايفين ؟!

(يتبادلان النظرات فى صمت ٠٠)

(عاتبا) توقعونى ٠٠ وتدوسوا على ٠

(يبتعد عنهما مطرقا)

(لنفسه) واحد تانى هيدوس عليكم ٠

(يستدير الى أمه ٠٠ يفاجأ بنزولها ٠٠ يتجه اليها وهى نائمة ٠٠ يسقط منه الحبل ٠٠ يتبادل الرجل والمرأة النظرات ٠٠ يزحفان الى الخلف فى تلصص ٠٠)

سامى : (للأم) ٠٠ قومى ٠٠ ؟

(صمت)

(يهزها)

اصحى

(صمت)

(متراجعا الى الخلف) ٠

أنت سبتينى ؟

(صمت)

وحدى .. !!

(يهزها فى عنف أكثر ..)

هربتى .. !!

(تختفى المرأة والرجل ..)

(يدور باحثا عن شيء .. يتوقف فجأة .. يعود الى الأم ..
يميل على قلبها .. يتصنت ..)

(صمت)

(بحدة)

أنا لسه مخلصتش ..

(صمت)

(بتوتر)

لســه باقى ..

(يتلفت حوله)

مش ممكن كده .

(فترة)

ما أقدرشى أقف وحدى .. لازم أتكلم .

(محتدا) لازم تسمعينى .. أتكلم ..

يحاول أن يعيدها جالسة .. يعانى .. تجلس مائلة يحاول أن يفتح عينيها .. يفشل) .

جنون .. ؟

(يحاول ايقافها فى صعوبة)

(غاضبا) .

اسمعى الكلام .. ؟

(صمت)

اللى جى عشان أقوله ..

(يسندها على القاعدة .. كالمصلوبة .. يبتعد عنهـا ويصرخ فيها) .

لازم أتكلم ·· أقول ·

(هائجا) ·

مش ممكن نسكت ·

(يتجه ناحية صورة مارى جرجس ·· فترة يعود الى الأم ·· يتوسـل) ·

اسمعيها حكاية الرومانى ·· حكاية الحنش ·

(يحكى)

مكنتشى فيه ميه فى البلد ·· والناس عطشانه ·

(يسـأل)

تعمل ايه ·· ؟

(يتوقف)

(يصرخ)

اسمعيها ؟

(صمت)

مش ممكن كده ·· أنا مخنوق · مش ممكن وحدى ·· (يجرى الى الداخل ·· يعود ثانية ·· الى الأمام ·· يرتبك ·· يعود الى الداخل ··)

(فترة) ·

(يسدل الستار)

***

حق الدوا على مين

حق الدوا .. على مين ؟

فى تلك الأيام الخوالى كنت أسعى الى جمع مأثوراتى وحكاياتى ومواويلى الشفهية من أفواه الناس أينما وجدوا داخل أعماقه والأسواق من غة البهائم .. جمال وحمير يمتطوها مشتروها ليجربوها ويتعرفوا عطبها على طول الطرق غير الممهدة ، وقد يختفى بعضهم بحماره عن الأنظار ، متخذا طريقه ـ هذا الى كفره أو عزبته ، ويظل صاحب الركوبة منتظرا عودته ومن حوله يطمئنونه :

ـ اصبر يا (أبو فلان) . كل واحد حريص على قرشه .

الى أن تحاوط المخاوف صاحب الحمار وتدب مدوية فى قلبه يأسى فيضرب كفا بكف :

ـ عليه العوض ومنه العوض فى البهيم .

ـ يعوض عليك .

الا أنه يصرخ من حرقته :

ـ أنا ماقبلشى عوض .

أجل .. فالعوض تابو .. مرفوض .

كنت أسعى الى جمع مأثوراتى وموادى الجمعية الشفهية بكل اشتهاء ، متعرفا أماكنها ، حتى داخل المقابر وتحت أقبية وأضرحة الأولياء والشيوخ ، وعند عيون الماء الراكدة ، وحيث مضارب البدو والغوازى والحلبية التى استحالت الى حلبسة .

كنت أقوم من نومى مفلوقا مع مطلع النهار وبدلا من التوجه الى المدرسة ، أقنع صديقى ومساعدى ـ المدهول ـ بالتوجه الى كفر معين أو عزبة أو احدى الهوارات أو واحدة معينة من « الزرابى » الفقيرة رغم ثراء الطبيعة وعطائها فى الأرض المشجرة كمثل غابة عميقة الأزهار والاخضرار .

وفى مطلع ذلك النهار كنت كمثل صياد يتعرف مكمن فرائسه قلت لمرافقى :

ـ نروح عزبة الأصفر .

ـ لصفر . ودى فيها حاجة . دا كفر .

أقنعته خلال الطريق الزراعى الملتوى ميمنة وميسرة .. كحكاوى الليل الاستطرادية :

ـ نشوف يا حربى .

ـ نشوف .

ما ان شارفنا على العزبة ، حتى هالنا سحب دخان الجلة والجرجوب أو بقايا الشجر المتحجر الذى يستخدمونه فى الطبيخ .

وبالفعل كركبت بطننا روائح الأطبخة المتصاعدة من داخل الدور الطينية الواطئة ، وعرفت من فورى ان اليوم يوم سوق البلدة :

ـ طابخين .

حططنا رحالنا أمام مصطبة بيت تساقط جيرة التركوازى ، وعلى الفور تجمع حولنا بضع من صبية وبنات ذوات أكراش ونساء عجائز حملن الينا الماء البارد وفى أعقابه كوبات الشاى ثلاثة أدوار تفوح برائحة النعناع بأكثر من الشاى :

ـ انتوا غرب .

ـ أجل .

ـ عاوزين حاجة ؟

ـ ايوه .

ـ الموجود .

تقاربت رءوسهن فى تندم وهن يهمسن من حولنا :

ـ سائلين .. شحاتين . على باب الله .

تسائل حربى مساعدى :

ـ أمال فين الرجالة ؟ ... رجالة العزبة .

ـ فى سوق الخميس والغيطان .

ثم أوضح لهن وكان ماهرا فى التقاط لغوهن وتعابيرهن بما يضفى الاطمئنان الكافى ، ليتحلقن حولنا من كل صوب على المصطبة المفروشة بالحصر الملونة والأرض .

قال باننا لسنا بشحاذين أو سائلين أو طلبى حسنات ، والحسنة الوحيدة التى نطلبها مجرد الاستماع الى حكاياتهن وأمثالهن وندبهن ، فهذا هو عملنا . قال :

ـ كارنا .

تضاحكن :

ـ حودتجيه .. يعنى .

قلت :

يعنى .. أى حاجة ؟

تساءلن أكثر :

ـ زى ايه .

قلنا :

ـ أى حاجة بتحصل . غنيوة . سهراية . مجرودة حدوتة ندب .

قالوا :

ـ ندب .. تبقوا مباحث .

ـ أبدا .. أبدا .

قالت احداهن وكانت موشومة الوجه والساعدين :

ـ تكونوش بياعين كلام .

قلت :

ـ يا ست .. احنا بنشترى .

هنا تساءلن مطولا وارتفعت أصواتهن يلغطن فى نفس واحد باسم :

ـ أم مقبولة مفيش غيرها . شايلة كتير . واعرة .

قلت منتشيا : فين .

ـ مفيش غيرها فى العزبة . عارفة كل حاجة . شعر وندب يقطع القلب .

وحكت لى احداهن حكايتها :

ـ يا بنى دى ماكنتش كـده ·· دى كانت بحبـوبة زصبيته · صوتها يجيب من آخر الدنيا · صوتها حلو وكانت تحنن فى الحج ، ومفيش زفه لعروسه والا مطاهر ماتزفوش ·

قلت :

ـ بفلوس ·

قالوا :

ـ أبدا ·· أبدا · دى هيه كده بحبوبحة · ما تحبش النكد أبدا ·· ولا الندب

ـ أمال أيه اللى حصل ··

عاد وفد من بنات وصبيان العزبة ليعلنوا فى احباط : وكانوا قد جروا ليحضرونها :

ـ مش راضيه تيجى ·

قلت :

ـ ليـه ·

عاد وفد النساء والبنات من جديد يلغطن فى صوت واحد كمثل جوقه :

ـ أصلها قلبت على ندابه ·· من يوما ما ·

انتصبت واقفا مقررا الذهاب بنفسى الى بيتها · الا أن النسـاء أقنعننى بلا جدوى المشوار الى بيتها فى ظهر بيوت العزبة فهى مقطوعة لا تحادث أحدا :

ـ بعد اللى حصل ·

ـ اللى حصل ·· حصل ايه ؟

وحكت لى المرأة المسنة ثقيلة الوشم حكايتها :

ـ يابنى دى كانت ما تبطلشى ضحك ونوادر حلوة وغنا وفرفشة قبل اللى حصل · قبل ابنها اليتيم اللى كانت بتربيه ما يموت ·

حل صمت مفاجىء عم الجميع حتى الأطفال والصغار :

ـ أصل ابنها جالو ·· العى ومسكوا ورقد طريح الفرن سنين ·

(صمت)

ولما بعتنا جبنالو حكيم من المدينة ٠

وميل عليه وكشف ، بصلنا واحنا حواليه وقال :
ـ حق الدوا على مين ؟

وسمعه ابنها العليل عيط وطق مات ٠
ساعتها جاءت أم مقبولة ٠٠ تدب بعكازها منشدة :
آم طق العليل مات ٠

ابنى ٠٠
من قوله :
ـ حق الدوا على مين ؟

★★★

حكاية بنت اسمها خيبة

حكاية بنت اسمها خيبه

أشك كثيرا فى أن هذا ما حدث لجارتنا « أم محمد خيبه » ، وهذا هو اسمها الذى عرفت به على طول البلدة وعرضها :

ـ خيبة أو البت خيبة ٠

الا أن الناس أسبقوا الاسم بـ أم محمد ٠ ربما للتخفيف أو الترفق ، ذلك أنها امرأة زوجة عادية لا يشوب تصرفاتها شيء معيب الى حد الخيابة ، فلا هى بالرغاية أو العبيطة والهبلة ، وهى زوجة لرجل كادح تقلب فى أشق المهن المتصلة بالبهائم وشئونها ٠ عمل فرازا يتعرف البهائم بتحسس ما تحت ذيولها وأثبت حنكة فى هذا الكار ، وعمل « جـــلاما » لقص شعورها وأصوافها موسميا ، واستقر به الأمر آخر المطاف فعمل جمالا على ناقة مرابطة أمام داره الطينية الواطئة التى يعيش فيها مع زوجته المدعوة خيبة ٠

ولم نسمع يوما أنه يسىء معاملتها أو يقسو عليها سوى أنه كان يناديها عادى باسمها :

ـ خيبة ٠٠ يا بت يا خيبه ٠

فترد عليه وتجيبه مرحة ضاحكة بنعم وحاضر ، ذلك أنها كانت تحبه فى قلبها وتغنى له :

ـ عينى وراك يا جدع يالِّلى ورا الناقة

ـ سايق عليك النبى تيجى عندنا وتبات ٠

ـ نضحك ونلعب ونفتح للهوا طاقة ٠

وأحيانا ما كانت فى ليالى الصيف تجلس أمام دارها وسط شلة من النساء والبنات بنون تطبل على دربكتها وتشـــاركهن الغناء والحنين فى مناسبات خطبة أو حنة احداهن او في مواسم الحج والحجيج :

كانت ست عادية أقرب الى أن تكون مليحة معتدلة القامة منها الى المعوقين والدميمات وما أكثرهن ٠

مضيافا الى هذا اليسر الذى كانت تشارك فيه بعلها ـ نوبة ـ الجمال الذى كان ينقل بجمله المحاصيل من بوص وحطب وقصب وبطيخ وعجور وعبد اللاوى وشمام ، وذلك فيما قبل اختراع عربات «التيبوتا والسوزوكى» وانتشارها لتأخذ مكان الجمال البخاتى العفية قديما ٠

الى أن حدث ذلك الحدث المؤسف الذى أنهى حياتهـا وحيدة الى جوار جدار أو فوق سقف دارها لا تكلم أحدا شبه ـ صماء ـ أو طرشاء لا تسمع بسبب ما حدث « من تحت رأس اسمها الذى ولدت به وأصبح عاديا ، مثله مثل بعيدة أو سامى والمسميات ، لعائلات بكاملها وأفرادها تسكن البلدة ٠ عيلة الجحش والتحتش والخشن والتعلب والقط والفار والشمام وعجور وقنفذ والسيح بالحاء وشيح ، وعريف ـ أى الجراد ـ وأبو جعده ـ أى الذئب ـ وأبو الأخبار ـ أى الهدهد ـ وأبو حسان ـ أى الديك ـ وأبو حاتم ـ أى الكلب ـ والكلبية زوجة معاوية بن أبى سفيان، بل ان أبا سفيان نفسه كناية عن الغزال ، والحجاج أى أبو الدهر ، وأم الهم وأم الرقوم كناية عن الموت والمنايا ٠

ويبدو أن الغرض من هذه التسمية والمسميات هو التحايل على الموت واطالة العمر والمنفرات ضد الشرور ، وهو ما حدث لخيبة ، الى أن حدث لها ما حدث وأصبح حديث الناس وتهكمهم ٠

الا أنه يبدو أن فى الأمر ملعوبا أو « انه » ذلك أن أحدهم ـ وقد يكون على معرفة بها أو بروجها ـ تنكر فى هيئة بائع كلام ٠ وهى مهنة اندثرت كما اندثرت مهن المنادى أو المعلن أو الاعلامى ، وطاف حوارى البلدة ودروبها وشقوقها مناديا :

ـ بياع الكلام ، يا من يشترى اسما ٠

وكانت ساعتها تخض لبنا مخيضا فى ساحة الدار ، وما أن اخترق أذنها نداء بائع الكلام والأسماء ، حتى جرت من فورها الى أن قاربت عربته الصغيرة الملونة والمدندشة بالعقود والخلاخيل والحلقان والغوايش مأخوذة من ألوان التفتاة والتعصيبات الحريرية :

ـ بكام ؟

ـ ايـــه ٠

ـ الاسم ٠

ـ ببلاش لك يا حلوة ؛

دفع بغربته اليد الى أن سد بها مدخل بيتها متطلعا هنا وهناك ، وهو يستخرج لها كومة من الأسامي المسطورة على ربطات وفوينكات الشعر الحريرية :

ـ اسم أيه ؟

ضحكت خجلى وهى تقفز الى مدخل بيتها :

ـ خيبه ٠

بصق ساحبا عربته الى بعيد فلحقت به منوسلة :

ـ عايز أشترى ٠٠ بس ٠

أجابها مهونا :

ـ بس أيه ٠٠ مفيش فلوس ٠ أنا ما باخدشى فلوس ٠

ـ آمال تاخد أيه ٠

مد بصره الى ما داخل فسحة الدار وحنرتها الداخلية مستطلعا :

ـ أى حاجة ٠ الموجود ٠

من فوره قرء لها الأسامى :

وعايزة فوزية والا عدلية والا جمالات والا حلوتهم والا قمر وشمس وأم السعد ٠

وقفزت فرحة من فورها :

ـ أيوه ٠٠ أم السعد ٠

استخرج لها ـ الشرفة ـ الحزيرية ، وبضعة حلقان وغوايش وخلخال ملون ، واندفع من فوره الى داخل الدار حذرا مستطلعا :

ـ بس آخد أى حاجة ٠

ـ خد ٠

ـ البلاص دا اللى فوق الفرن ٠

أمسك به وهو ينفض غباره ٠

ـ ايده مكسورة فيه أيه ؟

ـ أبدا شوية رده ٠

اندفع من فوره دافعا عربته المزينة مناديا :

ـ غوايش ٠٠ بياع كلام ٠٠ أسـامي الى أن اندفع كالريح عبر الحواري المتعرجة المهجورة فى تلك الظهيرة التي تشويها الشمس الحارقة شيا ٠٠ واختفى كمنل ريح ٠

حتى اذا ما عاد الزوج توبة ، وابرك ناقته وغسل وجهه من الزير الرطب خلف الباب مناديا :

ـ يابت يا خيبة

لم تجب :

ـ يا خيبـة ٠

ولم يجد بدا من مقاربتها وهى تكمل خضيضها ، مائل عليها غير مصدق :

ـ خيبه ٠

ـ أجابته فزعة :

ـ ما اسميش خيبة ٠

ضرب توبة كفا بكف مذهولا :

ـ دى نطقت ٠٠ آمال اسمك آه ؟ ! ٠

ـ اسمى أم السعد ٠

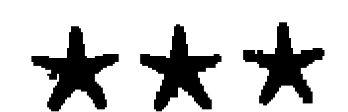
ـ أم السعد ٠

وحكت له الحكاية ، وقبل أن تكملها جرى الى الحجرة الداخلية ، بحثا عن ـ الثمن ـ البلاص مكسور الأذن صارخا من أعماقه وهو يطيح فيها ضربا بخيزرانة الجمل معقوفة الرأس :

ـ وادتيله البلاص ٠٠ والردة اللى فيه ٠٠ دا فيه شفا العمر ٠٠ تحويشة العمر ٠٠ يا بلوة العمر ٠

وتجمهر الجيران من كل صوب وهو يصرخ ويهيل التراب على رأسه كالمخبول :

ـ البلاص ٠٠ وكمان أم السعد ٠



المعركة

العركة !!

فى الصباح الباكر اتخذ محمد عبد منجود طريقه الى سوق السبت ، حاملا على ظهره ـ شبوبته ـ من العصى والشوم والخيزران السويسى والعكاكيز والنبابيت ، مرحا كعادته ملقيا السلام على كل من مر به ، من تجار وزبائن مسرا لنفسه فى استغراب ، بأن هذه هى السوق اما تجارا أو مشترين ٠

أحسن بوخز العصى فى ظهره وجنبه وهو يرقب وفود قطبى سوق السبت من تجار خضار وبطيخ وطين رمادى وتين برشومى وفرارجية ، وتجار نحاس ودقيق وطعمية وسمك مشوى : كله طالع يسترزق ٠

حتى اذا ما اتخذ نصبته بالقرب من مدخل سوق البهايم غنم وجمال : وحمير وأبقار ، تخالطت أصواتها ونهقاتها ، وهى تتعرض لجسات المشترين ، وتلهث على طول السور الطينى المقابل مثيرة الغبار والعفار على طول السوق ٠

(أشعل لفافة وطلب شايا علقما من الغرزة المجاورة ، منشغلا فى ترتيب عصيه ونبابيته جاذبا الأنظار للجديد منها مستطلعا جموع البشر والدواب الذين تحويهم سوق البهائم والذين هم أفضل زبائنها خاصة البهائم والذين هم أفضل زبائنها خاصة الجمالة ٠

أعاد ترتيب عصيه متحسرا قليلا وهو يطرقه كفا بكف ، فقد يمضى نهار السوق بكامله دون أن يبيع نبوتا أو عصا واحدة ٠

الدنيا اتغيرت ٠

تساءل ٠

ـ ماذا جرى ؟!

لم يعد أحد يولى اهتماما للعصى وممارساتها من تحطيب وحماية كما كان يحدث قبلا خاصة فيما قبل دخول الكهرباء هذه المخروبة ـ ألبلدة وضواحيها ماذا جرى ؟!

ولم يطل الأمر كثيرا بمحمد عبد المنجود ، اذ سرعان ما باع ثلاثا من العصى لثلاثة أبناء عمومة ... فرجت .

طلب شايا مرا علقما جديدا ورفع عقيرته بالتسويق لعصيه والغناء فى مرح واضح حقيقى لكل ذى عينين ، الى أن وخزته كلمات : فرحان قوى فى المصايب .

مصايب قوم ... !!

انتبه مستطلعا أفق السوق وحركتها الدءوبة المتواصلة وخوار بهائمه الى أن عاد من جديد منخرطا فى بيع نبوتين شوم لنفرين جدد وسرعان ما تهافت الزبائن من كل صوب عليه : ايه الحكاية ؟

رفع عقيرته بالغناء من جديد :

ـ السويس .

مصايب .

شد بصره هرولة رجال من كل صوب ، لحق بسمسار بهايم ناحل الطول حافى القدمين عالى الصوت يدعى فضلا :

ـ حصل أيه ؟

لم يجبه السمسار مهرولا الى الجهة المقابلة من السوق :

ـ دلوقت تعرف يا ابن منجود .

وسرعان ما نشبت العركة وتعالى الصراخ والزعيق وتعالت العصى والشوم من كل صوب ، وصرخت النساء .

ـ يا لهوى .

ـ بلدين وقعوا فى بعض . تجار البهايم والجزارين .

عنكبوت

عنكبـــوت

كلمة رثاء حول اضطهاد عنكبوتة يتيمة لا مؤذية تسكن غرفتى

يسكننى حيوانان · ذئب وأم جاهلة على نياتها ·
أكتب عندما يعوى الذئب فى داخلى ·
قد يردينى أرضا لأنطح البلاط ·
وقد لا يكون وقته وساعته ·
فى كل الحالات ·
كما فى بعضها ·
أراها أهوالا قادمة ·
تطرق كل باب ومنفذ ·
تهز اليكترونات الستالايت ·
الناس عبر شوارع المدن ·
طائرات الحلف تبحث عن عدو ·
أين ؟ !
عموما · الأحلاف لا ينقطع لها ترابط ·
منذ الاعتصام يحيله ·
منذ طواطم الأرض ·
حشراتها ·
سوس خشب الصندل
الذى لعب فيه
قوضـــه ·
زواحف الأرض ·
الضب ·
الدبيب ·
عناكب حراء ·

أيها المخلص ٠
أطل علينا ٠
أين ؟
فى أرض الجاز والزواحف ٠
يتخلق ذلك المعجز ٠
من تراب ٠
وفى أركان غرفتى ٠
يشهد بعينيه التى لا ترى ٠
نحيبى ٠
فى عجزى ٠ فى وحدتى ٠
تحت سلطانه الأبدى ٠
مدن الجاز والسياحة ٠
الناس من كل صوب ٠
أجل من كل فج عميق ٠
مرضى البلدان المفتوحة ٠
يأتونك سعيا ٠
يا أيها المعمر الرقيق ٠
يا أيها التراب ٠

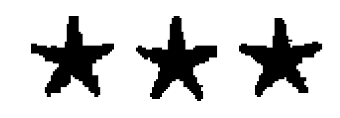
★★★

لو أن كل شىء فى ذمتك ٠
رقتـــك
خيوط حريرك وطرقها المتعرجة ٠
نسيجك الكونى
ناموسك ٠
يا من لا ترى ٠
أيها الكائن السامى ٠
المتسامى ٠
يا من لا ترى

★★★

العلك أنت ساكن العلاى ٠
رءوس قمم أشجار البكاء ٠
وحيث لا تسمع أقدامك ٠

تسمع ·
بما يدعو أي كل احترامي ·
وحيث يتقدمك الرب ·
في وهنك
في حنكتك ·
لو أن لك لحما يؤكل ·
في عيد الضحايا والشواء ·
لكننا احتفينا باسالة دمك ·
كمثل خروف
كعجل معلوف ·
الا أنك بلا لحم يؤكل ·
بلا أعياد كبيرة
احتفالات
مجرد تراب ·
وكذا بيتك ومسكنك ·
يا أيها الفريسة الكئود ·
الباطشة ·
يا واهب الخير والبزنس ·
انت يا من تسكن الخرائب ·
تستتر مداخل الغارات ·
تحفظ أسرارها ·
زوايا جدران غرفتي الصماء ·
تقتات زواحف الأرض ·
ناموس ·
تتمدد كمثل عوسج ·
لا معين سوى عكازاتك ·
انت ·
يا أيها المبجل ·
يا من شددتها مدنا ودويلات ·
أطل علينا ·
مجرد اطلالة ·



لص الملوك

لص الملـوك

بتاريخ ١٩٩٦/٩/٢٤م نبدأ مشروع منوعات مسرحية تعتمد على مختارات من تراثنا الشعبى ، يراودنى عملها أو مسرحتها منذ زمن طويل يتجاوز ربع القرن الأخير ·

قد تكون مستوحاة من كتبى الثلاثة عن الحكايات الشعبية العربية ، الشعر الشعبى العربى ، السير والملاحم العربية ·

وهى عناصر أو تضمينات أو موتيفات مستقلة بذاتهـــا على طريقة الموتيفشن ·

على أن يكون للرقص التعبيرى والحديث وما بعـد الحديث الدور الرئيسى أو الجوهرى فى هذه المنوعات التى يصـبح لمفردات الحركة والجسد البشرى للممثل الراقص ·

وهذا يستلزم اعطاء قدر أكبر من حرية الحركة وديناميتها الأبعد من احباط الراقص المصرى المسيج أو المحكوم بالتابو وعـدم القدرة على الحركة المنفتحة والتعبير الجسدى شديد التحرر والدينامية ، علما بأن هذا الراقص تنساب حركته وتصل الى أقصى عنفوانها وحركتها المطلقة فى الاحتفالات الشعائرية مثل الذكر ، الزار ، ورقص التنورة ، والتساؤل هنا لما لا تنساب حركة الراقص ؟ وبالتالى مفردات تعبيراته الجسدية لتعطى أقصى مداها دون حرج ودون احبـــاط التابو المقيد والمناوىء للسرعة والدينامية ·

هذا بالنسبة للحركة وتصميمات وأيضا كريوجرافيا المشاهد الراقصة التى قد تستلزم الرقص زحفا على أرضية المسرح ، كما أشارت ·

أما فيما يتصل بالصوتيات من حلول موسيقية ومؤثرات صوتيـة ولا بأس من الاستعانة بالموسيقى الالكترونية والكوراليات التى تتوسع فيها بالتحديد المدرسة الألمانية منذ فاجنر ـ وكارل أورف ، ومهلر ·

وذلك بالاضافة الى الخلفيات الموسيقية للآلات الشعبية من باصات ودفوف عملاقة التى كانوا يطلقون عليها (بنديرى) وشخاليل ورباب وصاجات وهكذا . ولا بأس طبعا من الاستعانة براو هو أيضـا راقص وكلاون يملك قدرة التعبير الجسدى والحركى والقدرة على مخاطبة الجمهور وأقترح أنن يكون طويل الجسد فارع الطول أو يستعان بعصوين يقف عليهما بحيث يبدو شاهق الطول وبيده عصا أطول منه مزدانة بالشخاليل والمؤثرات الصوتية الأقرب الى الأجراس الصغيرة وهكذا .

أما لبسه فله لبس سائل ولا بأس من الاستعانة بقناع يمسك باليد ويواجه الجمهور متسائلا فى كل حالاته فهو راو يطرح أسئلة أكثر من تقديمه حلولا أو اجابات .

الراوى : (أماما مواجها الجمهور بشكل مفاجىء .. ماشيا من يمين المسرح الى يساره والعكس قائلا) :

حاجة غريبة . أغرب من الخيال ذاته تراثنا الشعبى ده . ونقدر نسميه موروثاتنا . أو ارثنا أو الوراثة اللى شايلينها طول عمرنا وقايمة على الكلام . كلام . كلام . كلام فيــه اللى له لزمه واللى مالوش وأهو لت فى عجن . نسمعه من اللى قبلنا ونقول اللى قبلنا قالوا ونشربه من لبن أمهاتنا واحنا بنرضع ، (يمثل حالة طفــل يرضع من صدر أمه فترة) ونعب ونزيح وزى مابقولكم الفاضى والمليان وان جيتم للجد يعنى اذا كنتم عايزين الجد مش ابن عمه ثلاثة أرباع الكلام ده مالوش لزمة وعفا عليه الزمن (يتساءل) هــه لكن نروح منه فين .. نروح منه فين الماضى الحى ده ، الماضى الحى ده اللى لازق فينا زى العتة فى الجتة (يغنى وأهى كلها عتة وأهى كلها عتة لازقة فى الجتة) .

(تكمل الأغنيـــة)

الراوى : عايز أقول (يتوقف) أقول ايه . دى بلوة .. مصيبة زرقة ، طين مغروزين فيه (يضحك) الطراش دا . لامؤاخذة أقصد التراث . (يسمع من داخل المسرح طرقعات صاجات مع الاضاءة المرهفة الخفيفة التركوازيرة ونلمح صفا من الراقصات بالشمعدنات) .

الراوى : (يقفز ملهوفا كالملدوغ مستديرا) .

عما وصلم الهى يخرب بيوتهم زيادة عن ما هى مخروبة آل أيه عوالم وان الواحدة منهم عالمة عوالم وعالمة طب وخليتوا ايه للعلم وأهل العلم ادى العوالم بتوعنا ٠٠ ادى العوالم بتوعنا وخد من ده كتير (العوالم يقتحمونه راقصـــات ويطفن من حوله ويطاردنه ويهزلن معه فترة الى أن يفلت بجلده مكتفيا تاركا المسرح لهن يرقصن بشمعداناتهن واضاءاتهن فترة ـ (وقد يغنين أغنية أيضا عوالمية ٠٠ ما أن تنتهى الرقصـــة حتى يعود الراوى الى مكانه أمامها مواجها الجمهور مواصلا حديثه) ٠ وخدوا من ده بقه ٠ وزى ما قلنا أهو كلام ابن عم حديت وهى اللعبة على بعضها كده يظهر انها لعبة كلام وكان فيه ايشى ملوك عدمانين حافيين من ملوك الحواديت وقصور وسرايات مبنية ايشى طوبة فضة وطوبة مرجان وايشى زمرد ودهب ماتعدش ٠

حواديت فى حواديت وخصوصا قبل مايخترعوا الترانزستور والبتاع أبو ايريال طويل كده والتليفزيون والستالايت وده بقي جه بهدل الدنيا ورمى الحاجات دى فى زوايا النسيان ٠

وبمناسبة النسيان دى اللى عاملة زى الأستيكة اللى بنمسح بيهـا الكلام (يخلع زعبوطه) على النعمة دى أحسن حاجة زوايا النسيان دى عشان تلات تربع الحكايات والحواديت وحواديت الفرفشـــة وحواديت العبرة التي تخلى الواحد يمسح دموعه (يمسح دموعه منهنها) حكايات عن الدود المرزوق فى الحجر والتعابين والسحالى والأبراص اللى هو الدبيب ٠

(يغنى ممولا) :

ـ مافيكشى همه يا طبيب

تداوينى وأنا جاعد

أمانة يا طبيب تداوينى من دواك حبة

دا الدود يا طبيب نقط ع الفراش حبة

ومثل سمعناه من اللى قبلنا قالوه :

(يبكى) ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠

(للجمهور) خلوا بالكم ٠

(يغنى)

دبيب سطا فى الطعام (يمثل) يا للهول · يا للهول ·

كان بسنا جاعد ·

(يجرى هنا وهناك) شوفتوش أغرب من كده · البرص بخواله فى طعامه ·· والقط الرمة ·· قاعد ·

الراوى : والا أقول لكم حدوتة ملتوتة برضه من الحاجات اللى ملهاش لزمه جمعها راجل اسمه هيرودوت ونسبها لملك قبليه بييجى ألفين سنه وبتتقال لحد دلوقت (يمثل) تلوكها الألسن يصدر همهمات لحد الوقت هى هى نفس الحدوتة آل ايه البنا ·· البنا اللى بنى قصر الملك الغنى قوى قوى قوى قبل ما يموت وتطلع روحه قال لابنه الكبير على سر فتح الخزاين الهايلة قوى قوى قوى بتاع الملك · (تخفت الاضاءة حيث يقف ، بقعة ضوء فى مؤخرة المسرح تكشف عن سرير البنا الفرعونى المسجى والى جانبه ابنه الأكبر يخبره بكيفية فتح خزائن الملك) ·

(البنا يعانى فى سريره أو فى فراشه فى شبه رقصة موت الى أن يلفظ أنفاسه وزوجته تندب وتهيل التراب والنيلة الزرقاء على رأسها فى رقصة جنائزية قد يستعان فيها بمعزيين وتماثيل لآلهة التابوت مثل الأنوبس وهكذا) ·

(موسيقى جنائزية من نوع الباص لمنشدين أقرب الى الكهنة البوذيين تنتهى بالاظلام لفترة) ·

(لا يسمع سوى همهمات الكهنة الباصات الثقيلة عبر الاظلام فترة) (يظهر جانب من قصر الفرعون الهائل ، وابن البنا يتسلل بيده بشعلة مضيئة يتعرف طريقة الى حيث خزائن الملك عبر الأقبية الى أن يجدها ويفتحها ويضع المجوهرات والأموال فى زكيبة بيده ، يحملها عائدا قفزا كالشبح يلتقى بأمه المذهولة من كثرة الذهب والمجوهرات ، بينما الأخ الأصغر يتلصص عليهما من كوة فترة ، الى أن تتنبه الأم له ، فتصرخ الأم :

الأم : أخوك ·· أخوك !

(يختفى المتلصص وينتبه الأخ الأكبر ، يجرى هنا وهناك راقصا متحديا ، وهو يخرج خنجره) ·

(اظــلام)

(الأم والأخ الأصغر وهو يقاربها مهددا ومعذبا لمعرفة السر ٠٠ سر فتح خزائن قصر الملك ، يلقى بها أرضا فى رقصة سادية وهو يسحبها من شعرها مهددا بمقص في يده ، وكذا خنقها الى أن تضعف قواها ، فتبوح له بالسر باكية خائفة ، راقصا فى انتشاء ٠٠ ويجرى خارجا) ٠

تنتحب فترة ، الى أن يدخل الأخ الأكبر ٠٠ فتخبره ؛ يغير هو ملابسه ويحمل سيفه جاريا فى أثره) ٠

(البهو الملكى)

الملك : (الفرعون هائجا مهددا على طول البهو راقصا فى أقصى غضبه ٠ يدخل وزيره الضامر المتخاذل يقفز ٠ الملك ، ليركبه مهددا منكلا ، ثم يتركه) ٠

— دبرنى يا وزير يا عكر ٠

الوزير : التدابير لله ٠٠ ولك يا ملك ٠

الملك : احنا لازم نعمل حاجة (يعلو هياجه) آه ٠٠ اللص ٠

(يلتفت للوزير ساحبا مقرعته) ٠

وانت يا وزير ياكوتش ٠

(يحاول ركوبه فيقعان) انت مالكشى لازمة خالص ٠ وصلت لخزاينى ٠ أنا الملك ٠

الوزير : (جانبا) ملك الطبيخ ٠

الملك : اللص ٠ آه ٠ (يفكر طويلا) أنا شايف ان اللى سرق امبارح لازم ييجى بكره ٠

الوزير : يبقى نحط فخ ٠

الملك : (صـــارخا) الفخ ٠٠ الفخ ٠ يا جزم ٠٠ الحقونى ٠ فلوسى أموالى ٠٠ كنوزى ٠ شقايا وشقا جدودى ٠ الملك خوفو ، ومنقرع ٠ (يجرى بالمقرعة وراء الوزير فى هزل) فين الفخ الجهنمى ٠

(يدخل خادم بالفخ الجهنمى) ٠

يرقصون حول الفخ ٠٠ منقذ ٠

(فترة اظـــلام)

(يظهر جانب القصر ، والأخ الأصغر يتسلل .. الى أن يصل الى الخزائن . وما أن يمد يده حتى يقبض الفخ على عنقه) .

(يظهر الأخ الأكبر ، مروعا وهو يجد أخاه الأصغر على هذا النحو يستخرج سيفه ويقطع رأس أخيه يخبئها تحت عباءته جاريا عائدا)
(بيت البنا والأم تروع حين يدخل الأخ الأكبر ملقيا برأس أخيه الأصغر أمامها) .

(الرقصة الجنائزية الهمجية للأم الثكلى التى تفرد شعرها وتهيل النيلة الزرقاء ـ فترة) .

الأم : (ترقص حول الرأس ثم تحتضنها وتجرى على الابن الأكبر فى هياج صارخة) الجثة .. الجثة .. هات لى الجثة .

(قطع الى)

(البهو الملكى)

الملك : (ملتاعا يجرى حول الجثة المعلقة دائرا حولها) جثته من غير رأس . منين نعرف لها أساس .

الكورس : (يردد) .

(يجرى على الوزير الضامر محاولا ركوبه) يا وزير الشؤم .. يا عكر .. **ياوش أمك** .

(يتركه زاحفا ـ ويجرى مفكرا فترة) .

الملك : آه . هيه . جتللى . آهى (للوزير) دبرنى يا وزير المصايب .

الوزير : التدابير لله ولك يا ملك (للجمهور) البلاوى .

الملك : (يدور حول الجثة) .

آه . هيه . أنا عارف المصريين عبدة موت وجتت . آه . (يجذبه)
تعلقوا الجثة دى فى أكبر ميدان . واللى تشفوه يصوت .
أو يندب تحتها .. امسكوه . آه مسكتك يا حرامى الملوك .
(بوابة قصر تطل على ميدان والجثة معلقة على سار عال . فى ركن الميدان بضعة جنود بخوذاتهم وأسلحتهم يلهون) .
يدخل من الجانب الآخر للميدان الأخ الأكبر يدفع أمامه عربة يد مزينة بالرايات والأجراس وتغطيها رسوم الآلهة الفرعونية . برديات وعلى

العربة زلع زجاجية لخمر وجعة وبوظة ينادى على بوظته فترة ٠ الجنود يحاوطونه فى شره الا أن يفتعل معركة معهم تكسر فيهـا الزجاجات وتسيل الخمر ، فيشربون فى شره يسكرون يرقصـون رقصة السكارى الى أن يغافلهم الأخ الأكبر بعد نومهم واسترخائهم ، فيحمل الجثة مسرعا ويسرقها جاريا) ٠

الجنود : الجثة ٠٠ الجثة ٠

الملك : فين ٠ (يجرون ويهرولون هنا وهناك) ٠

(يختفى الأخ الأكبر ٠٠ موسيقى اظلام)

البهو الملكى

الملك : (هائجا يطرق كفا بكف ويجرى هنا وهناك صارخا فى وزيره الضامر ، وجوقة الجند) سرقها منكم ٠ قدام عنيكم يا بهايم ميرى ٠ علنى (مستديرا) وأنت يا وزير الركايب والمصايب ٠ ماعدشى فيه أمان فى المملكة ٠٠ المحروسة ، يعنى بالفرعونى كده ٠٠ ناحت علينـــا ٠

(تدخل ابنة الملك الفاتنة تتلاعب بجسدها الفاتن) ٠

الابنة : وأنا فين ٠٠ يا مولانا ٠

الملك : أنت ٠

(يطيح فى وزيره ، ثم الجند بالمقرعة ضربا ومطاردا ، والابنة تتلاعب حوله) ٠

الابنة : (فى ثقة) أنا اللى حاجيبه لك مقيد ٠ هنا تحت رجليك ٠ (تضحك فى خلاعة) ٠

الملك : أنت ٠٠ بنتى ٠

(تحاوطه الابنة مسرة فى أذنه بصوت لا يسمع فترة ــ يفرح قليلا وهو يحتضنها فى حماسة) كده ٠

الابنة : وأكتر من كده ٠ الليلة ٠

الملك : فكرة هايلة ٠ ياللى ما هى باظت يا وزير يا نحس ٠

(تخرج الابنة ــ اظلام)

البهو الملكى

الملك : (جالسا على كرسيه ، يهب فى عصبية لوزيره المنكس الذى يخرج له من تحت الكرسى كالجرذ) ٠

انت فين يا وزير يا خرع ٠

الوزير : أنا مش خرع ٠ أنا ياما التهمت الأعداء (يخرج سيفه محاربا ٠٠ ويقع) ٠

الملك : أعداء ٠٠ هىء ٠

الوزير : وياما نهبت وسرقت خزائنهم ورميتها تحت رجليك ٠

الملك : أنت حاتقوللى يا نورى ٠

(يتوتر) أنا بقول على البنت اللى غابت ٠ هه ٠٠ ليكون سرقها هيه كمان ٠٠ الحرامى ٠

(تدخل الابنة متخاذلة تضع عباءة على كتفيها ، يجرى عليها الملك)

الملك : حصل ايه ؟!

البنت : (تبتعد منكسة باكية) ٠

الملك : قوليلى (هامسا) و ٠٠ حصل ٠

البنت : حصل ٠

الملك : ايمتـــــه ؟!

البنت : طول الليل لوش الفجر ٠ (بدلع) ماتفكرنيش ٠

الملك : يخرب بيتك ٠ بتقولى حصل ٠٠ وكده بلوشى ٠

(يجرى على الوزير ليركبه) دا بكرة يركبنا احنا كمان ٠

البنت : ماركب ٠

الملك : ركب ٠

البنت : للصبح يابا ٠

الملك : وليه مامسكتيش فيه ٠ وتبتى قوى ٠٠

البنت : (بحرقة) مسكت ٠٠ للصبح ٠

الملك : وبعدين ٠

البنت : قلت منى وادانى دى ٠٠ (تخرج له ذراعا مقطوعة من تحت عباءتها) اليد المقطوعة دى ٠

(الملك والوزير يخافان فترة) ايه ميتين ، وماحكلكشى حاجة ·
أغرب حاجة ·

البنت : قال ·

الملك : أيه ·

البنت : هوه · هوه · تمام ·

(يجرى وراء الوزير بالمقرعة) دا لازم يظهر ويبان · فعلا · دا أكبر
خبير ، واحنا محتاجينه فى المملكة · دا حايبقى كبير وزرائى ·
دا فعلا حرامى موهوب · (يجرى هنا وهناك) فين رجال الاعلام ·
الاعلانجية المنادين · يدوروا وينادوا فى المملكة ·· اظهر وبان ·
(يتجه للوزير محاولا ركوبه)

دا اللى حايرحمنى منك ·

(تسمع من الخارج نداءات)

اظهر وبان عليك الأمان · اظهر وبان ··

الوزير : (يبكى) وأنا ·· راحت عليه ، بعد اللى عملته ·· الكحل اللى
سرقته علشانك من الرعية ·

الملك : (يطارده خارجا) أنت تروح تخلى مراتك تقليلك يا أبا الرعيزع ·
(نداءات) اظهر وبان ·

(يدخل اللص فى مهابة ، البنت تتأمله وتجرى عليه مقبلة وترتمى
تحت رجليه) ·

الملك : اتفضل ادخل واقعد على الكرسى دا · تعالى يا كبير الحرامية ·
أقصد الوزراء ·

(اظـــلام)

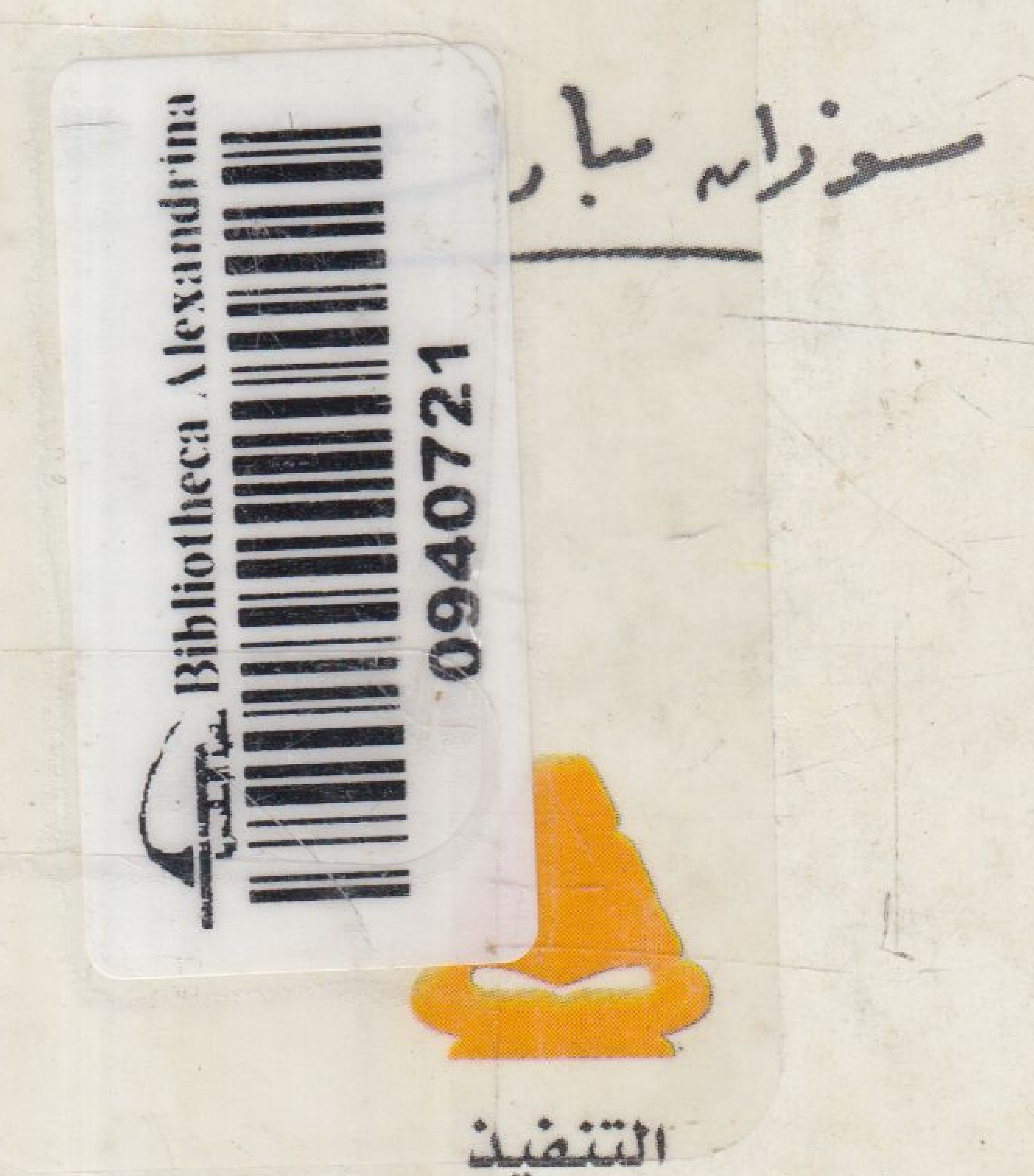
الفهـــــــرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك



التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٣٠٠ قرش